



مطبعة خان مكتبة مصر

صداك السنين

تأليف

عبد الحميد عبده السحار

الناشر :

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - النجاة

دار مصر للطباعة

عبد جوده السحار وشركاه

صَدَى السنين

دخلت مكتبي ، وأمسكت بالقلم ، وحاولت أن أكتب . ولكن لم تكن نفسي متفتحة للكتابة ؛ كنت أحس كأن حملا ثقيلا حط على رأسي ، فعطل تفكيري ، فألقيت القلم ، وقعدت ساكنا أتلقت حولى فى خمول ، فوقعت عيناى على كتاب كنت اشتريته وأبقيته لساعات فراغى ، فمددت يدي وتناولته ، وفتحته ورحت أقرؤه ، ولكن ما إن قرأت بضعة أسطر حتى عافت نفسي القراءة ، فرميت بالكتاب ، وقمت كوسنان يداعب النوم جفنيه ، وسرت إلى غرفة أخرى حتى بلغت مقعدا وثيرا ، فارتيمت فيه ، وأرخيت جسمى ، ورحت أنعم بالكسل اللذيذ .

وتقلبت فى رقدتى ، فرأيت على نضد قريب (ألبوماً) للصور ، فخطر لى أن أتسلى بتقليب صفحاته ، فتناولته وفتحته ، فرأيت صورة زميل من زملاى فى المدرسة الثانوية ؛ كان شابا صغيرا ، فى وجهه صفاء ، وفى عينيه ذكاء ، فأخذت أتأمل الصورة مليا . فتزاحمت الأفكار فى رأسي ، وعادت لى الذكريات سنين طوالا ، فشخصت ببصرى إلى السقف ، وجعلت أعرض حوادث تلك الأيام فى شغف وحنين .

كنا صديقين قلما نفترق ، وكنا فى الفصل متجاورين ، فإذا انتهى اليوم الدراسى انطلق معى إلى بيتنا ، أو انطلقت معه إلى بيتهم الرحب العتيق ، وكان فى حى قديم من أحياء قاهرة المعز ، قريبا من ضريح من أضرحة القاهرة

الشهيرة ، التى يفد إليها الفلاحون من أقاصى البلاد للتبرك والزيارة ، فكنا نشق طريقنا بين جموع زاحرة من الفلاحين والفلاحات ، والشحاذيس والمجنونين ، وبائعى المسابح ، وحاملى قدور العرقسوس . وأوانى الخروب ، ونحترق صفوفًا من عربات اليد الصغيرة المصطفة على جانبي الطريق ، محملة بأساور من زجاج أخضر وأحمر وأزرق وأصفر . أو بأكداس الترمس التى حفت بها قلال رشق فى أفواهها الفل والزهر . أو بأكوام اللادن أو الجوافة الضامرة التى دب فيها الفساد ، وكنا نستنشق الهواء يعبق بدخان المياخر المعزوجة بالدخان المنبعث من الصينيات التى تحمر فيها الأكباد والقلوب ، وكانت الأصوات المتنافرة الصادرة من هنا وهناك تصك آذاننا ، فنغذ السير ، لنفر من تلك الضوضاء الذى يدير الرعوس .

وكنا إذا بلغنا دارهم نلج من باب هائل كبير ، صنع من خشب متين ، وحصن بأزرار من حديد ، دقت فيه فى صفوف ، وما إن ننطلق خطوات فى ممر قصير حتى نجد بابًا آخر يوصل إلى قناء الدار الواسع ، الذى صفت فيه أرائك خشبية عالية من طراز عربى قديم ، فكنا نجلس على أريكة من تلك الأرائك نستذكر دروسنا أو نتجاذب أطراف الحديث ، حتى إذا جن الليل انصرف كل منا إلى أهله .

وقابلت أهله وعرفتهم ، وأمضيت معهم أوقاتًا طويلة . وكنت أقابل أباه فأحبيه فى إجلال ، فقد كان رجلاً وقوراً ؛ كان مدرساً للكيمياء فى مدرسة من المدارس الثانوية ، وكان شيخ طريقة من الطرق الصوفية ، فكان قليل الكلام ، فى وجهة مهابة . وكان الأتباع يقدون إلى داره لتقديم فروض الولاء ، فكان يقابلهم فى منظر رحيبة ، يصغى إليهم فى تواضع ، ويقبل عليهم فى بشاشة ، ويحدثهم حديث الدين فى طلاقة ، فيقومون من عنده يتغنون بكريم خلقه ، وإيمانه الصحيح .

وفى يوم من الأيام قال لى صديقى : إنهم يحتفلون الليلة فى دارهم احتفالاً دينياً

كبيراً ، يحضره الأتباع من كل البقاع ، وأنه يدعوني لمشاهدة ذلك الاحتفال الرائع ، فاعتذرت إليه ، وقلت له : إن والدى لا يوافق على سهرى خارج البيت ، فقال لى إنه سيذهب معى إلى والدى تستأذنه فى حضور ذلك الاحتفال ؛ وأنه على ثقة من أن والدى لن يمانع فى أن أحضر جفلاً دينياً جليلاً . وانطلقنا إلى والدى ، وتقدم منه صديقى ، واتمس منه أن يأذن لى الليلة بالسهر عندهم ، فوافق ولم يبد اعتراضاً ، ولعله قد سره أن يندمج ابنه فى زمرة رجال الدين .

وذهبت إلى دارهم نشوان ، وجعلت أغدو واروح فى فناء الدار الكبير الذى جهز لاستقبال الوفود وأنا أحس اغتباطاً ، ودوت فى الفضاء أصوات دفوف وطبول وصنوج ، وجاء صديقى وجذبنى ، لنخرج لاستقبال طلائع الناس ، فانطلقنا حتى وقفنا على وصيد الباب ننظر ، فرأيت رجالاً فى ثياب قدرة ، أرخوا لحاهم ، يحملون رايات نصل لونها ، وراحوا يقفزون ويتأيلون على دق الدفوف . وأنا ساسيرون فى صفين طويلين وقد تشابكت أيديهم ، وراحوا يذكرون الله وهم يقصرون ويطولون ، ويتأيلون ويتسرحون ، ورعوسهم فوق صدورهم تدور ، فشعرت بشعور غريب ، كان دق الدفوف ينزل الرهبة بقلبى ، ومنظر الرجال وهم يتأيلون يخز روحى ويجعلنى أحس تضاًؤلاً وأسى عميقاً ، وانطلقت الزغاريد من وراء الشبايك ؛ وأقبل شيخ وقور فى ثياب سود ، وعلى رأسه عمامة خضراء كبيرة ، يتهادى على بغلة مطهمة تحت الرايات التى عقدت فوق رأسه ، ودنا الركب منى ، ففرست فى وجه الشيخ ، فإذا به والدى صديقى ، مدرس الكيمياء فى المدارس الثانويه .

وتدفق الركب إلى فناء الدار ، واشتد دق الطبول ، وارتفعت أنغام الناي

حلوة عذبه تهز القلوب ، وانسابت أصوات الصفارات ، فراح الرجال يذكرون الله في حرارة ، ويتمايلون في سرعة وتوافق ، فجعلت أرصد ما يجري أمامي كالماخوذ .

ودوى المكان دوى النحل ، واستمر الطبل والزمير ، واختفى الشيخ من جوف داره ، وراح الوقت يمر والناس يتمايلون مطبقى الجفون ، كأنهم قد غابوا عن الوجود ، وأقبل خدم شداد ، يحملون طناجير الثريد . فخفت الأصوات وتعلقت العيون بقطع اللحم التي كانت تخفى وجوه الطناجير ، ووضعت على الأرض ، فتحلق الناس حولها خفافا ، ولم تمتد إليها يد ، وتطلعت الأنظار إلى باب صغير ، وما انقضى كثير وقت حتى انفرج الباب عن الشيخ في جبة زاهية ، وفي يده عصا طويلة ، وتقدم الشيخ في وقار ، وهو يتم بكلمات خافتة ، ومد العصا ولمس طرف طنجير من الطناجير ، فانبعث لهب أخضر ، فهلل الناس وكبروا ، ودار على الطناجير كلها يلمسها بعصاه ، فانبعث منها ضياء ، فزاد التهليل ، وارتفع التكبير ، حتى شق عنان السماء .

وخفت الأصوات ، وراحت الأيدي تتسابق إلى القصاع ، وتلقى في الأفواه المفتوحة ما تصل إليه ، واستمر الناس في ازدراد الطعام الذي باركه الشيخ ، وبقيت واقفا أنظر وقد ارتسمت الحيرة على وجهي ، فقد خيرني ما فعله مدرس الكيمياء ، لانبعاث ذلك الضياء !

وتلفت حولى ، فرأيت صديقى ينظر إلى وقد رفت على شفتيه ابتسامة فأردت أن أبتسم ، ولكنى لم أستطع ، كان ذلك الضياء يحيرنى ، فاتجهت إلى صديقى ، وجذبه من يده ، حتى إذا ابتعدنا عن الحشد المنهمك فى طناجير الثريد قلت له :

— ماذا فعل أبوك ؟ .

فقال في بساطة :

— لم يفعل شيئا .

— وما هذه النار التي بعثها من الطناجير ؟

فقال مى خبيث :

— بركة من بركاته .

فدفعته في كتفه في رفق ، وقلت له :

— لا تضحك على ، فليست من أتباع أليك .

— هذا سر الأسرة .

— لن أنافسكم في مشيخة الطريقة يوما .

فقال في همس :

— أقول لك على ألا تبوح بسرنا ؟

— أفعل .

— لقد ثبت في كعب العصا قطعة من الفسفور ، فإذا ما لامست فمحاس

الطناجير انبعث ذلك الضياء .

وعدنا إلى حيث كان الناس ، ونظرت إلى مدرس الكيمياء الوقور في ثيابه

الزاهية ، وعمامته الخضراء الكبيرة ، وتطلعت إلى وجهه الهادئ الذي ينم عن

التقوى والصلاح ، فأحسست قهقهة ساخرة تدوى في جوفى دويا .

وقلبت صفحة في (الألبوم) ، فرأيت صورة ما إن وقعت عليها عيناى

حتى اضطربت ، كانت صورة فتاة واسعة العينين . باسمه الشفر ، في نحتها

غمازتان زادنا في فتنها ، وقرأت الإهداء .

و إلى عزيزتى التى أنساها ما حيت ، ذكرى ساعات حبية ، لن تمحوها

يد السنين » . فخفق قلبي ، وسرى في صدري إحساس غامض للذيد ،
ولفتني الحيرة التي طالما دثرتني كلما قرأت ذلك الإهداء . لم أكن أدري
أكتبته لزوجتي أم كتبتة لي .

كان ذلك من عدة سنوات . يوم كنت أذهب عصر كل خميس لأمضي
بعض الوقت مع أبناء عمي ، ثم أهبط . أنا وابن عمي الذي كان في مثل سني
نقطع الوقت في الطواف في الشوارع القريبة من دارهم ، حتى إذا وقد الليل
عاد كل منا إلى داره .

وفي ذات يوم ، قابلت عندهم درية ، كانت شابة في السابعة عشرة ،
حلوة كالبدر ، نديه كالفجر ، يزين وجهها الجميل عينان واسعتان آسرتان ،
وغمازتان بديعتان في وجنتيها ، وفم حلو صغير ، يغرى من يراه بلثمه
وتقبيله . وجلست قبالتها ، ورحت أسترق النظر إليها في نشوة ، وخفق قلبي
في فرح ، والتقت عيناي بعينها مرات ، فعبث بأوتار قوادي ذلك البريق
الخاطف المنبعث من مقلتيها ، وهامت رוחي تخلق في سماء صافية من الحب
والوداد ، وتقضي الوقت وأنا نشوان ، وأقبل الليل فأنصرفت ، ولو طاوعت
قلبي ما غادرت المكان .

وسرت في الطريق مطرقاً أفكر ، وما كنت وحيداً ، فقد كان طيف درية
يرافقني في طريقي . فكرت في تلك الفتاة الفتانة التي قطنت دار عمي
حديثاً ، فغمرتني نشوة لذيدة ، سأراها كلما زرت عمي ، وسأتعسم
بالإصغاء إلى حديثها الشهى الذي كان يدغدغ حواسي .

ومرت الأيام بطيئة ، وصورة درية تحتل ذهني ، وخطر لي أكثر من مرة
أن أنطلق في أثناء الأسبوع إلى دار عمي ، لأرى من هفت النفس إليها ، وتعلق
القلب بها ، ولكنني أحجمت على مضض فقد كنت معتاداً أن أذهب إلى هناك

يوم الخميس ، وخشيت أن يفطنوا إلى ما اعترائني من تغيير !
وجاء يوم الخميس ، فانطلقت إلى دار عمى ، وقد ارتديت حلة بديعة ،
وزينت شعري ، ورحت أغذ السير ، وقلبي في صدري نشوان ، ودنوت من
البيت ، ورفعت عيني ، فقفز قلبي في جنون ، وسرى في بدني تيار كهربي ،
كانت درية تطل من شرفتها ، وخيل إلى أن ثغرها قد افتر عن ابتسامة حلوة لما
لمحتني .

وصعدت في الدرج خفيفا كالطيف ، تدثرنى الغبطة ، ويلفني السرور ،
ورأيتها تفتح باب شقتها ، فاضطربت واعترائني ارتباك ، ولكن ذلك الإشراق
الساحر الذي ارتسم على وجهها . والبريق اللطيف المنبعث من عينيها ، وتلك
الابتسامة الحلوة التي رفت على شفتيها ، أفرخ بها روعي ، فحنيت لها رأسي
محيا ، فردت على تحيتي ، وصعدنا معا في الدرج ، كانت لحظة سعيدة لن
أنساها .

وجلسنا في شقة عمى ، وراحت تتحدث ، وأنا أصغى إليها كالأخوذ ،
كان حديثها يخلبني ، ويستولي على لبي ، أو يسلبني تفكيري .. ورحت
أرقبها ، كانت حركاتها تستهويني ، وسكناتها ترضيني ، كنت أراها بعين
الحب التي ما كانت تقع إلا على الروعة والجمال .

وأخذت درية ترصد مقدمي كل خميس ، فإذا لمحتني مقبلا من شرفتها
هرعت إلى الدرج تستقبلني ، وعلى شفتيها ابتسامة ترحيب ، ثم تصعد معا إلى
شقة عمى ، ثمضي الساعات الهنية التي كانت تمر كلمح البصر ، ويا طالما
اجتررت حديث تلك الساعات في الليالي والأيام !

وفي يوم من الأيام ، أخذنا أنا ودرية نرتقى الدرج ، لنصل إلى شقة
عمى ، وقد لمس كنفى كتفها ، فخفق قلبي في جوفى ، وتحركت إحساسات

الحب . وراحت تنساب في صدري ، فالتفت إليها ، فرأيت في عينيها بريقا هز
كياي ، وجعلني أهفو لأنفرد بها وحدي . وبلغنا شقة عمي ، ولكني لم
أعرج عليها لأدق الجرس ، بل وجدت نفسي أنساب في الدرج كلما أخذ ،
وأجذب درية من يدها في رفق فتساب خلفي ، كأنما ألقت إلى مقاليد
أمرها .

وبلغنا سطح الدار ، فوقنا برهة ننظر إلى الأفق البعيد ، لا ينبس أحدنا
بكلمة ، وراح قلبي يقفز ليغوص ، ثم يغوص ليقفز ، وأخذ الدم يتدفق حارا
إلى رأسي ، واعترتني رهبة واستولى على ارتباك ، وأخيرا وجدت لساني ،
فرحت أشرح لها حبي ، وأبشها وجدى ، وكانت تلك اللحظات أشهى
لحظات حياتي ، التي عشت أنعم بذكرها سنين .

وأخذنا تتلاقى فوق سطح الدار ، وبعيدا عن العيون ، نسعد بحبنا ، ولكن
لم يدم لنا الصفاء ، ففي يوم من الأيام هرعت إلى السطح لأقابلها ، فألفيتها
مطرقة ، قدنوت منها ، ونفخت في وجهها الهواء . ظلت في عبوسها ، فقلت
لها في حنان :

— ماذا يا درية ؟

فرفعت وجهها ، فأنخلع قلبي ؛ كانت الدموع تترقرق في عينيها
الساحرتين ، فقلت في صوت مخنوق :

— ماذا جرى ؟

فقلت في نبرات متهدجة :

— لن نتقابل بعد اليوم .

وشعرت بخنجر يمزق قلبي ، وبنار تشوى كبدي ، وبمطرقة هائلة تهوى
على رأسي ، فقلت في فزع :



— ماذا تقولين ؟

— انتهى كل شيء بيننا .

— ماذا حدث ؟

— خطبت ، وسيكتب العقد يوم الخميس القادم .

وأطرقت ، ولم أنبس بكلمة وإن كانت النار تحرق جوفى . ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئا ؛ وكنت لا أزال طالبا ، وكان أمامى خمس سنوات لأتم دراستى العالية ، وما كان من المعقول أن أتقدم لخطبتها ، وأطلب منها أن تنتظر هذه السنوات .

ونفضت درية تودعنى ، وفى عينيها دموع ، وفى جبهها أسى ، فأحسست يدا قوية تضغط على رقبتى ، وجفافا فى حلقى ، وخطر لى أن اضمها إلى صدرى ، وأمسح دموعها بشفتى . ولكنى أحجمت ، فقد انتهى كل ما كان بيننا كحلم قصير ، وتقضت لحظات الهناء ، ولم يبق إلا الضنى والعذاب . وهبطت درية ، وبقيت وحدى فريسة للعذاب ، ثم هبطت فى الدرج وفى جوفى لوعة ، وعزمت على أن أعود إلى بيتى لأنزوى بعيدا ، حتى لا يفطن أحد إلى ما أكابد من كرب وهموم ، ولكنى وجدت باب شقة عمى مفتوحا ، فلم أجرؤ على متابعة النزول خشية أن يلمحنى أحد ، فدخلت وجلست صامتا لا أنطلق بشيء . وجاءت درية وأمها ، ودعت الأم زوج عمى وأبناءها لتشريف الحفل المقام ، بمناسبة كتابة عقد زواج درية ، ودعتنى الأم لتشريفهم فى ذلك اليوم ، فوعدها بأنى سأفعل مسرورا ، وقسمت لأنصرف ، فهمست درية لى بأنه يسرها أن أجيئ ، فأربد وجهى ولم أستطع أن أدارى ما لى ، وانطلقت وفى صدرى ثورة ، ورحت أهبط فى الدرج كمجنون لا يلوى على شيء .

وجاء اليوم الموعد ، ففكرت في أن أذهب إرضاء لدرية ، ولكن قلبي لم يطاوعني ، فقد ثار وتمرد ، فبقيت في حجرتي مطرقا مهموما . ومر الوقت بطيئا ، فرحت أذرع الغرفة صاعدا هابطا ، لأطرد صورة درية التي راحت تلاحقني ، وتحمل تفكيري ، وتعذبتي وتضنيني ، وسمعت طرقا على الباب ، فذهبت وفتحته ، فوجدت خادما عمى الصغيرة تقدم لي لفافة ، فقلت لها :
— ما هذا ؟

— إنه من درية هاتم .

دوى قلبي دويا شديدا ، وفارت دمائي في عروقي ، وتناولت اللفافة وقد سرت في بدني رعدة ، وتفككت مفاصلي ، وأغلقت الباب خلفي ، وأخذت أفض اللفافة على عجل ، وانتابني قلق ، ووقعت عيناى على ما أرسلته لي درية ، فانتقبضت ، يا للسخرية ! كانت أول هدية بعثت بها إلى « علبة ملبس » ليلة كتابة عقد زواجها ، ورفعت يدي ، وهممت بتطويح هديتها من النافذة ، ولكنني لم أفعل . إنها من درية ، وما كان لي أن أحطم آخر ما جاءني منها .

ومرت عشر سنين ، وزوجت من ابنة عمى التي كانت طفلة في تلك الأيام ، وجلسنا يوما ننسق « ألبوم » الصور ، فقدمت إلى صورة درية فارتبكت ، وقرأت الإهداء ، فزاد ارتباكى . ترى أكتبته لي ؟ وخطر لي أن أستفسر من زوجتي متى أهدت إليها هذه الصورة ، فقلت :
— أظن هذه الصورة قديمة .

— لا ، إنها أهدتها إلى قريبا .

وبقت حيرتي ، ترى أتوطدت الصداقة بين زوجتي وبين درية حتى إنها تكتب إليها : « إلى عزيزتي التي لن أنساها ما حييت ، ذكرى ساعات حبيبة

لن تمحوها يد السنين « أم أنها ما زالت تذكر تلك اللحظات السعيدة التي قضيناها معا في شرح الشباب ؟! »
والله إن هذا يحيرني كلما نظرت إلى صورة درية ، وقرأت إهداءها العجيب .

وقلبت صفحة « الألبوم » فرأيت صورة أشاعت البهجة في نفسى . إنها صورة شاب بارز الفكين ، ذى شارب أصفر قصير في وجهه طيبة وبساطة ، عرفته في المصلحة ، وعطفت عليه لما رأيت من اضطهاد رئيسه له ، لا للذنب إلا أن ذلك الرئيس يعتقد أن واجب الرؤساء الأول اضطهاد المرعوسين ، وكان من سوء حظه أن رئيسه في الدرجة السابعة إذ كان هو على أعتاب الدرجة الثامنة ، وإنه لبون شاسع وفرق كبير .

وأحس الشاب عطفى ، فأحببني ووثق لى ، حتى إنه كان يعرض على مشاكلة ، ويستشيرني في أموره ، وفي يوم من الأيام جاءنى على استحياء ، وقال لى :

— سأطلب منك طلبا أخشى أن ترفضه .

— لن أرفض لك طلبا إذا كان فى مقدورى أن أحققه .

فقال وقد تضرع وجهه بحمرة الخجل :

— سأتزوج ..

— مبارك .

— وستذهب معى لتطلب لى يد من سأتزوجها .

— أنا ؟ وما دخلى فى ذلك ؟ إننى آخر من يصلح لمثل هذه المهمة .

— لا أطمئن إلى أحد غيرك .

— أرجو منك أن ..

— والله لن أذهب إلا معك .

فقلت فى استسلام :

— أمرى إلى الله .

— سنسافر يوم الجمعة .

— إلى أين ؟

— إلى بلدة قرية من طنطا .

وفى الصباح الباكر من يوم الجمعة كنا فى طريقنا إلى طنطا ، وراح يقص على قصة الفتاة التى يريد أن يتزوجها : إنها تعمل مدرسة مع شقيقته فى إحدى مدارس القاهرة ، وقد رآها فى بيتهم فأعجب بها ، ولم يزد على ذلك شيئا . وغادرنا القطار فى طنطا ، وذهبنا إلى السكة الحديدية الضيقة ، لتحملنا إلى بلد المحبوب . قعدنا فى مكان مكشوف فقد كان الجو صحوا جميلا ، وكانت الخضرة الزاهية التى تكسو الأراضى المترامية على مدى البصر ، تهفو إليها النفوس ، وتشيع البهجة فى الصدور .

وزأر القطار ، وهاج وماج ، ثم زحف زحف السلحفاة . إنه قطار عجيب ، يتهاذى فى وقار الشيوخ ، لا يحفل بالزمن ، ولا يخضع لنظام ، يسير كما يشاء ، ويقف حيثما يحلو له . وظل القطار فى تسكعه ، ونحن فى سمر شهى ، وخطر لى أن أتمشى قليلا فى ذلك الجو البديع ، فهبطت من القطار وهو يسير ، ومشيت فى خطوات ثابتة أملأ رئئى بالهواء المنعش ، وأحسست نشاطا يدب فى جسمى ، فأغذدت السير ، وبعد مدة تلفت خلفى فألفيت القطار مقبلا نحوى بضجيج وزئيره ، فانتظرت حتى وصل إلى ، فركبته ثانية ، وجلست إلى جوار صديقى ، ليحملنا إلى بلد ما كنا بالغيه إلا بشق الأنفس !

وغادرنا القطار فى وسط المزارع ، ثم سرنا على شريط مرتفع من الأرض

ينساب على جانبيه جدولان ، فرحنا نسير وقد رفعنا أذرعتنا في الهواء لنحفظ توازننا ، كأنما كنا نسير على الصراط المستقيم . وانطلقنا حتى بلغنا حانوتا متواضعا بنى بالطين ، فتقدم زميلي إلى من فيه ، وحدثهم قليلا ثم صافحهم في حرارة ، وجاءني مشرق الوجه يدعوني لمقابلة أهل عروسه . فذهبت معه إلى الحانوت ، وصافحت من فيه .

ودعينا للذهاب إلى الدار ، فسار أمامنا شاب يهديننا الطريق ، فرحنا ننساب في دروب ضيقة ملتوية حتى بلغنا الدار المنشودة . فدخلنا إلى منظره رحبة ، صغت بها الأنضاد والأرائك ، وكانت الآية الوحيدة التي تكشف عن أن أصحاب هذه الدار زاروا القاهرة ، تلك الصور الشعبية التي تباع في الموالد لأبي زيد الهلالي وهو ينكل بأعدائه ، والإمام عليّ على صهوة فرسه يطعن الشيطان طعنة نجلاء يسقط على أثرها مضرجا بدمه ، وكانت في إطارات بسيطة ، معلقة على الجدران في ذوق سقيم .

وفتح الباب ، وأقبل علينا رجل يرتدى طربوشا وجلبابا من الصوف الداكن ، وصافحنا في تحفظ ، وجلس إلى جوارنا يردد ألفاظ الترحيب ، وينظر إلينا في استغراب ، ففطنت إلى أنه لم يكن ينتظر قدومنا . وصمت الرجل فساد المكان سكون ثقيل .. رأيت أن أقطع ذلك الصمت ، وأن أرفع تلك الوحشة التي رانت علينا ، بأن أذكر سبب زيارتنا ، فالتفت إلى الرجل ، وقلت :

— جئنا نخطب ابنتك .

فنظر الرجل إليّ في دهش وقال :

— ابنتي أنا ؟!

فقلت في تأكيد :

— أجل .

فنهض الرجل ، وغادر المكان ، وظل صديقى صامتا لا يتكلم ، حتى أقبل الرجل وفى يده فتاة فى السابعة من عمرها ، وقال :
— هذه كبرى بناتى .

فأرتج على ، ولم أجد لسانى ، ولم أدر ما أقول ، وصعد الدم حارا إلى وجهى ، وبلغ مسامعى صوت صديقى الخافت وهو يقول :
— جئنا نطلب أختك .

فرنوت إلى صديقى رنوة عتاب ، ولكنى فطنت إلى أنه لم يكن يدرى ذلك قبل الساعة . وتحدث صديقى قليلا عن الصلة التى تربطه بهم ، وحسنا فعل ، زال عنى ذلك الانفعال الذى استولى على ، واستجمعت خيوط نفسى التى ذهبت شعاعا عقب تلك المفاجأة التى لم أكن أنتظرها ، وابتدأت أستأنف حديثى ، فقلت للرجل :

— لا أحب أن أخدعك ، فأقول لك إن صديقى ينتظره مستقبل عظيم ، إننى أقول فى صراحة إنه لن يكون رئيسا للوزارة ، أو مدير المصلحة ، إنه يضع قدمه الآن على أول درجة من درجات الوظائف ، وإنه سيرقى فى سلم الدرجات كما يرقى غيره ، وسيكون قادرا على أن يعيش هو وزوجه حياة متوسطة كما يعيش آلاف من الموظفين أمثاله . إنه شاب طيب ، وإنى أزكيه . ورن فى أذنى « إنى » « أزكيه » ريننا غريبا ، فالرجل لا يعرفنى حتى يقبل تزكيتى ، وأحسست أنى تجاوزت حدى فبدأت أنكمش ، ولكن كم كانت دهشتى عظيمة . لما رأيت الرجل يقبل على ويحدثنى مفتتح النفس ، ثم ينهى حديثه بقوله :

— إنى سأزوجها له إكراما لك !

(صدى السنين)

وانتهت زيارتنا ، واستأذنا وانصرفنا ، وما ابتعدنا عن الدار حتى احتضنتني صديقي ، وراح يقبلني في سرور ، وفهمت منه أن أخته خطبتها له قبل ذلك ، ولكنه رفضوا ، وأن الرجل لم يكن مجاملا لما قال إنه سيزوجها له إكراما لي . وخطر لي خاطر ، ترى لو قابلني الآن بعد أن كابد الحياة الزوجية أكان يهرع إلي ليقبلني ؟ ! .

وقلبت صفحة « الألبوم » ونظرت ، فانقبض صدرى ، وراى على نفسى الحزن العميق ، وأحسست غصة في حلقى ، وناراً تحرق كبدى ، كانت صورة أخى العزيز الذى أحبته لقلبه الكبير ، الذى كان يتسع لحب الناس جميعا ، وعادت بى الذكريات إلى شهور قريه ، إلى يوم انطبعت في نفسى ذكراه الأليمة ، يوم أغبر لن يمحوا ما خلفه في من أسى . . مر الليالى وكر السنين . كان الليل قد أقبل ، وكانت زوجى تشكو وعكة خفيفة . فهبط من شقته إلى شقتنا ليعودنا ، وجلسنا نتحدث ، فراح يقنعنى أن نسافر في الصباح مع النادى إلى الإسماعيلية ، ولما كنت أنقر بطبعى من الناس الذين لا تربطنى بهم صداقة متينة ، رفضت ، فأخذ يثني عن عزمى ، ولكننى أصررت على الرفض ، فأقسم أن يأخذنى معه برغم أنفى لأروح عن نفسى ، وبأطلما أخذنى معه قسرا إلى رحلات رائعة بهيجة .

واسترسلنا في الحديث ، ولاحظت احتقان وجهه ، فسألته عما فعله ، فقال لى إنه أخذ قبل عودته حقنة لعلاج ضغط الدم ، وصفها له أحد أصدقائه ، وأردت أن أنهاه عن ذلك ، ولكنى لم أتكلم ، فقد كنت أعلم ألا فائدة من تحذيره ، فقد كان يستعمل أى دواء يسمع به ، أو يصفه له صديق ، أو حتى عابر طريق ، كأنما جسمه حقل تجارب للأدوية والعقاقير .

وقام بعد أن قال لى لى لى ذاهب معى إلى الإسماعيلية في الصباح ، وجلست

أتحدث مع أمي التي كانت ستقضى الليلة معنا ، لتعتني بزوجي التي كانت تشكو وعكة خفيفة ، ثم دخلت فراشي لأنام ، وما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى سمعت جرس الباب يرن رنينا متواصلا ، فنهضت وفتحت الباب ، فالفيت زوجة أخي تقول في اضطراب :

— تعالوا ، إنه يغط غطيظا مفزعا ، وقد ناديته ولكنه لم يرد على .
فهرعت إليه ، وإذا بأمي تسبقني في الدرج ، تولول في صوت خافت مفزوع ، كأنما حزر قلبها كل شيء ، ورحنا نهزه في رفق ، ولكنه ظل في غطيظه ، فأسرعت أمي إلى قلة الماء وصبتها على وجهه ، ثم حملناه وأقعدهناه ، ففتح عينيه ، وراح ينظر إلينا وقد ترقق الدمع في مقلتيه ، وقال في صوت لا يكاد يبين :

— انتهيت .. الأولاد .

ثم أشار بيده إلى نصفه الذي ما كان يستطيع أن يحركه ، ورننا إلينا في أسي ، فأحسست سكاكين تمزق أحشائي ، ونارا تندلع في جوفي ، وأسرعنا إلى التليفون ، وطلبنا طبيبا من أصدقائنا ، وانتظرنا مقدمه في قلق رهيب .
وجاء الطبيب ، وما أن فحص عنه حتى أربد وجهه ، وبان فيه الحزن ، فتناول التليفون ، واستدعى طبيبا آخر ، وراح ينتظره صامتا لا ينبس بكلمة .
فرحنا نذهب ونجىء في الغرف حيارى وقد لفتنا الرهبة ، ونزل بنا الهمة الثقيل ، وأقبل الطبيب الآخر ، ومرت اللحظات التي غابها في غرفة أخي رهيبة موحشة ، ثم خرج من عنده منكس الرأس ، فهبط قلبي من الخوف ، وأسرعنا إليه ، واستفسرنا منه عما وجد ، فقال في صوت خافض أقرب إلى الهمس :

— نزييف في المخ ..

وغادرنا الطبيبان وقد خلفا في القلب لوعة ، وفي الجوف نارا ، وجلسنا مطرقين ، مرهفي الأعصاب ، نحس مرور الثواني واللحظات ، وراحت أمتي تغدو وتروح شاحبة الوجه ، شاخصة البصر ، تدق صدرها في لوعة وحزن ، وانقضت الليلة كأسوا ما تكون ليلة مرت على إنسان .
وأصبح الصباح ، واستدعينا طبيبا آخر ، فحجمه ، وأمر ألا يدخل عنده أحد ، ورحت أغدو وأروح في الردهة ، ثم اتجهت إلى باب غرفته وفتحته ، حتى إذا انفرج قليلا نظرت إلى أخي المسجى على الفراش ، فغاص قلبي ، وأحسست جافا وحرقة في حلقي ، ودثرتني الحزن العميق ، فقد كانت رؤية أخي الذي كان يملأ الدنيا حياة وهو راقد لا يستطيع أن يرفع ذراعا تفتت كبدي .

وانقضى النهار ، ونحن نترجع بين اليأس والرجاء ، وفي المساء جاء الطبيب وفحص عنه . وقال إنه لو أمضى ليلته هادئا . فقد يجتاز الأزمة بسلام . وتعلقنا بأهداب الأمل ، ومددنا في حبل الرجاء ، فرحنا نذكر من نعرفهم ومن سمعنا عنهم ، بمن حدث لهم ما حدث لأخي ، ونجوا مما أصابهم ، واطمأننا إلى ذلك الحديث ، فاسترسلنا فيه ، فشاعت في النفوس الآمال .
وانقضت الليلة هادئة ، وانتصف النهار وهو على حاله ، فرحنا نذكر ما سنفعله بعد إبلاله من مرضه ، ولكن ما إن وفدت طلائع الليل حتى ارتفعت درجة حرارته ، واحتقن وجهه بالدم ، فاستدعينا الطبيب ، فقال إن تلك الليلة فاصلة ، ولم يضاف إلى ذلك شيئا ، وتركنا فريسة للهموم والأفكار .
وقعدنا محزونين ، نعد الثواني واللحظات ، ونبتهل إلى الله في حرارة أن يعفو عنه . وانتصف الليل أو كاد ، فتحطمت أعصابي ، ونال مني التعب ، فذهبت إلى فراشي لأسترخ قليلا ، وما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى

استغرقت في النوم ، ورأيت ألى الراحل بوجهه الأبيض ، وشاربه الأصفر ،
يناولنى قطعة من الذهب ، فأطبقت عليها وأنا فرحان ، ولكن لم يدم فرحى
طويلا إذ وفد عملاق هائل ، بشع الصورة ، مفتول العضلات ، ولف ذراعه
القوية حول عنقى ، وأخذ يضغط في قوة ليكتم أنفاسى ، فشعرت بأنى أموت
من الاختناق ، ومد يده إلى يدى ، وحاول أن يغتصب منى قطعة الذهب ،
ولكنى جعلت أجاهد وأحاول أن أتملص منه دون جدوى ، واشتد الضغط
على عنقى ، فأرخيت يدى ، فأخذ منى الذهب الذى أعطانيه ألى ، وهيت
من نومى مرعوبا مفزوعا ، وإذا بصوت الجرس یرن فى أذنى رنينا موحشا .
مقبضا ، خلع قلبى وفك مفاصلى ، وقمت أعدو نحو الباب ، شاخص
البصر ، مبهور الأنفاس ، أكاد أنهار من الإعياء ، وفتحت الباب وقلبى
يغوص فى جوفى ، فألفيت من يدعونى للصعود ، فصعدت قلقا مضطربا
أشعر بغثيان . دخلت على أخى المسجى ، فألفيته يجود بآخر أنفاسه .
فأحسست ألما هائلا يحز فى نفسى ، ولم أطق أن أراه وهو فى نزعته الأخير ،
فخرجت من الغرفة أبكى أحر بكاء ، وشق سكون الليل صوت ألى الشكى
معلنا أن أخى الحبيب قد انتهى وأصبح ذكرى من الذكريات ، فلم أستطع أن
أكبت ما بى ، أو أتغلب على النار التى راحت تحرق جوفى ، فرحت ألتدم كما
تلتدم النساء .

ونظرت من خلل دموعى إلى الألبوم ، فوجدت عبراتى تتساقط على
صورة أخى الذى تقضت أيامه كمحلم قصير ، فأغلقت « الألبوم » فى
حزن ، وشعرت بأنى أكاد أختنق ، فنهضت وذهبت إلى الشرفة لأريح
أعصابى التى هيجتها الذكريات ، ولأستنشق هواء جديدا ، لعله يطفى تلك
النار المتأججة بين الضلوع .

صديقي حبيبى

نمت تلك الليلة غرارا ، فما يكاد النوم يمس أجفانى ، وما تكاد عيناي تغمضان ، حتى أهب من نومى ، وأتطلع إلى الأفق الشرقى من خلل النافذة القريبة من فراشى ، فقد كنت أرصد طلوع النهار ، وأخشى أن يأخذنى النوم ، فأستيقظ متأخرا كما اعتدت ذلك منذ سنين .

ولاح لعينى بصيص نور يولد فى الأفق ، فتركت فراشى ، وارتديت ملابسى ، ثم ضغطت على الزر الكهربى ، فبدد النور ظلمة المكان ، فرحت أعدل هندامى ، ثم دسست يدى فى جيبي ، وأخرجت رسالة مطوية نشرتها أمام عينى ، وجعلت أقرأها فى نشوة ، لأول مرة فى ذلك الصباح ، وللمرة المائة على الأقل منذ تسلمتها من الوزارة قبل ذلك يوم .

كانت رسالة من الوزارة إلى مصلحة من المصالح التابعة لها ، الضاربة فى أنصحاء الترامية بأرباض القاهرة ، وقد جاء فيها أنى عينت مترجما ، وعلى المصلحة أن تسند إلى عملى ، وأن تبعث إلى الوزارة بقرار تسلمى ذلك للعمل ، وطويت الرسالة فى رفقى ، ثم دسستها فى جيبي فى حذر ، وانطلقت إلى العمل وأنا جذلان .

ولفح وجهى نسيم الصباح ، فأحسست راحة ، وأخذت أستششق الهواء منشرحاً ، وكنت أحس فى نفسى خفة ، فطويت الطريق التى تفصل بين الدار ومحطة الترام فى لحظات قصار ، وأخذت أدير عينى فيما حولى ، فبدأ

كل شيء جميلا ، فما رأيت الطريق من قبل اليوم هادئة ساكنة هدوء اليوم
الأخاذ ، وأقبل الترام ، فقفزت فيه ، وجعلت أتطلع إلى الركاب ، وأمد إليهم
بصرى وأنا نشوان ، وخامرني شعور لذيذ ، فقد اتسع قلبي لهم جميعا ،
فأحسست نحوهم حبا ، كأنما كانوا رفاقا من رفاق الكلية ، أو أصحابا من
صحاب الطفولة والشباب .

وأحسست رغبة في الكلام ، كنت أود أن أحدث أيا كان ، فالتفت إلى
الجالس بجواري ، وهممت بالحديث ، ولكن عقد الخجل لساني ، وماتت
الكلمات على شفتي ، فسكت على مضض ، وانطلق الترام ، ورحت أتلفت
وأطل من النافذة على الطريق الجديدة ، التي ستصبح من ذلك اليوم طريقى ،
أضرب فيها كل يوم وأنا فرحان .

ونخيل إلى ألى بلغت المكان الذى ينبغي أن أترك عنده الترام ، فهبطت ،
وأدرت عيني فيما حولى ، فلم أهتد إلى ما أفعل ، ووقفت لا أدرى إلى أين
أتوجه ولحمت جنديا من جنود الجيش بالقرب منى ، فذهبت إليه ، وسألته عن
المصلحة التى عينت فيها ، فأرشدنى إلى طريق يجرى كشریان فى بطن
الصحراء ، فسألته :

— مسافة طويلة ؟

فقال فى ثقة :

— بضع دقائق .

وسرت حتى قطعت الطريق الممهدة ، ثم طفقت قدماى تغوصان فى
الرمال ، ولاح لعينى فضاء عريض ، يسيطر عليه سكون جليل ، فأخذت
أملأ صدرى بالهواء ، وأزفر فى هدوء ، ورحت أصفر فى نشاط ، وأدندن فى
سرور ، وتوهج قرص الشمس ، فجعلت أرقب الألوان القرمزية والذهبية

التي انداحت في رقعة السماء في روعة وجمال ، فربا سرورى ، وأحسست
برغبة في القفز والعدو لأنفس عن الإحساسات العذبة المذخورة في صدرى ،
فانطلقت أعدو ، فلما انبهرت أنفاسى ، توقفت حتى أستريح ، ثم رحت أعدو
في الفضاء .

وبعثت الشمس أشعتها الأولى إلى الأرض ، فبدت الصحراء كأنما فرشت
بساط من النور ، ولاح لى على البعد بناية قائمة في جوف الصحراء ، فجعلتها
هدفى ، ورحت أطوى الأرض ، وتصرمت ساعة وبعض ساعة ، وما بلغت
الهدف . وتذكرت ذلك الجندى وهو يقول : « بضع دقائق » فابتسمت ،
فما كان في الوجود من شيء يعكر صفوى في تلك اللحظة .

وصك أذنى نباح كلب ، فأحسست راحة ، أيقنت أنى دنوت من
هدفى ، ولكن سرعان ما فرت تلك الطمأنينة ، وحل رعب وفزع ، فقد
لمحت كلبين كبيرين قنرين يعدوان نحوى ، وينبحان في زجرة وغضب ،
فانخلع قلبى ، وأغذذت السير ، وتلفت مذعورا ، ثم هرولت ، ودنا الكلبان
منى ، فعدوت عدوا . ورأيت تراما مقبلا يخترق الصحراء ، فأطلقت ساقى
لريح ، وظلت المطاردة مدة حتى قفزت في الترام ، وأحد الكلبين يحاول أن
ينهش كعب حذائى .

جلست مبهور النفس ، يتفصد منى العرق ، ولا يكاد قلبى يستقر في
جوفى ، ونظرت إلى الكلبين اللذين كانا يجدان في أثر الترام ، فمشيت
قشعريرة في بدنى ، وأخرجت منديلا ، وأخذت أجفف به عرقى ، ثم
تذكرت الرسالة العزيزة التي في جيبي ، فتحسستها ، فلما ألفتها في مكانها
هدأت نفسى . وأخرجتها في حذر ، ونشرتها أمام عينى ، وقرأتها ، فنسيت
ما صادفتني من متاعب ، وعادت إلى نشونى واطمئنانى .

وبلغت المصلحة في أمان ، وسألت أول من قابلت عما أفعل ، فأشار على بأن أقدم نفسي إلى حضرة كبير الكتاب ، وأرشدني إلى مكتبه ، فانطلقت إلى هناك ، فألقيت كهلا قصيرا لا يبعث مظهره على الاحترام ، فاقتربت منه ، وقد انتشرت في صدري إحساسات خوف واضطراب ، وألقيت عليه السلام بصوت مبحوح ، فنظر إلى الرجل في عدم اكتراث ، فقدمت إليه الرسالة العزيزة ، فتناولها مني وقرأها ، فلما انتهى منها جعل يتفحصني ، فشعرت بانقباض ، وقال لي وقد رفت على شفتيه ابتسامة لم أرتح لها :

— حضرتك مترجم ؟!

ضايقتني ابتسامته ، فاحتبست الكلمات في حلقى ، فلم أجبه ، والظاهر أنه لم يكن ينتظر إجابتي ، فقد استطرد :

— وماذا تترجم ؟

فقلت له في صوت خافت :

— أى شيء ..

فقال في إنكار :

— الأمر هنا يختلف . المترجم عندنا يحتاج إلى إلمام بالمصطلحات الفنية الكثيرة المستعملة بمصلحتنا ، ولقد عهدت بأعمال الترجمة اليسيرة إلى بعض الممتازين من موظفينا . فأخفقوا جميعا ، فاضطرت إلى أن أقوم بالترجمة وحدي ، إنني المترجم الوحيد في هذه المصلحة .

أحسست جفافا في حلقى ، ولم أنيس بكلمة ، وإن كان صدري قد صار مسرحا لإحساسات كثيرة ، وقال كبير الكتاب يؤكد حديثه :

— الترجمة خبرة قبل كل شيء ، وأحسب أنك لن تنجح وعلى كل حال فلنتظر حتى يحضر المدير ، ويسيت في الموضوع .

وسكت ، واستأنف عمله في هدوء ، وتركنى واقفا أتميز غيظا . كانت مقابله لي جافة ، وما دار بخلدى أن أقابل بمثل تلك الجفوة أبدا ، اعتدت أن أقابل في الكلية أساتذة مبجلين ، كنت أجد منهم رحابة صدر ، ومائة خلق ، ورقة وكياسة ، فإذا بي اليوم أقابل أول ما أقابل جلفا ، يمتاز عن السوق بوقاحتة وقلة ذوقه ، وبقيت واقفا مدة ، وقد فاردمى في عروقي ، وكدت أنفجر فيه أكثر من مرة ، ولكنى تجملت بالصبر ، وأخيرا تعطف حضرته وقال لي :

— اجلس حتى يحضر حضرة المدير .

فجلست منقبض الصدر ، وصعد الدم حارا إلى وجهي ، وتقضى الوقت بطيئا ثقيلا ، وأخذت أفكر فيما قاله لي ، فربا ضيقى ، ترى ما الذى جعله يحزم بعدم كفايتي في الترجمة ؟ أقرأ ذلك في وجهي ، أم أن صغر سننى جعله يستخف بى ؟! وتعلمت كثيرا ، وساد الغرفة سكون بغيض ، وأخيرا جاء المدير ، فأصلح حضرة كبير الكتاب هندامه ، ثم وضع طربوشه فوق رأسه في عناية ، والتفت إلى وقال فى غلظة جندى يقتاد مجرما :

— تعال .

فقممت ، وسرت خلفه ، فدخلنا إلى غرفة فاخرة الرياش ، ورأيت رجلا عليه مهابة ، جالسا خلف مكتب ، فحيته من بعيد ، وتقدم حضرة كبير الكتاب ، واثنتى كقوس ، وقدم الرسالة فى احترام ، فما أن انتهى المدير من قراءتها حتى مد يده مصافحا ، وقال :

— مبارك يا بنى ، أرجو أن تجد عندنا كل راحة . أنشأنا مكتبا جديدا للترجمة ، وأنت أول من عين فيه ، فأرجو أن يوفقك الله فى عملك .

ونزل كلام المدير على قلبى بردا وسلاما ، فهذأت نفسى ، وبان الدهش

في وجه كبير الكتاب ، ولكنه لم يحرك ساكنا ، والتفت إليه المدير وقال له :
— أرسل حضرته إلى مكتب عبد الفتاح أفندى ، ليتسلم عمله .
فقال كبير الكتاب في تأدب ظاهر وهو ينحنى :
— حاضر يا أفندم .

وخرجنا ، وفي وجه كبير الكتاب ضيق ؛ كان يلوح عليه عدم الرضا عن
ذلك التعيين ، ونادى فراشا واقفا بالباب ، وقال له :
— خذ الأفندى إلى مكتب عبد الفتاح أفندى .

وناولنى رسالة التعيين ، فسرت خلف الرجل في عمار ضيقة ، حتى بلغنا
حجرة متواضعة ، فدخل الرجل ، فدخلت خلفه ، ووقفنا أمام شاب بدين
طويل ، كان يكتب في أوراق مبعثرة فوق مكتبه ، فلما أحس بتأرقع رأسه ،
وقال في صوت غليظ منبعث من حنجرتة :
— خيرا .

فقدمت إليه الرسالة ، فلما فرغ من تلاوتها ، قال لى :
— تسمح تنتظر في الخارج قليلا .
فتركت الغرفة ، وانتظرت في الخارج ، وصك أذن صوت عبد الفتاح
أفندى ، وهو يتحدث في التليفون بصوت عال :

— يا أفندم أنا طلبت مترجما له خبرة ، لا شابا حديث التخرج لا خبرة له .
فنزل لى هم ثقيل ، واعتراى ضيق ، وأحسست كأن الأرض تدور لى ،
لقد طعنت في كرامتى في ذلك الصباح أكثر من مرة . ما بال هؤلاء الأجلاف
يغزوننى غزوا لا مبرر له . ويقدمون السيئة قبل الحسنة ؟ لى لم أترجم شيئا
بعد ، ولم يظهر تقصيرى حتى أستحق كل ذلك . كان هجوم كلاب الصباح
على أخف وقعا على نفسى من هجوم هؤلاء الظالمين . فكرت أن أترك ذلك

المكان البغيض . وأن أعود من حيث جئت . وهممت بالسير ، وقد طأطأت
بصرى ، وأحسست جفافاً في حلقى ، وشعرت بدمعة حائرة في عيني :
وفتح باب المكتب ، وخرج منه شاب أسمر ، يرتدى ملابس سوداء ،
ومد يده إلى نظارته وأصلحها فوق أنفه ، والتفت إليّ وابتسم ، فظهرت
أسنانه المقوسة الصفراء ، وقال :

— حضرتك الموظف الجديد ؟

— نعم .

— أنا زميلك في المكتب .

— أهلاً وسهلاً .

ومد يده في جيبه ، وأخرج لفيفة ، وقدمها إليّ ، وقال :

— تفضل .

— أشكر لك ، إني لا أدخن .

وبدأت نفسى تصفو ، وأقبلت عليه أحادثه ، فقال لى :

— حضرتك متخرج فى الجامعة ؟

— نعم .

فسكت قليلاً ثم قال :

— الترجمة ليست بالمؤهلات ، الترجمة خبرة .

فسكت ، واعتراى وجوم ، حتى ذلك الزميل الذى حسبته أول الأمر
ظريفاً يحاول أن ينال منى دون سبب ، وأن يطعنى بلا مبرر ، واستأنف :
— العمل فى الحكومة لا يحتاج إلى مؤهلات ، إنه مسألة دراية وخبرة ،

إننى ..

ودق جرس كان مثبتاً عند الباب ، فاعتدل الزميل ، ودخل الغرفة

مهرولا ، ثم عاد وقال لى :

— تفضل .

دخلت ، ووقفت أمام عبد الفتاح أفندى مطرقا ، فقد عرفت رأيه فى ،
قبل أن أبدأ العمل ، وجعل يحدثنى وأنا أنصت إليه ، دون أن أرفع وجهى ،
قال :

— جاءنى قبلك زميل من زملائك الجامعيين ، وكلفته ترجمة بعض قطع
صغيرة ، فلم يوفق فى ترجمتها ، فنقلته إلى مكتب آخر ، وسرى الآن ما
تستطيع أن تفعل .

لم ترتح نفسى إلى ذلك الحديث ، فانقبضت ، ولكن لم يكن أمامى إلا
الصبر ، وتجرع كل هذه المنغصات دون تبرم ، وقدم إلى كتابا مفتوحا ، وقال
لى :

— ترجم هذا الفصل .

تناولت الكتاب ، ووقفت حائرا لا أدرى أين أجلس ، وفطن إلى حيرتى ،
فأشار إلى نضد صغير ، يستعمل فى وضع الآلة الكاتبة عليه ، وقال :
— اجلس هنا .

جلست على مقعد خشبى أمام ذلك النضد الصغير ، فأصبح وجهى إلى
الحائط ، وطلبت ورقا ، فناولنى زميل فى المكتب بعض وريقات ، وهو يتسم
ابتسامة صفراء ، فهمت ما ترمى إليه ؛ خيل إلى أنها تصيح بى مستهزئة :
« سرى الآن ما تستطيع الجامعة أن تقدم » . وشعرت بأنى طالب صغير ،
أمام لجنة امتحان قاسية لا ترحم ، فمشيت فى بدنى رعدة ، وسرعان ما جمعت
أطراف نفسى التى ذهبت شعاعا أمام تلك الإهانات المتكررة ، وملك
أعصابى ، وقرأت ما طلب منى ترجمته ، فالفيتة سهلا لا يحتاج إلى خبرة

أو دراية ، وبدأت الترجمة ، ووطنت العزم على أن أنهج نهج كتاب الأساليب الرنانة ، الذين يلجئون عامدين إلى الألفاظ الضخمة ، والجمل المحفوظة الفخمة الطنانة ، ليدخلوا في روع قرائهم أنهم من أئمة الكتاب ، الذين يملكون ناصية البيان ، فجعلت أتمق الأسلوب ، وأنتقى الألفاظ الغريبة ، لتكون شاهدا على علو كعبي في الكتابة !

وانقضت ساعة ، فأنييت ما عهد إلى في ترجمته ، ودفعت به إلى عبد الفتاح أفندي ، فجعل يقرؤه ، وأخذت أرقب أساريه ، لأستشف أثر الترجمة في نفسه ، فتيقنت قبل أن ينطق ، أن الديباجة المشرقة عملت عملها ، ولما انتهى من القراءة التفت إلى وقال :

— لا بأس :

وكأنما ساءه أن أوفق في الترجمة ، ففتح مكتبه ، وأخرج نموذجاً كبيراً قدمه إلى ، وطلب مني ترجمته . قرأت ذلك النموذج ، لم أفهم منه شيئاً ، كان مجموعة من الاصطلاحات الفنية الدقيقة ، فوضعتة أمامي ، وقرأته مرات ، ثم أمسكت القلم ، ولكن أغلق على . أحسست كأن الدنيا ضاقت في وجهي . وفتح الباب ، ودخل رجل إنجليزي ، واتجه إلى مكتب تكدست فوقه أضيائير عدة وجلس ، فخف إليه زميل المكتب ، ووقف أمامه في أدب ، وأخرج الرجل الإنجليزي سيجاراً من جيبه ، ووضعته في فمه ، وما أسرع ما أخرج الزميل علبة الثقاب ، وأشعل عوداً ، وانحنى يشعل السيجار ، وهمس الرجل بكلمة لم أتبينها ، فهرع الزميل وفتح باب المكتب وقال بصوت عال :

— قهوة لمستر جيمس حالا .

ونفض عبد الفتاح أفندي ، وقال للزميل ، وهو يغادر الغرفة :

— إني ذاهب إلى مكتب المدير ، وسأعود بعد قليل يا شكري أفندي .

— حاضري يا سعادة البك .

ووقف شكرى أفندى بجوار مستر جيمس ، وانطبعت على شفثيه ابتسامة تملق ورياء . وهو يرقب حركات الرجل الإنجليزى فى انتباه ، فإذا مد يده ليأخذ ملفا من الملفات ، فما أسرع أن تمتد يد شكرى أفندى إلى الملف وتقدمه فى لياقة ولباقة ، وإذا أخرج محبرته يملأ القلم ، فما أسرع أن تمتد يد شكرى إلى المحبرة وتنزع غطاءها ، ثم يأخذ القلم ويملاؤه وينظفه ، ولولا الملامة لأخرج منديلته المتدلى من جيب سترته ، ونظف به سن القلم العزيز مما لصق به من حبر .

ونظر إلى مستر جيمس طويلا ، كأنما كان يستفسر عن ذلك الدخيل الذى أقبل إلى المكتب دون أن يقدم نفسه إليه ، وفطن شكرى إلى نظراته ، فقال له :

— إنه موظف جديد .

والتفت إلى وقال :

— تعال أقدمك إلى مستر جيمس ؟

تركت النموذج الذى حيرنى ، واتجهت إلى حيث كانا ، فأخذ الرجل يحادثنى فى تحفظ ، ثم قال لشكرى :

— أراه الملفات ، ونظام حفظها ، لعله يستطيع أن يساعدك . أحسست هوانا ، فما جئت لأحفظ ملفات ، إني فهمت من مدير المصلحة أنى قادم لأنشىء قسما للترجمة ، وكنت أحسب الأمور سهلة هينة ، فإذا بى أجد أناسا لا يودون احترامى ، أو الاعتراف بتعيينى .

وخرج مستر جيمس ، وطفق شكرى بعرض على الملفات ، وهو يردد بين كل جملة وأخرى :

وأخرى :

— الحكومة ليست فى حاجة إلى مؤهلات ، العبرة كل العبرة بالخبرة .
وأيقنت من حديثهم أنهم لا يحقدون على ، بل يحقدون على مؤهلاتى ،
لأنهم يحاولون الغض من شهادتى الجامعية ، ويتحدثون عنها كأنها وصمة ،
ودليل على عدم الخبرة ، فعزمت فى نفسى أمرا .

وانتهى اليوم الأول بخيره وشره ، وأزف ميعاد الانصراف ، فأقبلت سيارة
حكومية ، ووقفت عند باب المكتب ، وفتح الباب ، وظهر عنده مستر
جيمس ، فأسرع شكرى وحمل حقيبة كبيرة بها أوراق كثيرة ، فحسبتها فى
أول الأمر حقيته ، وإذا بمستر جيمس يمد يده ليتناولها ، ولكن شكرى أصر
على أن يحملها حتى السيارة ، ووضعها بجوار السائق ، ووقف بعيدا ، وقد
رفت على شفثيه ابتسامة ذليلة ، ركب مستر جيمس ، وأشار لشكرى
بالركوب ، فأسرع وركب بجوار السائق مسرورا .

شعرت بضيق ، وتيقنت أنى لن أسيع العيش بين هؤلاء المشغلين ،
ونخفضت بصرى فى استسلام حزين ، ثم نظرت إلى النضد المتواضع الذى
خصص لى ، فوقعت عيناى على النموذج الذى أخفقت فى ترجمته ، فانقبض
صدرى ، وخيمت على نفسى سحابة كدر ، وأحسست أن كبريائى تثور ،
فما كنت أريد أن أخفق أمام هؤلاء التافهين المتعجرفين ، وخطر لى أن آخذ
النموذج معى ، وألا أعود إلى العمل إلا بعد أن أترجمه كما أحب وأشتهى .
وتناولت النموذج ، وخرجت وحيدا أضرب فى الطريق الطويلة الموصلة إلى
الترام .

وذهبت إلى مكاتبات القاهرة ، أبحث وأنقب ، حتى اهتديت إلى دليل
إنجليزى يشرح دقائق الفن الذى عهد إلى أن أترجم مصطلحاته فاشتريته ،

وعدت إلى دارى ، وأخذت أقرأ فى ذلك الدليل ، وتقضت ساعات ، وأنا مكب على القراءة والدرس ، وراحت الساعات تمر ، ودقت الساعة الحادية عشرة مساء ، وما ترجمت من النموذج حرفا ، ولكنى كنت أوقن فى قرارة نفسى أنى سأتمكن من ترجمته قبل أن أدخل فراشى .

وبدأت الترجمة ، فألفيت نفسى منطلقا فيها ، وما دقت الساعة الثانية عشرة حتى كنت قد أنجزت كل شىء على ما أشتهى ، وهمت بالنهوض لأنام ، ولكن خطر لى أن أقرأ باب الملفات وطرق حفظها ، حتى أفهم شكرى أفندى الذى تعالى على اليوم ، بل خطر لى أن أتحدى المستر جيمس ، وتناولت كتابا إنجليزيا فى الحفظ وطرقه ، ورحت أقسرؤه ، وأدون ملاحظاتي ، فلما دقت الواحدة ، ذهبت إلى فراشى لأنام ، وأنا مطمئن النفس ، فلن يسخر منى عبد الفتاح أفندى ، ولن يشمت فى شكرى . ولن يتعالى على بعد اليوم المستر جيمس .

وحاولت النوم ، ولكن لم أذق طعم الغمض ، رأيت بعين خيالى ما مر لى فى ذلك اليوم ، فاهتديت إلى أن مسألة هؤلاء الناس لن تجلب لى إلا الهوان ، فالناس جميعا لا يقيمون وزنا للوديع المسالم ، ولكنهم يهابون المشاكس الذى لا يحجم عن مناوأتهم ، والتيل منهم ، يعملون له ألف حساب ، فعزمت على أن أناوئهم جميعا ، وأن أشعرهم بأننى لست سهل الازدراء .

وأصبح الصباح ، فخرجت إلى العمل ، ولم تكن نفسى صافية صفاء الأمس ، كنت بالأمس أحسب أنى ذاهب إلى حيث أجد رفاقا رحماء بينهم ، وإذا لى اليوم أنطلق وأنا أعلم أنى ذاهب إلى أناس محدودى الآفاق ، همهم الأول تنقيصى ، والغض من شأنى ، والاستعلاء على ، وإيهامى أن المؤهلات وصحة ينبغي ألا يوصم بهاذوو الخبرة والكفايات ! كانت الطريق هادئة (صدى السنين)

موحشة ، فزادت في وحشتي ، وكانت المصاييح خامدة هامدة ، تلفظ آخر أنفاسها قبل طلوع النهار ، فكانت تطفئ روعي ، وأقبل الترام فصعدت في تكاسل وتراخ ، وأدريت عيني في الركاب ، فألفيتهم جميعا من رقيقى الحال ، الذين هجروا فراشهم الدفئ في البكور ، ليكدحوا من الصباح إلى المساء لقاء لقمات ، كان البؤس مرتسما على محياهم ، ولأول مرة أحسست أنى واحد من هؤلاء البائسين ، فما اضطرني إلى الخروج في الصباح الباكر ، واحتمال سخافات الناس إلا الطعام ، فانتقبض صدرى ، وشعرت بغصة في حلقى ، وتضاءلت نفسى في عيني .

وبلغت المكتب مبكرا ، فقد عرفت أن هناك تراما يصل إلى المصلحة ، وأن لا ضرورة لاختراق الصحراء سيرا على الأقدام ، وأنخذت أقسب الملفات ، فوجدتها لا تسير على نظام من النظم العلمية المعروفة ، فأخذت أتذكر ما قرأته في أمسى عن « طرق الحفظ » . وفتح الباب ، وأقبل شكرى أفندى ، وسلم على ، وقبل أن يتحدث عن الأقدمية والخيرة ، وأثرهما في الحكومة ، سأله :

— من وضع نظام الحفظ هذا ؟

— مستر جيمس .

فقلت في لهجة الواصل الخبير :

— خطأ .. هذا نظام خاطيء لا يستند على أساس .

فنظر إلى ، وفغر فاه كأنما قلت عجبا ، وظل ينظر إلى في دهش فما كان يصدق أن يجرؤ موظف ليس له في خدمة الحكومة أكثر من أربع وعشرين ساعة على تخطيط مستر جيمس ، وجاء مستر جيمس ، فحيانا بإيماءة خفيفة من رأسه ، وجلس إلى مكتبه ، ونظر شكرى إلى ولسان حاله

يقول : « قل له ذلك إن كان عندك شجاعة » فلم أنتظر ، وتقدمت إلى جيمس ، وقلت له دون تمهيد أو مقدمات :

— اطلعت على نظام الملفات في هذا المكتب ، فوجدته نظاما شاطئا .
فرمقني الرجل في دهش وقال :
— كيف ؟

— إنه لا يسير على طريقة عملية من طرق الحفظ ، فللحفظ طرق ثلاث .
وظفقت أسرد في طلاقة ما استذكرته في أمسي ، فبان في وجه الرجل حيرة وارتباك ، وظل ينصت إلى دون أن يقاطعني . فلما انتهيت من مجازاتي ، نهض وغادر الغرفة دون أن ينبس بكلمة .

وأقبل شكرى على محادثتي في تحفظ ، وقد خفف من غلوائه ، وفقد ثقته في نفسه ، فلم يتكلم بأسلوب الواصل ، وفطنت إلى أن شخصيته تضاءلت وانكمشت ، فسرت في صدري ابتسامة هازئة .

وأخذت أرقب إقبال عبد الفتاح أفندي ، ومر بعض الوقت ، وجاء يتهادى بجسمه الضخم ، وما إن جلس إلى مكتبه حتى ذهبت إليه وقدمت له ترجمة النموذج ، فجعل يقرؤه في إمعان فلما انتهى منه ، التفت إلى وقال :
— عال . أظن أنك تعبت في ترجمته .

فقلت في عدم اكتراث :

— أبدا ما أيسر الترجمة .

— ومن أين لك معرفة هذه المصطلحات ؟

— مرت على من كثرة الاطلاع ، إلى أقرأ كثيرا .

ويعلم الله أني لم أكن أعرف قبل أمسي كلمة واحدة من تلك المصطلحات الغريبة ، ويعلم الله أني ما كنت أرغب في الكذب ، لولا أن هذه هي الطريق

الوحيدة التي تضمن لي العيش بين هؤلاء المتعاليين التافهين .
وجيء بمكتب لي ، ووضع بجوار مكتب مستر جيمس ، فرحت أعمل
هادئ النفس ، وجعلت أختلس النظر إلى شكرى بين وقت وآخر ، فأجده
مطرقا مهموما ، فأبتسم في شماته ، فقد أَرْضَانِي قهرى إياهم جميعا في ذلك
اليوم ، وانتقامي لما نالني على أيديهم في أمسي الذي لن أنساه ما حييت .
ونخرج عبد الفتاح أفندي ، وتركتني وشكرى ، فدنا شكرى مني وقال
في تملق ظاهر :

— أتعرف أن عبد الفتاح أفندي حاول أن يترجم ذلك النموذج من
شهور ، ولكنه لم يفلح !؟

فانشرح صدرى ، لأن عبد الفتاح أفندي أخفق في ترجمة النموذج ، بل
لأن تملق شكرى لي دليل على أنني ملأت مكانى أسرع مما كنت أقدر ، وجاء
مستر جيمس ، وما إن وقعت عيناه على حتى قال :

— إن طريقة الحفظ التي تتبعها هنا من وضع الوزارة ولا يمكن تبديلها .
ووأدت بسمة ودت أن ترسم على شفתי ، فما أسرع ما أعلن الرجل
الهزيمة ، وانقضى اليوم ، ووافى ميعاد الانصراف ، وجاء مستر جيمس في
سيارته ، وفتح باب المكتب وقال لي :

— حقيقتي من فضلك .

لم أتحرك من مقعدي وإن ثار دمي في عروقي ، فقد شعرت أن في طلبه
إهدار الكرامتي ، فما جئت لأحمل حقيته ، ونظرت إليه شزرا ، وسرعان ما
هرع شكرى إلى الحقيبة ، وحملها في سرور ، وانطلق إلى السيارة في خفة
فوضعها ، ثم قفز إلى جوار السائق ، ولم يلتفت إلى حتى لا يرى في عيني
نظرات الحسد ، فقد كان يحسب أني أحسده على مركزه الممتاز .

ومرت الأيام ، واعتدت إنجاز العمل الرتيب التافه ، واعتدت سماع
تفاهات شكرى أفندى فى عدم مبالاة ، وفى يوم دق جرس التليفون ،
فرفعت السماعة ، فإذا بصوت نسوى رقيق يطلب مستر جيمس ، قلت إنه
غير موجود الآن ، ولما وضعت السماعة ، ألفت مستر جيمس يقبل نحوى :
ويقول فى حدة :

— كيف تقول إنى غير موجود وأنا فى انتظار هذه المكالمة ١٩

فقلت فى برود :

— لم تكن على مكتبك .

— ولكن شكرى أفندى يبحث عني دائما إذا ما طلبنى أحد .

فأحسست كبريائى تدمى ، فقلت فى غضب :

— شكرى أفندى شئ ، وأنا شئ آخر .

وسكت مستر جيمس وهو مقهور ، وذهبت إلى مكتبى وصدرى
مسرّح لإحساسات متباينة ، وفيما أنا غارق فى أفكارى ، أقبل على فراش
يستدعينى لمقابلة كبير الكتاب ، فذهبت إليه وأنا حائق ، فما كنت أحب
مقابلته ، ولكن ما إن وصلت إليه حتى قدم إلى كرسيا وأكرمنى ، وسألنى أن
أترجم له بعض فقرات فنية عجز عن ترجمتها .

تناولت ورقة ، وترجمت ما طلب منى على عجل ، وتركت له المسودة
متعمدا ، لأشعره أننى لست عاجزا مثله لأسود مرات ما أترجمه ، ولم أنتظر
منه حتى يقرأ الترجمة ، وتحركت لأعود إلى مكتبى وسرت خطوات ،
وسمعت صوته ينادينى ، فعدت إليه ، فسألنى عن معنى كلمة عربية سهلة ،
فابتسمت فى إشفاق ، وعرفته معناها ، وعدت إلى مكتبى ، وقد تبخر
غضبى ، وسرى فى صدرى إحساس سعيد ، شعرت أننى انتقممت لكبريائى

التي جرحها حضرة كبير الكتاب يوم جئت إلى مكتبه أول مرة .
وفي يوم أخذ شكرى أفندى يكتب على الآلة الكاتبة تقريراً كتبته مستر
جيمس ، فتناولت نسخة من التقرير وقرأته ، فألفيت به عدة أخطاء ، كان
مستر جيمس لا يحسن استعمال حروف الجر والأفعال ، فتناولت قلماً ،
وأخذت أصوب له الأخطاء ، فتار شكرى أفندى ، وأرغى وأزبد ، واتهمنى
بالغرور ، فكيف يصحح مصرى أسلوب رجل إنجليزي يكتب بلغته ؟
وراح يرصد قلدوم مستر جيمس متلهفاً ، فلما لمح قادمًا إلى مكتبه هرع
إليه ، وقدم إليه النسخة التي أجريت فيها قلمي ، فلما رأى جيمس ما فعلته ،
احمر وجهه وضاحت عيناه ، وظهر عليه الغضب والحنق ، وغمغم
بكلمات ، فأرهفت سمعى ، كانت سباباً ولا شك ، ولكنى لم ألتقط منها إلا
هذه العبارة :

— هذا عبث أطفال ، أصبح هذا المكتب لا يطاق .
وتناول التقرير ثائراً ، وألقى بالمسودة التي شرحتها بقلمي ، وخرج
بالتقرير ليرفعه إلى رئيسه الإنجليزي .
وغاب مستر جيمس ، وراح شكرى أفندى يرنو إلى في شماته ، ولسان
حاله يقهقه سخرية من ذلك المغرور الذى أورده غروره موارد الهلاك . كان
يعجب فى نفسه كيف أن مستر جيمس أطاقنى فى هذا المكتب إلى هذا
الوقت ، وكنت أنا نفسى أعجب من ذلك ، ولكنى لم أكن آبه أن أعمل فى
ذلك المكتب أو فى سواه .

وعاد مستر جيمس ، وما أن رأيت وجهه حتى رأيت فيه ذلة الانكسار ؟
تقدم منى ، ووضع أمامى التقرير وهو يتسم ابتسامة مريرة ، فجرى نظرى
سريعاً على التقرير ، فألفيت رئيسه قد صوب له بالمداد الأحمر جميع الأخطاء

التي أصلحتها وأثارت غضبه ، فرفعت نظري إليه ، وأنا أحس إشفافا ،
وكبت مشاعري ، وحاولت أن أبدو هادئا حتى لا أجرح شعوره ، ولكنه
ابتسم ابتسامة عريضة ، فرحت أهون عليه الأمر ، وبدأت صداقتنا .

ودق جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، وإذا بالصوت النسوي الرقيق
يسأل عن جيمس ، فالتفت إليه وقلت له :
— يطلبونك .

— من ؟

— لا أدري ، صوت ناعم .

فابتسم وقال :

— إنها جان .

ولما انتهت محادثته ، قال لي في غبطة :

— ما أطفها .

فتعائيت وقلت له :

— من ؟

— جان ، إنها تدعوني للخروج اليوم .

وراح يقص علي قصة جان .

وفي ذات يوم أخذت أنا وجيمس ننسق طلبات المصلحة من الخامات
والأجهزة ، فألفيته يوصي بشرائها من إنجلترا ، فقلت إننا نستطيع أن نشترى
أغلب هذه الأصناف من السوق المحلية ، فنوفر جهودا ووقتا ، ولكنه راح
يقنعني أن من الأصلح أن نشترى كل شيء من إنجلترا ، ولم أقنع ، وما كان
اقتناعي ليقدم الموضوع أو يؤخره ، فقد كان كل شيء في ذلك الوقت في
أيديهم .

وفى يوم لن أنساه ، أقبل عامل يعرض على آلة من الآلات التى نشترىها بكثرة من إنجلترا ، وقال لى إنه صنعها يديه وجربها ، فكانت نتائجها تضاهى نتائج الآلات البريطانية ، فهزنى السرور ، ووعدته بأننى سأبذل كل جهدى لعرض آله على الرؤساء ، ليكافوه تشجيعه ، وكنت آمل أن تكون المكافأة سخية ، ليكون ذلك حافزا لزملائه على أن يقتدوا به .
وأخذت العامل ، وأدخلته على رئيسنا ، وعرضنا عليه الجهاز ، فأظهر سروره ، وقال لى :

— اعرض الموضوع على مستر جيمس .

وذهبت إلى مستر جيمس ، وما شرحت له الموضوع حتى ظهر على وجهه ما يعتمل فى صدره من غيظ ، وقال لى فى حدة :
— سله ، هل فعل بعض أجزاء هذه الآلة فى المصلحة ؟ فسألته ، فقال لى إنه اضطر إلى استخدام حوض الزيت لتقوية المعدن لأنه لا يملك فى منزله حوضا .

فقال لى مستر جيمس :

— سله ، فى أى درجة من درجات الحرارة يتحول الحديد إلى صلب ؟
وراح مستر جيمس يسأل العامل أسئلة دقيقة حتى أخرجه ثم قال فى لهجته الغاضبة :

— هذا عبث ، إنه يضيع وقته فى صنع ما لا طائل تحته ، إنه لا يتج
للمصلحة شيئا ، سيكون أسوة سيئة لإخوانه ، أرى أن يخصم منه ثلاثة أيام .
فأردمى فى عروقى ، فذهبت إلى رئيسنا المصرى ، وعرضت عليه الأمر ، فقلت له إن مستر جيمس يسوءه أن ينجح عامل مصرى ، وإننى أرى عرض الأمر على الرؤساء ؟ ولكن رئيسى أطرق ولم يجب ، ففهمت أنه لا يريد أن

يعادى مستر جيمس .

وخرج العامل يحمل الجهاز الذى صنعه وهو بحمد الله على أنه قد نجا من
خصم الأيام الثلاثة ، فقد عارضت مستر جيمس فى ذلك الخصم ، وجلست
مهموما ، وإذا بمستر جيمس يدعونى إلى مكتبه ، ويقول لى فى رقة :

— حرام أن تشجع مثل ذلك العامل .

فنظرت إليه فى دهش ، وقلت له ؟

— لماذا ؟

— ستضره ، ستملؤه غرورا ، وتقضى عليه ، إنه لا يصلح لشيء .

فقلت فى غضب :

— إنك استعمارى قبح يا جيمس .

— أبدا .

— لا تعمل إلا لمصلحة بلادك ، وإن ضحيت بمصالح بلادنا .

— هذا قول هراء .

— لماذا تتصل من ذلك ؟ كلنا يحب وطنه .

فقال فى هدوء عجيب :

— الوطن يا عزيزى لفظ أجوف ، خدعة من خدع الساسة .

— لا يا جيمس ، حب الوطن غريزة ركبت فىنا .

— غريزة بدائية .

— الطير يحن إلى عشه ، والمرء يهفو إلى أرض منبته .

— ذلك من ضيق الأفق . لم لا نجعل الدنيا كلها وطننا ؟! إن مصر وطنى

ما دمت أجد فيها السعادة والهناءة .

— هذا كلام .

— ماذا يهمنى من إنجلترا والإمبراطورية ، وما يضيرنى لو أن أستراليا انفصلت عنا ، ولو أن الهند استقلت ولم تصبح من ممتلكات التاج ؟

— هذه سفسطة يا جيمس .

— إن ما أقوله هو ما أعتقد .

— مثلك يا جيمس مثل الأب الذى لا يحس أية عاطفة نحو أبنائه ما داموا

معاقين ، فإذا ما تعرضوا لخطر ، شعر بالقلق والفرع والهلول .

— دعك من فلسفتك ، قلت لك إنه لا يهمنى أمر إنجلترا ما دمت سعيدا .

— وما دامت جان بجانبك .

فابتسم وقال :

— وما دامت جان بجانبى .

— هذه أناية يا جيمس ، لو صدقت فى قولك .

— فسرهما كما يحلو لك .

ومرت أيام وأعلنت الحرب ، وراحت ألمانيا تلتهم أوربة قطعة قطعة ، فما تبدل

جيمس ، وما تحدث عن الحرب أبدا ، كأنما كان الأمر لا يعنيه ، وابتلعت

ألمانيا أوربة جميعها ، وتأهبت لتأكل بريطانيا ، وبدأت المعركة الرهيبة ،

وبانت إنجلترا فى خطر داهم .

وفى ذات يوم جاء جيمس عابس الوجه ، وفى عينيه عزم ، فلما رأيته

أنكرته ، وقلت له :

— ما بك ؟

— سأسافر .

— إلى أين ؟

— إلى إنجلترا .

- وما تفعل ؟
— الوطن يناديننا .
— الوطن يا عزيزي لفظ أجوف ، خدعة من خدع الساسة .
— بالله لا تسخر ، إلى حزين .
واسترسلت في حديثي :
— ما يهلك من إنجلترا والإمبراطورية ، وما يضريك لو أن أستراليا قد
انفصلت عنكم ، أو أن الهند استقلت ولم تصبح من ممتلكات التاج ؟
— كفى أرجوك .
— ومتى تسافر ؟
— قريبا .
— وجان ؟
— إنها تشتغل بالتمريض ، وتقوم بواجبها هنا .
وسافر جيمس وماودع أحدا ، ومرت الشهور تتلوها الشهور ، وغمرتنا
الحياة ، فنسينا جيمس ، وفي يوم من الأيام ورعى الحرب الرهيبة دائرة ، أقبل
إلى مكتبنا إنجليزى من أصدقاء جيمس ، فجعلت أحادثه ، ثم سأله فجأة :
— أما تبلغك أنباء جيمس ؟
فقال في صوت خافت :
— مات .
— كيف ؟
— قتل في إغارة من إغارات الفدائيين على فرنسا
فأطرقت وأنا أفكر في ذلك الذى أراد أن يوهمنى يوما أن الوطن لفظ
أجوف ، وخدعة من خدع الساسة .

غضبة الحريم

فتح الباب الضخم ، ورفعت الستر الفاخرة ، ولاح السلطان في ثيابه المزركشة بالقصب ، المزدانة باللؤلؤ والزمرد والياقوت ، فأنحنى وزيره في تجلّة واحترام ، حتى إذا ما اتخذ السلطان مجلسه ، رفع الوزير رأسه ، وأخذ يعبث بلحيته ، وهم بأن يعرض على السلطان شئون إمبراطوريته المترامية الأطراف ، ولكن السلطان شرد برهة ، ثم ضحك ونهض من مجلسه ، وانطلق إلى الباب الضخم ، فاجتازه إلى الدهليز الطويل ، حتى غاب في جوف القصر !

امتعض الوزير ، وضرب الأرض برجله في حنق ، ثم راح يذرع الغرفة الرائعة التي فرشت بطنافس فاخرة ، ونثرت فيها الثمار الجميلة في ضيق .. فقد تركه السلطان لينطلق إلى الحريم يقصّ عليهن قصة أسعفته بها ذاكرته الآن بعد أن خائنته بالأمس وهو يحاول جاهدا أن يذكرها !

كان السلطان في خريف عمره ، وقد اشتعلت في صدره تلك الجذوة التي تنوّهج قبل أن تتحد وتصبح رمادا ، فكان يشعر بالنشوة التي يحسها الشمع قبل أن يفقد وعيه .. كان يقضى أوقاته بين النساء والجواري ، يقطف الورد من الحدود الندية ، ويلثم الشفاء الحلوة المزمومة ، ويمتّع عينيه بروائع الحسن والجمال .. وكان احتفاله بنسائه وجواريه ، وإقباله عليهن يضايق الوزير ويحنقه ، فما كان السلطان يقابله إلا للحظة من اللحظات . وحتى في تلك

اللحظة لم يكن ينصت إليه ، بل كان يشرد بذهنه ، فيضحك للحظة تذكرها ، على حين أن الوزير يعرض عليه أمرا يوجب العيس والتقطيب ! وأخذ الوزير يعث بلحيته وقد أغمض عينه . وأسبل أخرى فقد كان ينمق مقالا يرجو أن يمس أوتار قلب السلطان ، فيبعده عن حريمه ، ليتفرغ لأمر رعاياه .. وفجأة عاد السلطان متطلق الوجه ، وجلس وهو يضحك ، فراح الوزير يعرض عليه أمور الإمبراطورية الواسعة ، فكان ينصت إليه حيناً ، ويتشاغل عنه أحياناً . فتضايق الوزير وجمع أطراف شجاعته ثم قال :

— بعض وقتك يا مولاي ؟

— ماذا ؟

— لو منحتنا بعض وقتك يا مولاي لازدنا رضا على رضا ..

فحدجه السلطان بنظرة فيها بعض الغضب ، فقال الوزير :

— نظرة عطف من عينيك الغاليتين تملأ بالطمأنينة القلوب .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— هل يسمح مولاي أن نجوس خلال الأسواق ، نتفقد أحوال الناس ،

ونستمع إليهم ، ونحقق لهم أمانهم ؟

خفض السلطان بصره ، وقطب جبينه لحظة ، فقد كان يفكر .. ثم رفع

رأسه ، وبان الرضا في صفحة وجهه ، والتفت إلى الوزير وقال :

— لنخرج إلى الناس .

وقام من مجلسه ، وهم بالانطلاق صوب الباب الكبير وقال :

— سأعود إليك عما قليل .

وابتداً يتحرك صوب الحريم ، ورأى الوزير أنه لو دخل عليهن لنسى

وعده ، فقال في توصل :

— بالله يا مولاي دع النساء الآن !

فنظر إليه السلطان نظرة مشوبة بغضب ، ما لبث أن زال وحلت محله ابتسامة لطيفة ، فقد كان طيب القلب ، يحب وزيره ويثق به .

* * *

خرجوا بجوسان خلال الأسواق متنكرين ، وراح الوزير يسقص على السلطان قصصا عن النساء تحط قدرهن ، وتحقر شأنهن ، فقد كان يعمل جاهدا على أن ييغض السلطان في نسائه وجواريه .. وكان الوزير محدثا لبقا ، وناقدا ساخرا : فنفذ إلى قلب السلطان حديثه ، وما قفلا عائدین إلى القصر حتي وطد السلطان العزم على أن يهجر الحريم ..

وتقضت ليلة ويوم وما طاف السلطان بنسائه كما اعتاد أن يطوف ، فبدا الدهش في الوجوه ، فما كان يطيق أن تنقضى ساعة وهو عن الحريم بعيد .. ومر اليوم الثاني ، وانقضت الليلة الثانية ولم يزر السلطان نسائه وجواريه ، فتزل بصدورهن هم ثقيل ، وتساءلن في عجب عما قلب السلطان عليهن ! وانقضى اليوم الثالث في ترقب ، ومضى من الليلة الثالثة بعضها دون أن يفكر السلطان في الطواف بهن ، فلم يطقن صبرا . واتجهن إلى سلمى — وكانت أقربهن إلى قلبه — وقلن لها :

— اذهبي يا سلمى إليه ، لترى ماذا جرى !

نهضت سلمى تتأهب للقاءه ، فارتدت غلالة رقيقة تفضح تكوينها البديع ، ورجلت شعرها السبط ، وتضمخت بالعطور ، وأسرعت أيدي النسوة إليها تسوى من شعرها المتهدل ، وتعمل على إبراز محاسنها ومفاتنها ، حتى إذا ما انتهت من زينتها انطلقت إليه في هيئة تفتن العابد في محرابه .

دخلت عليه في غرفته ، فألفته ساهما يفكر ، وكانت الشموع تبعث



ضوءها الهادئ ، فتضفى على المكان شاعرية ، وتبهى مسارح رجة للخيال ،
وتقدمت نحوه فى خفة الطيف ، وارتعت إلى جواره ، ورنّت إليه بعينها
النجلوين ، وغمغمت فى دلال :

— مساء الخير يا مولاي ..

فظل السلطان فى تفكيره ولم يلتفت إليها ، فمدت يدها وجعلت تمررها
على لحيته فى حنان . فهب من الفراش نافرا ، وانطلق إلى الشباك ، وراح ينظر
منه ، فانسابت خلفه وهمست :

— انقضت ثلاثة أيام دون أن نجلى طلعتك ، فلكانها ثلاثة دهور . ما
الذى غير قلبك الرحيم علينا ؟

— لا شيء ..

— ما كان من طبعك أن تهجرنا الأيام الطوال . بغض العيش ويرد

الفراش !

والتصقت به ، فملأت رائحتها خياشيمة ، فتحرّكت عواطفه التى كان
يقاومها ، وقدرنا إليها ، فبهره حسنها ، وكادت مقاومته تنهار ، ولكنه تذكر
أقوال الوزير فامتعض ، وخمدت الأحاسيس التى هبت تتصارع فى صدره ..
ولمحت سلمى دلائل الامتعاض فى وجهه فقالت :

— تبدلت يا مولاي حتى كدت أنكرك .

فغمغم السلطان :

— الوزير يا سلمى ..

— وماله الوزير ؟

— نهائى عنك ، وبغضنى فى النساء .

فأطرقت سلمى قليلا ، ثم انسحبت تجر أذيال إخفاقها وبدأت أبجرة الحقد .

على الوزير تنتشر في صدرها ، وما بلغت الحريم حتى راحت تقص على النساء النبأ في غيظ ، فامتلات صدورهن بالغضب ، وأطرقن يفكرن في القصاص من الوزير الذى سلهن السلطان ..

ومرت أيام وهن ينسجن خيوط الانتقام ، ولما اطمأنت قلوبهن إلى ما دبرن انطلقت سلمى إلى السلطان .. كان صافى النفس ، فأقبل عليها يحادثها .. وتشعب الحديث ، فأخذ السلطان يقص عليها أنباء ما يفكر فيه لرفاهية شعبه ، ولما جاء ذكر الوزير أثنى عليه ، فانتهزت سلمى هذه الفرصة وقالت :

— وزيرك يا مولاي يضحى براحته في مسيلك وسبيل شعبك ، إنه يستحق الخير كله ، لم لا تمنحه منحة ، تقديرا له وتشجيعا ؟

— وماذا أمنحه يا سلمى وله الحظوة والمال ؟

— أعطه جارية حسناء .. هب له بثينة ، فما عنده مثلها ، ولا رأى قط أجمل منها !

فطأ طأ السلطان رأسه قليلا ، ثم قال :

— هدية طيبة ..

ووهب السلطان بثينة لوزيره ، فلما دخل الوزير عليها فغرفاه ! بشرة ناصعة البياض ، وعينان آسرتان ، وحسن باهر ، وجمال قاهر ، لا يقوى على الصمود أمامه إنسان .. فتقدم وقلبه في صدره كجنح خافق ، ومد يده إليها ، ولكنها فرت منه في دلال ، ونفرت في خفة الغزال ، فابتسم في اطمئنان ، فلئن نفرت اليوم . فستقبل عليه غدا عارضة الوداد ..

ودخل عليها في اليوم الثانى ، وأخذ يتودد إليها ، فكانت تصده في جفاء ،

(صدى السنين)

فتعلق بها ، وكان يزداد شغفا كلما ازدادت صدا .
ومرت الأيام وهي على الصد قائمة ، فتدله بها حبا ، ولم يطلق الصبر على
ذلك الصد الثقيل ، فأخذ يتوسل إليها أن ترحمه من عذاب الفؤاد ..
وتظاهرت بالعطف ، ورنّت إليه بطرف عينها ، فأحس كأن قلبه يذوب
وجدا ، فقال :

— بثينة ، كفى صدا !

فقالت :

— أود أن أصدقك ، ولكنى أخشى !

— تخشين ماذا ؟

— أن تلعب بى ..

— أنا عبدك طوع بنانك ..

— وما برهان حبك ؟

— اطلبى روى أجد لك بها ..

— لا .. سأطلب أمرا هينا .

— ماذا ؟

— غدا إذا صلى الناس العشاء ائتنى ..

ثم أخذت تهمس فى أذنه ، فقطب وجهه قليلا ، ولاحظت تقطيعه ،

فقالت :

— ولو فعلت هذا أيقنت من حبك لى ..

فقال فى صوت خفيض :

— إلى الغد بعد العشاء ..

انتهى الناس من صلاة العشاء ، فأب كل إلى داره ، وذهب الوزير إلى

بشيئة ، يبنى النفس بالوصال . وانطلقت سلمى إلى السلطان وانتمست منه أن ينطلق معها إلى مخدع الوزير لأمر خطير . ولكن السلطان أبى وأعرض عن توسلاتها ، فهمست في أذنه همسة هب على أثرها ، وراح يجرد في السير ، وهي مهرول خلفه ، حتى وصلا إلى حجرة في قصر الوزير ، وإذا السلطان يغرق في الضحك .. إذ رأى بشيئة قد أسرجته وألجمته ، وركبت على ظهره !

وكتب عاصفة الضحك التي كانت تغالبه ، وقال لوزيره في عتاب :

— ألم تكن تنهى عن حب النساء ؟!

فقال الوزير في ذلة :

— أعز الله السلطان ، كنت أخاف عليك أن يقع لك معهن مثل هذه

الحال .

ترويض ابنة

راح حسن يصعد في الدرج متصيب العرق منهوك القوى يشعر بالجوع ينهش أمعاءه ؛ فهو عائد إلى بيته محطما ، بعد عمل مضمّن متواصل في الديوان ؛ إنه من أولئك البائسين الذين تدور على رأسهم مصلحة بأسرها ؛ فهو مسئول عن إنجاز أخطر الأعمال ، وعلى الرؤساء العديدين النازلين بالغرف الفاخرة الممتدة على جانبي الردهة الرئيسية ، أن يشرفوا أعماله بتوقعاتهم الكريمة ؛ وإنه لعمل جليل يستحق الحمد والثناء .

ووقف أمام الباب يطرقه في تراخ ، وهو يلتقط أنفاسه المبهورة ، وأقبلت الخادم الصغيرة ، وفتحت الباب ، فاندفع إلى غرفة النوم ؛ وراح يخلع ملابسه وهو ينظر إلى زوجه الممدودة في السرير في استعطاف ، كان الجوع يعضه بآنيابه ، والتعب يدب في أوصاله ، وكان يطمع في أن تنهض وتجهز له الغداء ، ولكنها ظلت في رقدتها لا تلتفت إليه . كان يحلو لها أن تتمدد لتسترخ قبل أوبته بلحظات . ودنا منها وقال :

— كريمة . هيا لتتغدى .

فتمطت في تراخ ؛ ولم تنبس بكلمة ، فقال يستحثها :

— هيا .

فقالت في تكاسل :

— أحس تعباً يفك مفاصلي .

— قومي .

— اذهب أنت وجهز لنا الغداء .

لم يكن هذا جديدا عليه ؛ اعتاد أن يسمعه كل يوم ، ولكنه أحس غضبا يتحرك في صدره ، وغيظا يلفه ، وفكر في أن يتنفس عن غضبه ، وأن يتفجر فيها صائحا بأنه ما عاد يحتمل ذلك الهوان ، ولكنه كتم ما به ، وذهب إلى المطبخ يجهز الغداء .

كان يوهم نفسه أن من الحكمة ألا يثور ، ففي الثورة تعكير لصفو حياته ، وقضاء على هنائه ؛ فكان يتغاضى عن إساءات زوجه ويزدرد أخطائها في يسر ندائه يستريح إلى خنوعه ، ويعد نفسه عاقلا رزينا لا يقيم وزنا لتوافه الأمور . إنه في واقع الأمر طيب القلب ، ضعيف الشخصية ؛ وزاد في تخلخل شخصيته أنه اعتاد أن يتلقى أوامر رؤسائه العديدين ، وأن يتفلسف دون اعتراض ، فاطمأن إلى الاستسلام والخضوع .

أخذ يغدو ويروح بين المطبخ وحجرة المائدة حتى إذا انتهى من غرف الصحافة ، وأعد كل شيء ، ذهب إلى غرفة النوم يدعو كريمة ، فألقاها لا تزال راقدة في فراشها ، فقال لها :
— انهضى فقد أعد الغداء .

ف قالت له في تناؤب :

— تغد أنت ، إني أشعر برغبة في النوم .

فتحرك غيظه ؛ ولكنه لم يثر ، بل قال في توسل :

— قومي ، لقد برد الطعام .

— أوه !

وقامت في تكاسل ، وغادرت الفراش ، ولكنها لم تذهب إلى غرفة

المائدة ، بل اتجهت إلى المرأة الطويلة القريبة من سريرها ، وراحت تديم النظر إلى قوامها اللدن المشوق ، وتقرب وجهها من صقال المرأة ، وتمرر أصابعها على أهدابها الطويلة ؛ ثم تنظر إلى وجهها الفتان في راحة وإعجاب .

وبقى حسن يتميز غيظا ، وكاد يزفر استياء ولكنه تمالك نفسه ، واستعان بالصبر ، حتى لا يأتي بما يجرح شعور كريمة ، فتشور لكرامتها المهذرة ، وتذرف الدمع السخين ، وهو يهاب دموعها ويخشأها ، فهي تمزق قلبه ، وتقبض صدره ، وتصده عن الطعام وإن كان الجوع ينهش جوفه ، ويقطع أحشائه .

وأخيرا ذهبا إلى غرفة المائدة ، وقعدا يتناولان طعامهما ؛ وراح حسن ينظر إلى وجهها الخلو القسمات ، فانقشع غضبه ، وأحس راحة تكتنفه ، ونشوة تدغدغ حواسه ، وشعر برغبة في أن يتودد إليها ليترضاها ، فلعله أساء إليها وهو لا يدري ! فقال لها في انشراح :
— سنذهب الليلة إلى السينما .

فنظرت إليه بعينيها الجذابتين ، وانبسبت أساريرها ، واقتر ثغرها عن ابتسامة حلوة عبثت بأوتار قلبه ، فانداحت في صدره موجة من الغبطة والسرور .

وانتهى الغداء ، فحمل الصحاف إلى المطبخ راضيا ، ثم ذهب إلى فراشه وتمدد فيه ، ففكر في أنهما سيخرجان معا فانشرح ، سينطلقان الليلة في شوارع القاهرة يتناجيان كعشيقين ، إنه يحس سعادة كلما سار معها في طريق ، أو جلس بجوارها في سينا ، أو حادثها همسا في سيارة ، كان وجوده معها بعيدا عن البيت يحرك عواطفه ويذكى نار حبه .

واسترسل يفكر فيما يفعلانه بعد الخروج من السينما ، أيعودان إلى البيت ،

أم يذهبان إلى الجزيرة ، لينعما بجمال الطبيعة ، وروعة الليل الفاتن الجذاب ، فاستقر رأيه على أن ينطلقا إلى شاطئ النيل ، يمتعان نفسيهما بالسحر الخلال ، واستمر في تفكيره ينعم بأحلام يقظته .

ووافي ميعاد الخروج إلى السينما ، فارتدى ثيابه منشرح الصدر ، متفتح النفس ، وغادر غرفته ، فألقى غرفة الاستقبال مفتوحة ، فأطل برأسه ، فأربد وجهه ، وطارت سعادته ، وانقبض . إن كريمة دمت — كعادتها — أختها ، وابنتى عمها ليشاركاها في سهرتهما ، وثارت ثائرتة ، كان يحلم بأنهما سيخرجان وحدهما بجوسان خلال القاهرة ، كحبيين فرا من أعين الرقباء ، فإذا بها تدعو أقاربها ، وتقوض أحلامه .

وضاق صدره ، وزاد غيظه ، وفكر في أن يدعو زوجته ، ويعلنها بغضبه ، وبأنه لم يعد يحتمل هذا التنغيص ، وأن يثور ثورة هائلة ينفس بها عن نفسه ، ولكنه رأى من الحكمة ألا يثور ، حتى لا يعكر صفو حياته ، أو يقضى على هنائه .

وفي ليلة من الليالي عاد حسن إلى داره بعد ميعاده الذي اعتاد أن يعود فيه ، فقد قابل بعض زملائه ، وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ، فسرقه الوقت دون أن يحس ، فلما تيقن من أنه تأخر خفق قلبه ، وسرى في صدره قلق ورهبة . كان يدري ما ينتظره عند أوبته .

ووقف أمام بابه يدقه في رفق ، وقلبه في جوفه يدوى دوى ، ومر الوقت ولم يفتح له أحد ، فطرق الباب في شدة ، ولكن ما من مجيب ، واستمر في دقه والوقت يمر ، وهو يتململ في وقفته ، يلفه خوف وحنق . وأخيرا سمع صوت كريمة الغاضب ينبعث من وراء الباب يستفسر :

فقال في حشرجة :

— أنا ، افتحى .

فصاحت في غضب :

— لن أفتح ، اذهب وأمض بقية الليل حيث كنت .

فقال في همس وهو يتلفت ، خشية أن يراه جيرانه في موقفه الدليل :

— كريمة ، افتحى .

— لا . اذهب .

وهز الباب في غضب ، وهتف في صوت خافض ، كله توسل ورجاء :

— كريمة .. كريمة ..

ولكنها ذهبت ولم تجبه ، فحرك غيظه ، وطفى غضبه ، وفكر في أن يحطم الباب ، ولكنه ما كان بقادر على أن ينقذ خواطر الثورة التي كانت تراوده ، فتحلم على كره منه ، ولما كان التعب قد نال منه ، فإنه جلس على الدرج القريب من بابه ، وأخذ ينتظر أن يحن عليه قلب كريمة الغضبان .

وانقضى بعض الوقت ، وسمع وقع أقدام ، فنهض ينظر ، فألقى بعض جيرانه صاعدين قارتبك ، وخطر له أن يفر إلى السطح ، ولكن أغضبه ذلك الحائط ، وراح يعاود طرق الباب في شدة وحنق .

وفتحت كريمة الباب ، ثم جفلت كفزال شارد ، وانطلقت كعاصفة نائرة إلى غرفة النوم ، فذهب خلفها وهو يضطرب ، فألفاها قد ارتمت في السرير تبكى وتتنحب ، فراح يخلع ملابسه منقبض القلب ، وأحس نار الغيظ تندلع في جوفه ، وتمنى أن ينفجر نائرا ، وأن يصيح بها بأن صدره قد ضاق عن احتمال ذلك العنت والعذاب ، ولكن طبعه غلبه . فلاذ بالصمت ، واندس في فراشه دون أن ينبس بكلمة ، حتى لا يعكر صفو هنائه ، أو يقوض

صروح سعادته !

وفي يوم من الأيام ، عاد إلى داره بعد عمله المضني في الديوان ، ودلف إلى غرفة النوم ، فوجد زوجه في فراشها ، ولكن ما أن رآته حتى هبت من رقدتها ، واتجهت إليه ، منبسطة الأسارير ، فأوجس خيفة ، كان يخشى ما وراء ذلك النشاط الطارئ الغريب .

ودنت منه ، وقالت له قبل أن يخلع ملابسه :

— إني في حاجة إلى نقود .

فقال في صوت مبحوح :

— لماذا ؟

— بعثت الخياطة إليّ لأتسلم الثوب الجديد .

فقال في صوت خافت :

— انتظري حتى أول الشهر .

فأربد وجهها ، ولاح فيه الغضب ، وقالت في ثورة :

— ماذا تقول الخياطة عني ؟

وتركت الحجرة حائقة ، ودلفت إلى حجرة أخرى ، وأغلقت خلفها الباب في شدة ، فانقبض ، وامتلاً حنقا وغضبا ، وخطر له أن يثور ، وأن يصرخ فيها بأنه لم يعد يحتمل غرورها ، ولكنه لم يثر حتى لا يعكر صفو حياته ، فمد يده في جيبه ، وأخرج ما فيه ، ثم ذهب إليها يقدم لها ما طلبته في ذل وخضوع .

واستمرت كريمة تجرعه كأسها المرير ، وهو يزدردها صابرا . وضاق صدره يوما بمشاعره التي يكتُمها ، فشعر برغبة في أن ينفس عن نفسه ، فأقبل

على زميله في المكتب يقص عليه متاعبه ، فقال له زميله :

— الذنب ذنبك .

فقال حسن في إنكار :

— ذنبي أنا ؟

— أجل ، لم تكن رجلا .

فاحمر وجه حسن ، وأحس كبرياءه تجرح ، فقال في تلثم !

— لماذا ؟

— نزلت لها عن حقوقك ، وأبديت الرضا والخضوع .

— من الحكمة أن نحني رءوسنا للزوابع حتى تمر بسلام ، لنحافظ على

صفو حياتنا .

— بل لنبقى على التنغيص الدائم المستمر ، لو أنك ثرت في وجهها أول ما

حاولت أن تسلبك حقوقك ، لما استرسلت في طغيانها ، المرأة كالفرس ، إذا

كبحت جماحها انتقادت لك ، وإذا أطلقت لها العنان جمحت .

فأطرق حسن قليلا ثم قال :

— وماذا أفعل الآن ؟

— روضها .

فقال حسن في فزع :

— أتشير عليّ بضربها ؟!

ولاحظ زميله فزعه ، فابتسم وقال :

— لم أقل لك اضربها ، بل روضها .

— وكيف أروضها ؟

— كما تروض القردة .

فبان الدهش في وجه حسن وغمغم :

— القردة !

— أجل . القردة ، ألم تر مروض القردة وهو يروضها ؟

— أبدا .

— فلا غرابة إذن في أنك لا تعرف كيف تروض امرأة .

— وهل رأيته أنت ؟

— أجل .

— أين ؟

— في يوم من الأيام دعاني صديق لزيارة مروض قردة ، فأخذنا نخرق شوارع القاهرة العتيقة ، حتى إذا خلقنا البيوت المتهدمة القابعة عند أقدام تلال المقطم ، رحنا نرقى مرتفعا ، فلما بلغنا قمته ، رأينا على بعد خطوات حجرة مشيدة بالصفيح الصديق القديم ، وتقدمنا ودققنا الصفيح ، فخرج إلينا رجل لوحته وجهه حرارة الشمس ، واسع العينين غزير الشارب ، في وجهه قسوة وصرامة ، يرتدى جلبابا أزرق ، وما إن رأانا حتى حيانا مرحبا ، ثم قدم إلينا صفيحتين ، وقال في بساطة : « تفضلا » فجلسنا .

وذهب الرجل ، وغاب قليلا ، ثم عاد وهو يسحب قردا وكلبا ، وتحت إبطه خيزرانة طويلة ، وشد القرد إلى وتد في الأرض شدا وثيقا ، وقعد القرفصاء والكلب أمامه ، وراح يقوم ببعض الحركات ، ويطلب من الكلب أن يفعل مثله ، ولكن الكلب ظل ثابتا لا يحرك ساكنا ، فسحب الخيزرانة وضربه بها ، فعوى . ورأى القرد ما حل بالكلب فانكمش من الرعب ، وحاول أن يفر من الخوف .

استمر الرجل يقوم بحركات مختلفة ، ويطلب من الكلب أن يحاكيه .

ولكنه عجز عن ذلك ، فضربه ضرباً قاسياً ، فغاص قلب القرد ، وراح يقفز في فزع ، فما يقع أمام عينيه ينزل به الرعب الشديد .
ثم استل الرجل سكيناً ، وأضجع الكلب على مرأى من القرد وذبحه ، فراح القرد يقفز مرعوباً ، ويجذب نفسه ليفر من ذلك الهول ، ولكن أنى له ذلك ، كان في عنقه طوق من حديد ، تتدلى منه سلسلة شدت إلى الوتد الثابت المكين .

وألقى الرجل بالكلب بعيداً ، وعاد إلى القرد ، وقعد أمامه ، فابتعد القرد مفزوعاً ، فجذبه إليه ، وجعل يقوم ببعض الحركات ، ويطلب منه أن يفعل مثله ، فكان يحاكيه ، وأخطأ مرة ، فضربه بالخيزرانة ففزع ، وحرص على أن يحاكيه في دقة غريبة ، إنه أيقن أن بعد الضرب الذبح وما كان يجب أن يهدر دمه رخيصة . وصمت الرجل ، وغمغم حسن :

— بديع !

فقال زميله يحرضه :

— روضها كما روض الرجل قرده .

فقال حسن في عزم :

— سأفعل .

— أظهر لها أنك قادر على البطش بها .

— ما أيسر القسوة .

— أوح إليها أنك تستطيع أن تحيل حياتها جحيماً .

— سأعكر حياتها يوماً ، لتصفو حياتنا إلى الأبد .

وعاد حسن إلى الدار ، وراح يصعد الدرج ، وقد بيت في نفسه أمراً ، عزم على أن يثور ، وعلى أن يحطم كل شيء في سبيل استرداد هيئته ، ودق

الباب ففتحت له الخادم الصغيرة ، فدخل يضرب الأرض بقدميه في قوة ، وانطلق إلى غرفة النوم ، فألقى زوجته ممددة كمعادتها ، فلم يلمس منها أن تعد له الغداء كما اعتاد أن يفعل ، بل تلح ملابسه ، ولبس منامته ، وتمدد في سريره ، ولم ينبس بكلمة .

وانتظرت كريمة أن يتكلم ، ولكنه لم يفعل ، فقالت :

— هلا تتغدى ؟

فقال في صوت آمر كلفه جهدا قاسيا :

— أعدى الغداء .

وكاد يضعف ، ولكن كم كان عجبه لما رآها تنهض ، وشد ذلك أزره ، فعزم على أن يسير إلى نهاية الشوط ، وليكن ما يكون .

وجلسا يتناولان طعامهما ، وما ازدرد لقيمات حتى طلب من الخادم كوب ماء ، فجاءت الصغيرة تقدم له الكوب ، فدفع يدها عامدا ، فسقطت عليه بضع قطرات ، فهاج وماج ، وصرخ في الطفلة ، فتقهقرت مرعوبة ، فتقدم نحوها وضربها بظهر يده ، أرادها أن تكون الكلب الذى يتحمل الأذى في سبيل ترويض القرد ، ولكن الضربة أصابت أنفها ، فسال الدم منها ، وما إن رأى الدم حتى تخلخلت مفاصله ، وأحس رأسه يدور ، أراد أن يكون مروضاً ، ولكن طبعه غلبه ، إنه يحس الأرض تئيد تحت قدميه . وتحرك ليعود إلى مقعده ، ولكنه لم يستطع أن يملك نفسه ، فهالك وسقط في حجر زوجته مغشيا عليه .

كازانوفا جدي

١

مشط شعره الذهبي بأصابعه ، ورفع وجهه الأبيض ، فلمعت عيناه
العسلتان ، ودعك أنفه المحمر دائما بيده ، ثم ابتسم ابتسامة رقيقة ، ودفع
صديقه بمرفقه في خفة ، وقال له في همس :

— أرايت ؟

— ماذا ؟

— إنها تغمز لي .

فرفع الصديق وجهه الأسمر إلى حيث كان كال ينظر ، فلمح فتاة في شرفة
مرتفعة، ولكنها كانت تطل على الناحية الأخرى ، فقال كال وهو
يضحك :

— أشاحت بوجهها لما مددت بصرك إليها .

وانطلقا بجوسان خلال طرقات الحى ، وراح كال يلقي منولوج « سهل
وجران ، من رواية النسر الصغير » في نبرات ممتلئة ، وكان يضغط على
الألفاظ حيناً ويلين أحياناً ، فيتقلص وجهه وينبسط ، ويرتفع صوته
وينخفض ، وتتسع عين ، وتضيق عين ، ويلوح بيده في الهواء مندججا في

دوره ، ناسيا أنه في الطريق .

كانا طالبين في السنة النهائية بالمدارس الثانوية ، وكان كمال رئيس فرقة التمثيل بالمدرسة ، وكان حمدي رفيقه الذي لا يفارقه يصغى إلى تمثيلياته في إعجاب ، ويستمتع إلى مغامراته في لذة يشوبها طيف من الغيرة أحيانا ، وما أن أنهى كمال من متولوجه حتى التفت إلى حمدي وقال وقد انبسطت أساريره :
— كانت البارحة ليلة من ليالى العمر لا تنسى .

— وماذا حدث البارحة ؟

— أما قصصت عليك ما جرى بالأمس ؟

— لا ، وماذا جرى ؟

— نهلت من النبع الصافي ، وسبحت في بحيرات السعادة ، وحلقت في سموات الحب ، وطرت على جناح الغرام .

— هلا هبطت إلى الأرض وقصصت على ما حدث ؟

— عدت إلى البيت بعد أن تركتك ، وأخذت أدق جرس الشقة دقا متواصلا ، فلم يفتح لى أحد .

طرقت الباب يدي في عنف ، ففتح باب الشقة المواجه لشفقتنا ، وخرجت فتحية ، كانت الرقة والظرف ، فلو أن الرقة والظرف تجسما لما كانا غير فتحية ، انسابت نحوى في خفة الطيف ، وهمست في صوت شحن أنوثة وسحرا :

— خرجوا وتركوا لك المفتاح .

تناولت المفتاح وأنا أرنو إليها في إعجاب ، رأيته كثيرا ولكنى لم أرها قط في روعة الأمس ، كان شعرها الأسود محلولا يتهدل فوق كتفها ، وبدا وجهها كالبدن ، وراحت عيناها تشعان بريقا يخطف القلب ، فاضطربت أنا

الذى لم يعد يضطرب فى حضرة النساء ، من كثرة ما رأيت من نساء ، ولاح على الارتباك ، ولكنى جمعت شجاعتي سريعا ، وابتسمت لها وحنيت رأسي ، وقلت :

— متشكر .

وحاولت أن أقول أكثر من ذلك ، فلم يسعفنى الكلام ، فدخلت الشقة وأنا أشعر بضيق ، وظلت صورة فتحية بشعرها المسترسل المحلول ، وثوبها المتزلى الذى أبرز مفاتن الجسم أمام عيني لا تريم . دخلت حجرتي وفتحت كتابا ، وحاولت أن أقرأ ، لأشغل ذهني بشيء غيرها ، ولكن كانت صورتها فى كل صفحة ، واسمها فى كل سطر ، قلم أطق المكث ، فخرجت إلى الشرفة ألتقط الهواء ، لعل هبوب النسيم يطفئ تلك النار المندلعة فى الضلوع ، والتفت فلمحتها فى الشرفة القريبة من شرفتي ، فاضطربت النار المتأججة فى جوفى ، وقفز قلبي فى صدري ، وظل يطفو ويغوص ، وانساب دمي حارا فى عروقي ، كأنما يتدفق من أتون ، وما كان أمامي إلا أن أفكر فى طريقة أصل بها إليها ، فأخذ فكري يعمل فى نشاط عجيب ، وما هى إلا لحظات حتى قفزت إلى رأسي فكرة استرحت لها ، فرحت أنقذها من فوري . لطالما قلت لك يا حمدى أن المسألة لا تحتاج إلا إلى شيء من اللباقة ، وقليل من الشجاعة ، قطعت زر البيجاما ، ثم ذهبت أطرق بابها ففتحت ، فقلت لها فى صوت هادئ :

— إبرة من فضلك .

فظهر فى وجهها التساؤل ، فقلت وأنا أرفع الزر بين أصابعي :

— قطع وبحث عن الإبرة ، ولكنى لم أهتم إلى مكانها .

وغابت قليلا ، وانتشرت فى صدري أحاسيس متباينة ، أحاسيس النشوة

وأحاسيس الرهبة من أن يخفق تدبيرها ، وعادت وفي يدها إبرة ، ولم تدفعها إلى بل قالت :

— هات الزر أثبتته لك .

فقلت ممثلا الارتباك :

— لا أود أن أتعبك .

فقالت :

— هذا شيء بسيط .

فقلت وأنا أبتسم :

— هذا لطف منك .

ومدت يدها إلى البيجاما لثبت الزر المقطوع ، ولكنها فطنت إلى أننا نقف خارج الباب ، فقالت :

— تفضل .

فدخلت وأغلق الباب خلفنا .

انحنت تغرز الإبرة في البيجاما ، فاختلطت أنفاسنا ، وأصبح رأسها تحت أنفى فامتلاأت خياشيمي بعيرها فاضطربت ، ووقعت عيناى على الأخدود الغائر بين النهدين ، فسرت رجفة من بدنى . وتلاقت عيوننا مرات ، فكانت تترجم في ومضات عن الشعور المكبوت .

— لم أشعر إلا بيدى تضغط على يدها في حنان ، ولم تمض لحظات حتى شعرت بذراعى تلفان خصرها ، وشفتى تبحثان عن الثغر الحلو الدقيق .

رفع يده يمشط شعره الذهبى بأصابعه ، ومد بصره إلى لا شيء ، وقال في
إلقاء تمثيلي :

— تلمع السعادة يا حمدي في حياة الإنسان كوميض البرق في سماء ملبدة
بالغيوم . سعدت روحى بالأمس لحظات مرت كلمح البصر ، وتقضت
كحلم جميل ، الحب يا صديقى كالحرب : مناوره فمفاجأة فتطويق فتسليم .
وصمت كالم قليلًا كما يفعل كبار الممثلين ، ثم قال :

— رأيتهما تخطر عند الغروب ، كانت الفتنة والحسن ، صدر شاخ في
استعلاء ، كأنما شعر بجلاله وروعته ، وخصر دق حتى أشفقت عليه من ثقل
الأرداف الممتلئة التي شدت إليه ، وساقان ممشوقتان خرطتا من مرمر ، أما
الوجه فكان آية من آيات الحسن والجمال .

ما وقعت عيناي عليها حتى انجذبتا إليها كما يتجذب مسمار إلى مغناطيس ،
اقتربت منها فلمحتها تمضع لبانا ، ولما كنت على يقين من أن الأمر لا يحتاج إلا
إلى شيء من اللباقة ، وقليل من الشجاعة ، هرعت إليها دون تردد ، حتى كاد
كتفى يلمس كفها ، ورنوت إليها ، وقلت في هدوء :
— قطعة من اللبان من فضلك .

فالتفتت إليّ في ارتباك ما لبث أن غاضى ، وأشرق وجهها دون أن يفتر
نغرها عن اللؤلؤ النضيد ، وهزت رأسها في دلال ، فقلت في إصرار :
— لن أبرح حتى آخذ قطعة اللبان .

فقلت في صوت رقيق :

— إذن لن أعطيك .

فقلت في انشراح :

— أشكرك .

فقلت في إنكار :

— وعلام تشكر ؟

قلت في هدوء :

— لأنك لا تودين أن أتركك .

فقلت في استخفاف متكلف :

— ومن قال ذلك ؟

قلت :

— أنت ، ألم أقل لك : لن أبرح حتى آخذ قطعة . فقلت إذن لن

أعطيك ، فهل معنى ذلك إلا أنك تريدني بقاءً ؟

فمدت أصابعها إلى فمها ، وأخرجت قطعة من اللبان ، وقالت :

— خذ .

فتناولت القطعة وأنا أقول :

— على ألا أنصرف .

فابتسمت في سرور .

فقال حمدي وقد شعر بعقارب الغيرة تلسعه :

— محظوظ .

فقال كمال في اعتداد :

— بل لبق جسور .

ومرت ثلاثة أيام لم ير حمدي فيها صديقه ، فانتظره في شوق ، ولكن تقضت الساعات دون أن يقبل ، فأحس مللا ، فخرج وحده يطوف في الحى ، ويضرب في شوارعه ، رأى فتيات رائحات غاديات ، فكان يرقبهن على البعد في اشتاء ، ولمح فتاة تخرج وحدها ، فوسوست له نفسه أن يتبعها ، فراح يقتفى أثرها ، وفكر في أن يقترب منها ويغازلها ، فشعر بقلبه يخفق خوفا ، وبرهبة تسرى في صدره ، واضطراب يلفه ، فحنق على نفسه ، وسمع هامسا يهمس في جوفه : « رعديد ما كان كمال ليحجم » فثار على ضعفه ، وحاول أن يصرعه ، فوسع من خطوه حتى إذا ما اقترب منها قفزت إلى ذهنه فكرة : « ماذا يفعل لو أنه غازلها فصفعته ، بدل أن تبتسم ؟ » وما مثل هذا الخاطر في فكره حتى جبن وازداد اضطرابا ، وفترت حماسه ، فقلل من سرعته ، وأخذت الفتاة تبتعد عنه ، ثم دخلت دارا قريية .. فهدأت ثورته ، ونزلت السكينة قلبه ، فزفر زفرة طمأنينة وارتياح .

واستأنف سيره ، وما خطا خطوات حتى لمح كالا مقبلا ؛ وهو يمشط شعره بأصابعه ، ويدعك أنفه المحمر أبدا ، فابتسم مرحبا ، وقال :

— أين كنت طوال هذه الأيام ؟

— في نعيم أمرح .

— فتحية أم فتاة اللبان ؟

— بل صيد جديد .

— وكيف وقعت عليه ؟

— كنت في دار عمى جالسا وحدى في الردهة ، وجاء إلى امرأة عمى زوار ، فقادتهم إلى غرفة الاستقبال ، بقيت وحيدا لحظات . وقع بصري على التليفون ، فلمعت في رأسي فكرة .

فرفعت السماعة ، وطلبت السترال ، فرد على صوت نسوي حلو فقلت :

— عندك جريدة من فضلك ؟

قالت :

— نعم ! ماذا تريد ؟

فقلت :

— أريد أن أعرف روايات السينما في هذا الأسبوع .

فقالت :

— رأيت رواية جميلة في سينما مترو .

فقلت :

— لم تعد لها قيمة عندي ما دمت قد رأيتها . إنني لا أحب أن أذهب إلى السينما وحدى وأظن أنك لا تحبين أن تشاهدي رواية واحدة مرتين في أسبوع .

فقالت :

— لا أفهم ماذا تريد ؟!

فقلت :

— بل تفهمين .

فقالت :

— أهى دعوة ؟

قلت :

— متواضعة ، ليتك تلبين .

قالت :

— غدا أمام سينما ريفولى .

قلت :

— متى ؟ وكيف أعرفك ؟

قالت :

— فى السادسة مساء وسأرتدى ثوبا أبيض فى صدره وردة حمراء .
انتظرتما فى الميعاد ، ولحقتها مقبلة ، فأسرعت إليها ، حتى إذا ما اقتربت منها
قلت وأنا أمد لها يدي :
— آلو .. آلو .

فأخفت فمها بمنديل فى يدها ، لتعجب ضحكة ودت أن تنطلق . ثم
مدت يدها وصافحتنى وهى تقول :
— أهو أنت ؟

قلت :

— نعم ، أخاب ظنك فى ؟

فكسرت أهدابها وغمغمت :

— شيطان .

لم تكن رائعة الحسن ، ولكن زانها جمال الصحة والشباب ، كانت نابضة
زاخرة بالحياة ، إذا نظرت إليك بعثت الدفء فىك ، وأيقظت الإحساس
المهاجم ، نعمنا بالرواية ونحن فى غمرة من السعادة ، ثم انطلقنا بعدها إلى

الجزيرة ، ورحنا نذرع طرقاتها في سكون الليل وهدوئه ، كان القمر يتألق في
رقعة السماء ، ويعكس ضياءه على صفحة الماء ، ويفرش مسارب الطرقات
أمامنا بساط فضي أخاذ يهز المشاعر ، ويفعم النفوس بالغبطة ، كانت ليلة لن
أنساها .

تعلقت عينا حمدي به ، وكان يصفي إليه في انتباه ، وسمع همسا يهمس في
أذنيه : « محظوظ » ولكن سرعان ما راح الهمس يردد : « بل لبق
جسور » .

٤

سار حمدي في شارع قواد الأول يتلفت وقد انتشت روحه ، فقد مر
بأسراب ، وعجب لتلك الأيدي الماهرة التي صفتت الشعور ، وزججت
الحواجب ، ونشرت المساحيق والأدهان في صفحات الوجوه في فن
وإبداع ، فأبرزت الروعة والجمال ، ورأى فتيانا يسعدون بمصاحبة فتيات ،
ففكر في وحدته ، وسأل نفسه : « ألا يجد بين هؤلاء المنطلقات من قبله
صديقا ؟ » منهن من ترحب بهذه الصداقة من غير شك ، ولكنها لن تأتي إليه
عارضة عليه أن يسعى إليها ، المسألة لا تحتاج إلا إلى شيء من الباقة ، وقليل
من الشجاعة ! هذا ما يقوله كمال المجرب وهو يؤمن بذلك كل الإيمان ، ولكن
من أين له الشجاعة ؟ إنه ما يقترب من فتاة حتى ترتعد فرائصه ، وتتأبه
رهبة ، ويفكر في الفرار .

سيعيش وحيدا إذا ركن إلى طبعه ، أما إذا أراد أن يحب كما يحب الشباب ،
فعليه أن يجمع أطراف شجاعته ، ويغازل فتاة . وكان قد وصل إلى شارع

سليمان باشا ، فخرج عليه وقد عقد العزم على أن يجرب مرة ، انطلق وقد اختلطت عليه إحساساته ، كان يشعر بخوف مما يتوقع حدوثه من أحداث إذا ما أقبل على مغازلة فتاة ، وكان يشعر بقوة طاغية عاتية تدفعه إلى القيام بهذه المحاولة الخطرة . وتذكر كالأ في تلك اللحظة ، ورنّت في أذنيه كلماته ، فشدد ذلك أزره ، وقوى من عزمه .

ورأى فتاتين تتهاوسان ثم تضحكان أمام سينا مترو ، وكانتا بعيدتين عن الحشد المتدافع بالمناكب في مدخل الدار ، فشجعه مرحهما على أن يندفع إليهما ، فسار وقلبه يدق في جوفه دقا ، ودمه يتدفق إلى رأسه حارا ، فشرع بسخونته ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه ، فانطلق حتى أصبح أمامهما فقال في صوت ظاهر الاضطراب :

— أين سينا مترو من فضلك ؟

فابتسمت الفتاتان ، فهذأت نفسه القلقة قليلا ، وسكنت مشاعره المتصارعة في جوفه التي كادت تعصف به ، وقالت إحداها وهي تشير بإصبعها بعيدا :

— لعلها هناك ..

قال في أدب بعد أن جمع شتات نفسه :

— متشكر .. سؤال آخر من فضلك .

فقالت إحداها في تهكم :

— مثل السؤال السابق ؟

وقالت الأخرى وهي تضحك :

— أرجو ألا يكون عويصا مثله .

فقال :

— هل تشاهدان الرواية المعروضة في هذه الدار ؟

— لا ..

— وأنا لم أشاهدها .

فقالت إحداهما وهي تضحك :

— أفادكم الله .

وتحركت الفتاتان ، فقال :

— كلمة أخيرة من فضلك ؟

— ماذا ؟

— يحزننى أن تنصرفا دونى ، كل ما أرجوه أن أسعد بحديثكما .

— ثم ماذا ؟

— أنصرف عندما تطلبان منى الانصراف .

فضحكت إحداهما وقالت :

— إذن انصرف الآن .

— حقا ؟ إني وحيد ، فماذا يضيركم لو أسعدتماني لحظات ، وكان لكما

عند الله الأجر والثواب .

فقالت إحداهما وقد أشرق وجهها وعملل :

— أصبح للترفيه عن الشبان أجر عند الله ، كالصدقة على الفقراء .

— كلانا يستحق العطف ، فنحن في الحرمان سواء .

انصرف حمدي مفعما بالرضا جذلان ، فما كان يصدق أنه يجرو على مغازلة فتاة ، فإذا به يغازل فتاتين ويواعدهما على اللقاء ، وراح يفكر فيما يفعله في الغد ، إنها فتاتان ، ولن يسعد بفتاتين ، فماذا عليه لو صاحب كالا ، وقرر أن يصحبه معه ، فهو صديقه وصاحب الفضل عليه ، فلولا ما وجد في نفسه الشجاعة لمواجهة فتاة .

وخطر له أن كالا قد يأسر الفتاتين بلباقته وجسارته ، فهو زير نساء ، ولكنه طرد ذلك الخاطر سريعا ، فقد كان فرحان ، وما كان لخواطر الريية والشك في نفسه مكان .

ووافق الميعاد ، فأقبلت الفتاتان ، فابتسم حمدي ، وبرقت عيناه سرورا ، ومشط كمال شعره الأصفر بأصابعه ، ودعك أنفه المحمر أبدا بيده في اضطراب ، وظهر عليه ارتباك . وقدمه حمدي للفتاتين ، فسحشرج حشرجات ، وساروا وحمدي يتحدث وكال صامت لا ينبس بكلمة ، حتى إن حمدي أنكر في نفسه هدوء زير النساء ، الذي لا يضطرب في حضرة النساء من كثرة ما رأى من نساء !

وبلغوا حديقة هادئة ، فجلسوا على أريكة واحدة ، وظل كمال غارقا في صمته حتى إن حمدي تمنى لو أنه ألقى مثلوجا من المنلوجات الروائية التي يلقيها عليه في الليل والنهار .. ونحن حمدي أن كالا قد يكون من ذلك الطراز الذي



لا يتألق إلا إذا انفرد بفتاته ، فأخذ فتاة وابتعد ، تاركا كمالا وحده مع فتاة .
وانقضى بعض الوقت ، فعاد حمدي وفتاته منشرحين ، فألفيا كمالا جالسا
على طرف الأريكة بنصت إلى الفتاة ، وقد بدا عليه الارتباك ، وما إن لحتهما
الفتاة حتى قالت في تبرم :

— هيا لنعود .

فقال حمدي في إنكار :

— هكذا سريعا ؟

فقالت الفتاة في ضيق :

— أشعر بقشعريرة تسرى في بدني .

فقال حمدي متكهما :

— من الحب ؟

— من البرد .

وفطن حمدي إلى أن هذه أول مرة يقابل فيها كمال فتاة . وأن فتحية وفتاة
اللبان والستراي وغيرهن من بنات الخيال ، قابتسم في سخرية ، ولكن هذه
البسمة دوت في أذنيه قهقهات ، وهمس في جوفه هامس ساخرا :

— حقا إنه لبق جسور ، لا يضطرب في حضرة النساء من كثرة ما رأى

من نساء !

البخيل

هبط في البكور إلى فناء الدار ، وذهب إلى حيث وضع في المساء صفيحة
ملأها ماء ، ليختبرها هل ترشح . وما أن وقع نظره على الصفيحة حتى قطب
جبينه .. فقد رش أحدهم الفناء بالماء .. فهتف في غضب :

— عم محمود . عم محمود .

فجاء البواب يهرول . فقال له وقد زوى ما بين حاجبيه :

— من الذي رش هذا الماء ؟

— أنا يا سيدي ..

— ألا تعلم أنه ماء عذب وليس من البئر .. كنت سأستعمله فيما يستعمل

فيه الماء العذب ..

— لم أكن أدري أنه ماء عذب .

فدار على عقبيه في انفعال ، والتفت إلى (سلامك) كان يتخذة مكتبا في

الصباح وصباح :

— محمد أفندي .. محمد أفندي ..

فظهر عند رأس السلم محمد أفندي في جلباب مخطط ، وعلى رأسه

طربوش قديم .. وفوق أذنه اليمنى قلم . إنه كاتب الحسابات ، فقال في حزم :

— اخصم من ماهية عم محمود مليمين ثمن الماء الحلو الذي رشه اليوم .

فقال عم محمود وهو يمد يده في جيبه :

— لا لزوم للكتابة والخصم وتعقيد الحسابات .

وأخرج مليمين وقال :

— هاك المليمين .

فبسط الرجل كفه وتناولهما ، ثم دسهما في جيبه . وذهب يجوس خلال فناء الدار الواسع ، فألقى في ركن من الأركان قطعة خشب ملقساء ، فالتقطها ، ويم صوب باب صيق ، ففتحه ودلف إلى مكان تكدست فيه قطع من الحجارة ، وأكوام من الرمل والجير والخشب ومكاتل وحبال ، ومفاتيح صدئة ، وأقفال قديمة ، ومشابك أبواب ونوافذ ومقابض أبواب .. ثم فوضع قطعة الخشب في حرص كما وضع كل ما في ذلك المخزن من قبل .. ثم خرج وأغلق الباب خلفه ، فما كان يفرط في شيء يجده . علمته الأيام أن لكل شيء قائدة .. فإذا أصر ساكن من السكان الذين يقطنون مساكنه الكثيرة على عمل بعض الترميمات في مسكنه . كان في ذلك المخزن العون على إتمام الإصلاح ، دون أن يخرج من جيبه نقودا .

وجلس على باب الدار يستقبل الخدم الذين يقدون في الصباح ليشتروا منه الخضر التي يزرعها في فناء البيت . فما كان يحب أن يدع شيئا دون استغلال . وأخذ يقبض القروش متهلل الوجه . كان يفرحه دخولها إلى جيبه ، وكان يغما خروجها منه .. وأقبل خادم ، وطلب رطلا من ورق العنب ، ونقده ثمنه .. فأمر عم محمود — وكان بوأبا وزارعا وبائعا وسباكا عند اللزوم — أن يقطف له من عريش العنب رطلا ، فراح عم محمود يقطف ورق العنب ، ثم أعطاه الخادم . ولاحظ السيد أن ما أخذه الخادم يزن أكثر من رطل .. فأخذ ورق العنب منه في عنف وهو يرغى ويزبد ، ووضع في الميزان فرجح .. فراح يسب عم محمود الذي سيسب له الخراب ! ..

وأقبل صبي صغير وتقدم منه على استحياء ، وقال له في صوت

مضطرب : إن كرتة سقطت منه في فناء الدار ، وإنه يرجوه أن يأذن له بالدخول ليأخذها . فقال له :

— لن أعطيكمها قبل أن تدفع قرشا ، حتى لا تسقطها مرة ثانية ..
وأخرج الصبي القرش الذي أخذه من أهله لينفقه في يومه ، وأعطاه إياه ،
فدخل عم محمود ، وعاد بالكرة وقدمها إلى سيده ، فلما رآها اغتم ، كان
يحسبها صغيرة ، فإذا بها كرة قدم .. فدفع بها إلى الصبي وهو مستاء ، يحس
إحساس من غبن في صفقة من الصفقات ، وراح يغمغم في حسرة :
— لو كنت أدري ما قبلت قرشا واحدا فقط !
وهبط ابنه من الدار .. فانطلقا معا إلى الدكان ، وفيما هما في الطريق .. قال
ابنه .

— سيحضر اليوم مفتش الصحة ..
فقال الرجل في امتعاض :
— مصائب تهبط علينا من السماء .. أتحسب أن الإصلاحات التي
أجريناها بمخازننا كفيلة بإرضائه ؟
فقال الابن في استخفاف :
— لن يأذن لنا بإعادة فتح المخازن مهما أجرينا بها من إصلاحات ..
— لماذا ؟
— لأنه يأمر بإغلاق المحال ، بحجة عدم استيفائها المواصفات الصحية ،
ثم لا يوافق على إعادة فتحها إلا إذا أخذ شيئا ..
فقال الرجل في فزع :
— أخذ ماذا ؟
— ألم تسمع أن الحاج سليمان دفع له خمسة جنيهات حتى وافق على إعادة

فتح محله .

فقال الرجل في تهويل :

— خمسة جنهات !

وأحس كأنما أصابه دوار . وسار وهو مهموم يفكر في ذلك البلاء ، حتى إذا بلغ المحل دخل مكتبه وأطرق .. كان مكتبا متواضعا ، لا يتفق مع مركز الرجل التجارى ، والأرباح الوفيرة التى يجنيها . رصت أمامه أرائك من خشب ، وعلق على الحائط إطار كتب فيه « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » .. ولا شئ غير المكتب والارائك والآية الكريمة وخزانة ضخمة ابتلعت جزءا كبيرا من المكان ..

ومر الوقت وهو قلق .. ثم أقبل مفتش الصحة ، فقابله بالترحاب ، وما إن جلس حتى قال له متطلق الوجه :

— عندى لك هدية طيبة ..

فانفجرت أسارير المفتش ، واتمعت عيناه في جشع .. وانتظر أن يقدم الرجل هديته القيمة . ولكن الرجل قال :

— إنها عندى حتى تنتهى من التفتيش على المخازن .

فقام المفتش خفيفا ، وذهب إلى المخازن وهو يفكر في الهدية الغالية التى أعدها له أغنى رجل في الحى ..

ومر بالمخازن سريعا ، ثم عاد وفى وجهه لفة ، وجلس ينتظر الهدية ، ولكن الرجل قال له :

— كيف رأيت مخازننا ؟

— استوفت جميع الشروط المطلوبة .

— أتأمر بإعادة فتحها ؟

— وهل في ذلك شك ؟

وأخرج المفتش ورقة ، وراح يكتب الإذن بفتح المخازن في سرعة عجيبة .. ثم دفع بالإذن إلى الرجل ، ودس الرجل الإذن في جيبه ، ثم مد يده وفتح درج مكتبه ، وأخرج منه الهدية المترقة ، وأعطائها المفتش بوجه متطلق ، فأكفهر وجه المفتش ، وبان عليه الحق والضيق . كانت الهدية (برتقالة يافاوية) من الحجم الكبير .. !

وجلس أمام الدار يرقب الغادين والرائحين .. وكانت هذه جلسته المفضلة .. فما كانت تكلفه شيئا . وأقبل ابنه .. فلما لمح أباه اضطرب وانداحت الرهبة في جوفه ، كان يرجو أن يصل إلى البيت دون أن يراه أبوه . فقد اشترى دجاجة رومية تمنى أن يتعاون هو وأهله على إخفائها ، ليأكلوها بعيدا عن أنظار أبيه حتى لا يقرعهم على تبذيرهم الذي سي جلب الخراب . ووقف ابنه حائرا . وفكر في أن يتركها في محل من المحال التجارية القريبة من البيت ، ولكنه نحجل من أن يفطن صاحب المحل إلى السبب الذي دعاه إلى تركها عنده ، فعاد التفكير . فاهتدى إلى فكرة قاسية ، ولكنها أرحم مما ينتظره من عذاب ..

أمسك بساق الدجاجة وكسرها .. ثم تقدم من أبيه وهو خائف ، فلما رأى الرجل الدجاجة قال في استنكار :

— ما هذا الذي بيدك ؟

فقال ابنه في صوت مضطرب :

— دجاجة رومية ..

— دجاجة ؟! ومن أين جمعت بها .. ؟

(صدى السنين)

— لما رآها البائع مكسورة الساق باعها لى بخمسة عشر قرشا ..

— خمسة عشر قرشا ! هذا تبذير ..

— والله يا أبى لو لم أعتقد أنها صفقة طيبة ما جئت بها .

— هذا خراب ..

وانسل الولد فى خفة ، وبقي الرجل يمصص شفثيه أسفا على أنه أنجب ولدا لا يعرف قيمة المال .

وجاء رجل وحياء وقال له : إنه عاين مسكنا نحاليا فى منزل من منازلہ ..
وإنه يريد أن يستأجره ، فدعاه إلى المكتب ، وسارا صامتين . وصعدا بضع درجات ، ثم دلفا إلى حجرة بعثر فيها أثاث قديم ، وقد جلس خلف مكتب عظيم تكدست فوقه الأوراق . محمد أفندى بجلبابه المخطط وطربوشه القديم ، فلما رأى القادمين انتصب واقفا ، فقال له السيد :

— هات عقد إيجار ..

والتفت إلى المستأجر وقال :

— هل استلمت الشقة من البواب ؟

— نعم ..

— تسلمت مشابك الشاييك والأبواب ؟

— نعم .. خمسون مشبكا .

فقال السيد مصححا :

— اثنان وخمسون مشبكا .

فقال الرجل موافقا :

— اثنان وخمسون مشبكا !

— وتسلمت مقابض الأبواب والمزاليج والأقفال وألواح الزجاج ؟

— تسلمت كل شيء ..

وتناول السيد ورقة وكتب فيها بعض أرقام ، ثم قال :

— هات خمسة جنيهات وثلاثين قرشا .

— الإيجار خمسة جنيهات فقط !

— وثلاثون قرشا تدفع عند كتابة العقد ..

— لماذا ؟

— ثلاثة قروش تمغة ، وسبعة قروش ثمن العقد وكتابته .. وعشرون قرشا

حلاوة إتمام العقد ..

فاتسعت حدقتا الرجل .. ولم ينبس بكلمة .. ودفع المبلغ ، فلما اطمأن

السيد إلى أن النقود باتت في جيبه ، التفت إلى محمد أفندى وقال :

— الآن اكتب العقد للأستاذ .

وقام يتمشى ، فلما بلغ رأس السلم لمح غم محمود يتناول قرشا من صبي

صغير ، فاتسعت عيناه ، وصاح في لهفة :

— عم محمود .. عم محمود .

فهوول الرجل إليه ، وراح يصعد في الدرج مكروب الأنفاس ، فلما

أصبح أمامه قال له :

— ما هذا الذى فى يدك !

فقال عم محمود فى صوت خافت :

— قرش صاغ .

— ولماذا أخذته منه ؟

— أراد أن يصطاد سمكا ، فطلب منى بعض الدود يستعمله طعاما

للأسماك ، فلما أعطيته الدود أعطانى القرش .

فقطب الرجل جبينه ، وقال في غضب :

— وهل يأكل الدود من أرض أبيك ، هات القرش .

وأخذ القرش ، ووضع في جيبه وهو يغمغم ويهز رأسه حسرة :

— خربت الذم .

وتلفت فلمح الخادم وهي تهم بمغادرة الدار وتحت إبطها لفيفة ، فناداها ،

فالتفت ، فأشار لها بيده أن تعالى .. فانطلقت إليه . فمد يده إلى اللفيفة

وفضها ، فوجد بها رغيفين .. فثار وسب الفتاة ، واتهما بالسرقة .. فقالت

تنفى عن نفسها :

— والله إن سيدتى أعطتني إياها ..

— أعطتك إياها ؟ وكيف .. ؟ ولماذا ؟ تعالى ..

وسار وهو يسوق الفتاة أمامه .. وراح يصعد في الدرج وفي صدره نار ،

حتى إذا بلغ زوجه قال :

— هل أعطيتها هذين ؟

— نعم ..

— ولماذا ..

— ستبيت الليلة عند أمها ، ولن تتعشى عندنا ، فأعطيتها هذين الرغيفين

لتتعشى بهما .

— هذا تبذير . هذا بطر . إنك ترفسين النعمة بقدمك .

وخطر له خاطر أعجبه ، فقال لزوجته :

— آه .. إننا نستطيع أن نستغنى عن رغيفين كل يوم إذا ثبت لي ذلك ..

سأخاطب الخبز لينقص من الراتب رغيفين !

واتجه إلى التليفون ، وفتح القفل الصغير الذى يخلق به ، ثم أدار القرص مرة

ومرتين وثلاثا .. وتذكر أن هذه المكالمة ستكونه قرشا ، وأن المسافة بين البيت والخبز يسيرة يقطعها على قدميه في عشر دقائق . فوضع السماعة ، وأغلق التليفون ، ثم غادر الدار ، وذهب إلى الخبز يغذ السير ، ليخفف من الراتب اليومي رغيين .

ووافي ميعاد سفره إلى القرية وحده .. كان يمضي بها أسبوعا يتفقد شئونها . وكان ذلك الأسبوع أسعد الأيام في حياة أهله .. كانوا يمضون يومهم في المطبخ يعملون ما لذ وطاب ، ويأكلون في نهم ، ليعوضوا ما فاتهم طوال العام .

وسافر .. وما إن غادر الدار حتى وفدت إليها خيرات الله . ومر يومان سعيدان .. وفي اليوم الثالث دعا ابنه أصدقاءه إلى وليمة فاخرة ، ومدت المائدة ، ورصت فوقها الديكة الرومية والأوز والحمام .. وعشرات الأصناف . وتحلق أصحاب حول الطعام ، وراحوا يأكلون ويتضاحكون ..

وسمع طرق على الباب .. فأسرعت الخادم وفتحته .. فإذا بسيدتها قد عاد قبل الأوان .. وصكت أذنيه ضحكات الشبان ، فدخل وهو يعجب ، فما كان يزور أوزير . وما أن بلغ مصدر الضحكات ورأى المائدة العامرة ، حتى أحس مطارق هائلة تهوى على رأسه .. ونظر إلى الأيدي التي تمتد إلى الطيبات ، فخيّل إليه أنها تمتد إلى قلبه فتنهشه . وأحس الأرض تميد به .. وفطنوا إلى دخوله ، فدعوه إلى الطعام .. فلم يحرك ساكنا ، وظل ينظر إلى السكاكين وهي تمزق لحوم الطير ، فيشعر بها تمزق أحشائه .. وسار وهو يحس يدا قوية تضغط على عنقه ، وتكتم أنفاسه ..

وقعد على حافة سريريه وقد فار مرجل غضبه ، وتدفق الدم حارا في عروقه ..

وانتهت الوليمة .. وغادر الضيوف الدار . وبقي الابن مهموما وقد امتنع لونه ، وانتابه القلق . وأخذت الأم تغدو وتروح حيرى ، لا تدري ما تقول لزوجها ، الذى عاد على غير ميعاد . وانقضت ساعة كهيبة رهيبه ، ولم يرتفع صوت الرجل نائرا صاحبا لما حل به من خراب . ومرت ساعة أخرى قاسية شديدة . ولما كان نزول البلاء أهون من انتظاره تقدمت الزوجة إلى غرفة زوجها وقلبا في صدرها يدوى دويا .

ودنت من سريريه ، فألفته مكبا على وجهه . واقتربت منه ، فألفته في غيبوبة يغط غطيظا .. فنادته فلم يرد عليها .. فهزته فلم يحرك ساكنا . فأسرعت وجاءت بقله ماء ، ورشت الماء على وجهه .. واستدعت ابنها وحمله بينهما وأجلساه .. ففتح عينيه ، وحاول أن يتكلم ، ولكنه لم يستطع أن ينبس بكلمة ، فقد كف لسانه عن الدوران في حلقه ، وأراد أن يرفع ذراعه أو يحرك ساقه فلم يقدر . فقد مات نصفه الأيمن .. !

ومدداه في فراشه ، وبقي إلى جواره صامتين ، لا يجروا أحدهما على أن يشير باستدعاء الطبيب حتى لا يغضبه فما كان الأطباء يعرفون طريقهم إلى بيته إلا في حالة واحدة . حالة الوفاة .. وقعدا مطرقين وهو ممدود في سريريه ، وسمع صوت ماء يتدفق من صنوبر مفتوح .. فحرك رأسه في ضيق .. وظل صوت الماء المنساب يصبك أذنيه فيضنيه ، واحتل فكره طيف عقرب عداد الماء وهو يجرى مسجلا استهلاك المياه وزيادة استحقاق الشركة .. فرفع ذراعه التى كان يستطيع أن يرفعها . وجعل يحرك أصابعه في ثورة ، تحريكاً يفهم منه أن أغلقوا الصنوبر ، ففطن ابنه إلى ما يريد .. فهرع إلى الصنوبر وأغلقه .

وتقضت الليلة .. وطلع النهار وهو على حاله لا يستطيع أن يتكلم أو يحرك ذراعه أو ساقه ، فلم يجد ابنه مفرا من استدعاء الطبيب ، فذهب إلى التليفون ، وطلب طبيبا من أطباء الأعصاب المعروفين ، ومر الوقت وهو هادئ ساكن ، ولكن ما إن أقبل الطبيب وفحص عنه ، وقدم له ابنه جنينين ، ولحى وهو يدسهما فى جيبه ، حتى قطب جيبه ، وصعد الدم إلى وجهه ، وراح يتدفق إلى رأسه ، ولو أن الطبيب فحص عنه بعد ذلك لوجد أن حالته زادت سوءا .

وجيء بالدواء ، ورص على نضد قريب منه . فلما فتح عينيه ، ووقعا على العلب والزجاجات المصفوفة ، هاله ما أنفق فيها من مال ، فارتد وجهه ، وأشاح به عن المنظر البغيض . ولو أرادوا له الشفاء حقا لكسدوا له على النضد أكوام الذهب البراق .

ومر اليوم ، وتصيرت الليلة وحالته تزداد سوءا . فلما أشرقت شمس اليوم التالى استدعى ابنه طبيبين كبيرين ، وما انتبيا من عملهما حتى منحهما مبلغا كبيرا . ورأى الرجل فعلة ابنه الشنعاء ، فأحس كأن رأسه يتمزق ، وراح فى غيبوبة .

كان ذلك الإنفاق المتواصل الذى يقع تحت عينيه ضربات متلاحقة على رأسه ، لم يحتملها . فما أقبل اليوم الثالث حتى فاضت روحه من جسمه . وعلى الرغم مما قاساه فى سكرات الموت كان خروج الروح أيسر من خروج قرش من جيبه .

وأقام ابنه سرادقا كبيرا ، وأخذ ينفق عن سعة ، وهبط النعش من

الدار ، وجيء يعجل سمين ، ليذبح تحت النعش .
وما إن سال دمه على الأرض حتى ارتجف النعش المحمول على أعناق
الرجال رجفة شديدة . فأيقن الذين يعرفون المرحوم أنه يتحمل في نعشه ،
آسفا على ماله الذي أصبح يراق بغير حساب !

مولد أديب

قام من نومه يتمطى ويتشاءب ، ونظر إلى زوجه ، فألفاها في فراشها
ساهرة ، وقد شخصت ببصرها إلى سقف الغرفة ، فقال لها في سخرية :
— ما الذى يشغل بك ؟ إطعام الأولاد ؟

فقالت فى أسى :

— أختى ستطلق ..

— ومتى جاعك هذا النبأ ؟ ! كنا نتسامر قبل أن ننام حتى منتصف الليل ،

فلم تذكرى لى شيئا !

— رأيت ذلك فى منامى ..

— وماذا رأيت ؟

— رأيت أختى وزوجها غاضبين ، وقد ولى كل منهما الآخر ظهره .

ورفت على شفتيه ابتسامة هازئة وقال « آه » ممطوطة ، دلالة على الزرابة

والاستخفاف ، ثم غادر فراشه ، وراح يتأهب للانطلاق إلى عمله .

وانقضت ليال وأيام ، وعاد إلى البيت بعد انتهاء عمله فى الديوان ، فوجد

زوجه مطرقة ، وقد ارتسم على وجهها أمارات الأسى والحزن ، فقال لها وهو

يتسم :

— كفى الله الشر ، ما هذا العبوس ؟ لعل الطيبخ احترق ؟

فقالت له فى اضطراب :

- تشاجرت أختى وزوجها ، وعادت إلى بيت أنى غضبى .
— وهل فى ذلك من جديد ، ما أكثر خصامهما ، وما أسرع أن يتصالحا !
— ولكن أنى يصر على تطليقها هذه المرة .
— هذا ما يقوله أبوك فى كل مرة .. قومى وجهزى لنا طعامنا .
وترادفت الأيام ، وتم الطلاق ، وراح يفكر فى حلم زوجه ، فحيره
فكره ، ولم يهتد إلى شىء ، فغمغم ليربح نفسه .
— مجرد مصادفة .
ومرت الأيام هينة رتيبة ، وفى صباح يوم من الأيام استيقظ من نومه ،
فوجد زوجه أمام المرأة تمشط شعرها ، فقال وهو يتسم :
— صباح النور على البلور .
فاخر ثغرها عن اللؤلؤ النضيد ، ولكن سرعان ما ذابت الابتسامة على
شفتيها ، وقطبت جبينها ، فقال لها :
— ما الذى يكسرك ؟
— رؤيا رأيتها .
— وماذا رأيت ..
— سرادقا هائلا نصب أمام بيت خالتك ، أقيمت فيه الزينات . وخفقت
الرايات ، وانتثرت الثريات .
فقال وقد أشرق وجهه بابتسامة :
— لعل ابن خالتى سيتزوج مرة أخرى ، أو لعل خالتى اشتاقت إلى
الزواج !
— لا أحسب أن هذه الزينات بشير فرح .
— فعلام تدل إذن ؟

— إنها نذير حزن عميق .

فقال بعد أن زفر في استخفاف :

— يا فتاح يا عليم .

وغادر الغرفة وهو يعجب من زوجه التي تتعلق بأوهام . ولكن ما انتقضى الشهر حتى كان ابن خالته قدمات ، وأقيم ذلك السرايق الذي رآته زوجه في المنام .

وترادفت رؤاها ، وتحققت كقلق الصبح ، فصار يؤمن بأحلامها ويهاها ، وإن أبدى الزراية والاستخفاف .

وفي ذات يوم استيقظ من نومه وزوجه تجفف دموعها . فأوجس خيفة ، وأحس قلبه يغوص في قدميه ، وهم أن يسألها عما أسال عبراتها ولكنه أحجم رهبة ، واستولى عليه قلق واضطراب ، ولما كان الموت أهون من انتظاره ، فإنه لم يستطع أن يعد رغبة الاستفسار التي تولدت في نفسه ، فقال لها في صوت خافت مرتجف :

— ما الذي أبكاك ؟

— لا شيء .

فزاد إنكارها في قلقه ، فقال في اهتمام :

— ماذا تخفين عني ؟

— رؤيا أفزعتنى .

— وماذا رأيت ؟

— رأيت أن ضرسى قد خلع .

فقال في لهفة :

— وما تأويل ذلك ؟

— شر مستطير .

— مثل ماذا ؟

— لا أستطيع أن أقول .

فقال في إصرار وعناد :

— قولى .. قولى .

فخفضت رأسها وقالت في نبرات حزينة :

— هذا نذير بموت أحد أحبائى المقربين .

وترقق الدمع فى عينيها ، فخيل إليه أنها تنعى إليه نفسه ، فسارتجف وتفككت مفاصله ، وسمع صوتا خافتا ينبعث من أغوار نفسه ، يهمس فى فحيح كفحيح الأفعى : « انتهيت ورحم القضاء ، لم يبق لك على الأرض إلا أيام » . فانقبض صدره ، وراح قلبه ينزف إحساسات الحزن ، ونزل به هم ثقيل . وغادر البيت وهو حزين ، وانطلق شارد البصر ، لا يرى ما حوله ، فقد كان مشغولا بنفسه ، يرى ما ينتظره من أحداث بعين خياله ، إنه سيموت وما ترك لأهله ما يشتركون به أكفانه ، إنه يتفق مرتبه على بيته ، وما ادخر منه شيئا ، ومن أين يدخر وقد كان يكفيه بشق النفس ، كان يحسب أن العمر سيمتد به حتى يزوج ابنته الصغيرة ، ويسلح ولديه بالعلم ليخوضا معركة الحياة فى أمان . وما خطر له على قلب أنه سيموت فى شرخ الشباب ، مخلفا وراءه يتامى يحيون حياة ذل وكفاف .

وأحس غصة فى حلقه ، وزاد أساه ، ولج فى التصورات ، فرأى نفسه مسجى فى فراشه ، وأولاده يكون ويصرخون مفزوعين ، وزوجه تذرف الدمع المتهون فى يأس مرير ، فأحس سكينتا تقطع قلبه ، ونارا تندلع فى جوفه ، فأطرق فى أسى عميق .



وخطر له في زحمة الأفكار أن يحسب المكافأة التي ستصرف لزوجته وأولاده بعد موته ، عن الخمسة عشر عاما التي قضاها في الحكومة ، فألفاها لا تكاد تكفيهم بضعة أشهر . وطفى حزنه . وزاد أساه لما رأى بعين خياله أهله وقد جاعوا بعد أن بلغهم النبأ الفاجع ، وقرروا تشييع جثمانه في جنازة فخمة ، وإقامة سرادق كبير يليق بالأسرة ، حتى إذا انتهت ليلة المأتم عادوا إلى دورهم ، وتركوا الدائنين يقاسمون زوجته وأولاده مكافأته الضئيلة ، التي لا تسمن ولا تغنى من جوع .

وبلغ الديوان وهو فريسة لأفكاره السود ، وانطلق إلى قسم الحسابات ، والتفت إلى زميل له ، وقال في صوت جاد :

— لي عندك خدمة .

فاعتدل الرجل وقال في اهتمام .

— خيراً ؟

— أن تسارع إلى صرف نفقات جنازتي إذا جاءك خبري .
وحسب الحاضرون أنه يمزح فضحكوا ، وقال كاتب الحسابات وهو يبتسم :

— سأبعث إليك بأكفانك مع « مخصوص » .

وجلس إلى مكتبه وهو صامت ساهم ، وراحت الخواطر تتزاحم في رأسه ، والصور تتلاحق في مخيلته ، وأرهفت حواسه واستيقظت مشاعره ، فأحس قلبه يدمى أسى وكرها ، وشعر برغبة في البكاء ، ولكنه خجل من أن يبكي أمام زملائه ، فحبس دموعه ، وراح يجتر آلامه في صمت بغيض .

ووافي ميعاد الانصراف ، فذهب إلى بيته وهو قلق ، وما دخل مسكنه حتى راح يقلب ناظره في شروء فما كان يدرى متى يرى ثانية مسكنه الحبيب .

وأقبل إليه ابنه الصغير مسرورا ، فحمله وضمه إلى صدره في وله ، وأخذ يلثمه في وجد ، كأتما يقبله قبلات الوداع الأخيرة . وجاءت زوجته ، فحاول أن يبدو أمامها هادئا ، فاعتصب ابتسامة كلفته جهدا ، ثم ذهبت تجهز له الغداء ، فراح ينظر إليها من خلل دموعه ، وقد أحس يدا قوية تجهز على قلبه ، وتفتت كبده .

وخطر له أن زوجته وأبناءه سيغادرون هذا المسكن ، ليسكنوا غرفة متواضعة ، يجود عليهم بإيجارها بعض أهله ، فأحس رأسه يدور ، وأمن فكره في تعذيبه ، فرأى أولاده في ثياب خلق ، يذهبون في البكور إلى مصنع من المصانع ، يعملون من مطلع الفجر حتى غروب الشمس لقاء قروش يمسون بها رمقهم ، فشعر بإحساسات الحزن تكتم أنفاسه وتضنيه .

وأفاق من تصوراته على صوت زوجته وهي تناديه ليتناول غداءه ، فنهض وهو يحمل ابنه ، وذهب إلى السفرة ، وجلس وهو حاضر بجسمه غائب بفكره ، وما إن ازدرد لقيمات حتى عافت نفسه الطعام ، كان مشغولا بالخواطر الحزينة التي كانت تفد إلى رأسه توافد الموج ، وتغز روحه وخزا قاسيا يعلده ويضنيه .

وذهب إلى فراشه ، وتمدد فيه ليسترخ ، ولكن أنى له الراحة وأفكاره تهجم عليه في إصرار وعناد ، وشبح الفناء الكريه يلزمه في غدوه ورواحه ، يزلزل الأرض تحت قدميه . ويجرعه الموت غصة بعد غصة او هتف به هاتف أن يذهب إلى أمه يودعها ، فغادر فراشه ، وارتدى ثيابه ، وخرج إلى الطريق وأدار عينيه في الرجال الجالسين أمام حوائثهم القرية من داره ، ثم غمغم في حسرة : « إن هي إلا أيام حتى تشركوا في تشيع جثائي الأخير » . ودخل على أمه ، فوجد لها قاعدة في ثيابها البيض على سبجادة الصلاة ،

ترصد أذان العصر . كانت هادئة هدوء الملائكة ، وكان وجهها صافيا صفاء
النفس الراضية ، فسلم عليها ، وجعل يصغى إلى حديثها العذب الخنون ،
وكاد حديثها يمسح الحزن الذي ران على صدره ، ولكن قفزت إلى رأسه
صورتها وهي واقفة عند جثمانه ، في ثياب سود تبكى أحر البكاء ، فثارت
مشاعر الحزن في نفسه . وانعكست على وجهه ، فارتد واكفهر ، وغض من
بصره ، حتى لا تفصح عيناه عن ألمه الدفين .

وامحت من تخيلته صورتها وهي عند جسده المسجى ، لتحل مكانها
صورتها وهي واقفة على قبره تقاسى نار الشكل الأليم ، فهاجت شجونه ،
وأحس أن عبراته ستخونه ، فنهض مستأذنا ، وخرج من عندها كعاصفة
ناثرة ، ليذرف دمه في الطريق .

وسار وهو مهوم ، ولم يرجمه فكره ، بل أوحى إليه أن ينطلق إلى
المدافن ، ليزور قبره ، ويقرأ الفاتحة على روح نفسه . فراح يضرب في مسالك
مهجورة ، وهو غارق في أشجانه . وتلفت حوله وإذا بهمس ينبعث من جوفه
يتمم « اليوم تسير في هذا الطريق على قدميك ، وعما قريب ستقطعه محمولا
على أعناق الرجال ، لتغيب في التراب ، وتتساوى أنت ومن غادر الدنيا من
آلاف السنين » .

ولاح له عن بعد مدافنهم ، فأحس قلبه يهبط في فراغ صدره ، وراح يدنو
من المقابر وهو يحس رهبة ما كان يحسها من قبل ، اتسعت حدقاته ، وجعل
صدره يعلو وينخفض في تنابع ، فقد كان يلتقط أنفاسه في كرب وضيق ،
وبلغ المدفن ، فألقى بابه موصدا ، فذهب إلى الشباك ، ومد يديه ، وقبض
على أعمدته الحديدية ، وأسند إليها رأسه ، وهتف في صوت أجش صك أذنيه
موحشا غريبا :

— سلام إليك يا أمي من ابنك النازل إلى جوارك عن قريب .
ولم يستطع أن يكبت مشاعره ، فانفجر باكيا ، حتى كادت كبده
تتصدع من البكاء ، أرخى البكاء ، أرخى الليل ستائرہ السود ، وصفرت
الرياح في الفضاء العريض ، فبلغت أذنيه كالعويل ، فخیل إليه أن الكون
يكيه ، فسار مطرق الرأس ، منقبض النفس ، يحجر رجله في يأس مرير .
ومس أذنيه صوت المؤذن وهو يدعو الناس إلى الصلاة ، فرفع رأسه إلى
السماء ، وراح يتهل في خشوع أن يغفر له ، وأن ينزله منازل الأبرار
والصالحين ، وأحس في تلك اللحظة أنه أقرب ما يكون إلى ملكوت السماء ،
فلج في الدعاء ، وقد سالت عبراته على خديه ، فلطفت من وقدة النار التي
كانت تلتهم جوفه ، وسرى في صدره أمن لطيف .

ودخل داره ، وراح يداعب أولاده ، وهو يبدى لهم الغبطة والسرور ،
وإن كان يحس خنجرا يمزق قلبه تمزيقا ، وظل يلاعهم حتى غلبهم النوم
فناموا ، وخلا بزوجه ، وخطر له أن يوصيها بهم خيرا ، فما كان ذلك
بتدبيره ، كان يأمل أن يبقى بينهم ليسعدهم ، ويحقق أحلامهم ، ولكن الموت
جاءه وقوض آمالهم ، وفرق بينه وبينهم ، وأرغمه على أن يتركهم لمصيرهم
المجهول . ولكنه لم يجد في نفسه الجرأة التي تمكنه من التحدث في ذلك
الموضوع الدقيق ، فذهب إلى فراشه ، واندس فيه .

وراحت الذكريات ، تنهال على رأسه ، فرأى نفسه صبيا يلعب مع
الصبيان ، وتلميذا يساق إلى مدرسة ، كما يساق المرء إلى سجن بغض ،
وطالبا تفتحت أمامه الآمال ، وخطيبا ملأ صدره الحب ، وزوجا سعيدا ،
وأبا كريما ينكر نفسه ليسعد أهله . وراح يجتر حوادث الأيام في وضوح ،
وقفزت إلى ذهنه ذكريات حسبها انداحت في لجة النسيان ، وأخذت حياته

(صدى السنين)

تمر أمام ناظره كشريط سينائي ، فأفعم بالمشاعر والإحساسات ، وهاله أن حياته وذكرياته ستندثر ، وتمضى كأمس الدابر لا يحفل بها إنسان ، فخطر له أن يسجلها قبل أن تتمحى الفقاعة الصغيرة في المحيط ، واحتل ذلك الخاطر تفكيره . وأيده أنه يستطيع أن يسطر لزوجه ما يحسه من مشاعر وخلجات ، وأن ييشها ما عجز عن أن يكشفها به من لحظات ، دون أن يضطرب أو يخشى أن تعقل لسانه قسوة المناجاة ، إنه يستطيع أن يعتذر لأبنائه الصغار عن ذلك الفراق الذي قوض مستقبلهم ، حتى إذا كبروا عرفوا أنه ما كان له يد فيما وصلوا إليه من مآل .

وألقي نفسه عبداً لذلك الخاطر الذي جعل يلح عليه ، ملأت أقطار نفسه رغبة تسجيل حياته ، فنهض وذهب إلى مكتبه ، وأدار الزر الكهربائي ، وجلس وراح يسطر على القرطاس حياته ، في عناية وتوفيق ، وخيل إليه أن عينيه تهتكان حجب الماضي ، وتبصران كل شيء في جلاء ووضوح ، فها هو ذا البيت الذي نشأ فيه من عشرات السنين ماثلاً أمام عينيه زانح بالحياة ، وها هي ذى أمه وها هو ذا أبوه ، وها هم أولاء رفقاء الصبا ، وهنا الزقاق الذي مرح فيه ، واسترسل في الكتابة ، فارتفع نبضه ، وتدفقت إحساساته فوارة دافقة ، وراح قلبه يدق في قوة ، واحتشدت في صدره المشاعر الزاخرة ، وتقضت الساعات وهو يكتب في حماسة ، كأنما يخشى أن يتخطفه الموت قبل أن ينتهي مما هو فيه .

وفي هجعة الليل ، دقت ساعة الحائط النصف بعد الثانية ، وهو غارق في عمله ، وأحس كأن مطارق تدق رأسه ، فأسنده إلى ذراعيه ، فراح في سبات ، وما تسلل أول خيط من خيوط الفجر إلى غرفته حتى هب من نومه ، واستأنف ما كان فيه .

ووافى ميعاد ذهابه إلى الديوان ، فخرج وهو مشغول بقصة حياته ،
ومرت الساعات وهي في تفكير عميق ، حتى إذا ما انتهى من عمله
الحكومي ، عاد إلى بيته مسرعا ، ودخل فراشه ليسترخ قليلا ، ولكن لم تهدأ
له خالجة ، ولم تغمض له عين ، كانت الأفكار تتزاحم في رأسه ، والمشاعر
تضغط على صدره ، وتلح عليه في إصرار وعناد ، فلم يجد مفرا من مغادرة
فراشه ، والدخول إلى مكتبه ، ليفرج عن أفكاره ، وينفس عن مشاعره التي
كانت تضنيه .

وكرت الأيام وهو مسترسل في الكتابة ، وفي يوم جاءته زوجته وقالت
له :

— إني ذاهبة لأعود أُمي .

— ماذا بها ؟

— جاءتني خادمتها ، وأنبأتني أنها مريضة .

فقال لها وهو يحدق في الورق المنشور أمامه :

— تفضلي .

فقالت له في تحريض :

— هل تأتي معي ؟

وهم بأن يعتذر ، ولكنه لم يشأ أن يغضبها قبل أن يموت ، فقال لها :

— وهل في ذلك شك .

وراح يرتدى ملابسه ، وخطر له خاطر ، فغمغم : يا للعجب ! ميت

يعود مريضا !

وانطلقا حتى إذا دخلا على المريضة ألقيا حجرتها تغص بالزوار ، فاتجهتا

إليها ، وسلمتا عليها ، ثم قعدا مع القاعدين . وأدار عينيه في المكان ، فرأى

الحاضرين مطرقين ، فسمع همسا ينبعث من أعماقه يهمس : « لو كانوا يعلمون من أمرى ما أعلم لتركوها والتفوا حولى أنا ، فأنى سأفارقهم إلى الأبد عما قريب ، ليودعوني الوداع الأخير » .

وراحت عجلة الزمن تدور وهو غارق فى الكتابة ، وفى ليلة من الليالى نام مبكرا ليريح ذهنه المكثود ، وراح فى سبات عميق ، وسمع وهو نائم طنيناً ، فلم يحفل به ، حسب أنه يحلم ، ثم صك أذنيه بكاء وشهيق ، فهب من نومه مرعوباً مفزوعاً ، ووضع يده على قلبه ، ليرى ألا يزال ينبض بالحياة .

وتلفت خافق القلب ، فرأى زوجه تنشج بالبكاء . فقال لها فى لهفة :
— ماذا جرى ؟

فقالت فى صوت تخنقه العبرات :
— أمى .

— ماذا دهاها ؟
— ماتت .

فأطرق ، وأخذت إحساسات الرهبة والخوف تنقشع عن صدره وانبلجت الحقيقة ناصعة أمام عينيه ، لقد تحقق حلم زوجه ، وذهبت أمها ، ولم يعد هناك ما يخافه أو يخشاه ، فأحس سرورا يغمره ، سرور من أطلق سراحه بعد أن حكم عليه بالموت .

وقبرت حماته ، وعاد إلى داره وهو مغمم بالغبطة ، ودخل مكتبه ، وراح يقرأ فى هدوء ما كتبه من قصة حياته . فعجب . واشتد عجبه ، إنه لم يسبق له أن كتب شيئا ، وما كان يعرف أنه قادر على أن يكتب ذلك الذى يقرؤه الساعة مأخوذا مشغوقا ، كانت الصفحات التى يكتبها زائخة بالحياة ، إنها ومضات فكر ، ونبضات قلب ، وذوب نفس .

ما كان يعرف أنه أديب ، إن ذلك الحلم الرهيب حرك مشاعره
وإحساساته ، وفجر في صدره ينبوع الفن ، وأضاء في نفسه الشعلة
المقدسة ، وسره أنه وجد نفسه أخيرا ، فاستأنف كتابة قصة حياته وهو
نشوان يحس كأنما خلق من جديد .

امراة أعمسال

انطلق يترفق في سيره حتى بلغ نهاية ترام الجيزة ، ففكر في أن يقفل عائدا إلى بيته ، فقد تجاوزت الساعة التاسعة مساء ، ولكن الليلة كانت من ليالي الصيف النادرة التي يستحب السير فيها ، فالنسيم يهب رقيقا ينعش الأفئدة ، وضوء القمر الساحر فرش الأرض ببساط فضي أخاذ ، يستولى على المشاعر ، والهدوء الشامل يريح الأعصاب المكدودة ، فأغراه كل هذا أن يستمر في سيره ، فلم يشعر إلا وهو في أول طريق الهرم ، يرنو إلى الأرض الخضراء ، فتشيع في صدره نشوة خفيفة ، والسيارات الفخمة التي تمر به ، فكان يلتفت إليها لفتة ثم يستأنف سيره .

كان شابا لم يحتفل بعد بعيد ميلاده الثلاثين ، طويل القامة ، ممتلئ الجسم قليلا ، ناصع بياض الوجه ، له عيناه تمتازان ببريق أخاذ ولولا امتلاء جسمه ، واتساع فمه ، لكان من أبطال الروايات الرومانتيكية ، وابتعدت السيارات عنه ، فساد الطريق سكون .. لم يكن يعكره إلا نقيق الضفادع وحفيف الشجر .

وبلغ سمعه صوت سيارة مقبلة ، فانحرف إلى الطوار ، ليفسح لها الطريق ولكنه أحس بها تتمهل ، فالتفت خلفه ، فألقى سيارة صغيرة فخمة تدنو منه ، حتى إذا ما صارت بجواره فتح بابها ، فتطلع داخلها ، فرأى خلف عجلة القيادة فتاة مليحة حلوة ، فمخفق قلبه اضطرابا ، واستولت عليه رهبة

وارتباك ، وتسمر في مكانه لا يدري ما يفعل ، وفطنت الفتاة إلى ارتبائه ،
فأشرق وجهها بابتسامة مطمئنة وقالت :
— تفضل .

وبقى في اضطرابه ، فلم تهدأ نفسه بعد ، فقد كانت مفاجأة مباغتة ما كان
يتوقعها أو يحلم بها ، ولكنه لم أطراف شجاعته التي تناثرت ، واغتصب
ابتسامة بدت باهتة لا مدلول لها ، ثم تقدم إلى السيارة وما مد رجله فيها حتى
سمعها تهمس :

— نزهة بريئة .

وما أن أغلق باب السيارة خلفه ، حتى انطلقت في طريقها ، وظل مدة لا
يجد لسانه ، ولا يدري ما يقول . وحدها بنظرة ، فأذهله حسنها ، وزاد في
اضطرابه ، كانت جميلة رائعة الحسن ، وقد تفتنت يد ماهرة في إبراز ذلك
الجمال ، فالظلال الخفيفة التي ظللت بها الجفون زادت في سحر العيون ،
والأحمر الذي وزع في صفحة الوجه في دقة ، جعله قطعة رائعة من القطع
الفنية الممتازة ، وظل متقبضا في جلسته ، فرنت إليه بطرف عينيها ، وقالت
في سخرية خفيفة :

— خائف ؟

فقال في صوت متهدج يبدو فيه الاضطراب :

— من جمالك .

فابتسمت وقالت :

— اقرب وتكلم بحرية .

فاقترب منها قليلا وقد هدأ روعه بعض الشيء ، ووجد لسانه فقال :

— كما يتكلم الرجل إلى الرجل ؟

— لا . لا أقبل هذا .

— ولم ؟

— لا أقبل أن أكون رجلا ، قفى الرجال تردد ، وأنا أمقت التردد ،
فلتكلّم بصراحة كما تتكلّم امرأة إلى امرأة !
فأحس عرقا باردا يتفصد من جبينه ، وخشى أن يفقد لسانه ثانيه ،
فقال :

— متزوجة ؟

— ولماذا هذه الإهانة ؟

— إهانة ؟

— أجل ، وهل ترانى خاملة ؟ ألا ترى فى صفات ممتازة لا تتوافر فى
زوجة ؟

فابتسم وقال فى خبث :

— بل فىك جميع الصفات التى تبعدك من أن تكونى زوجة .

— إني أدير أعمالا .

— أى نوع من الأعمال ؟

— توريدات .. عطاءات .. استيراد .. إصدار .. ما ببالك مبتعدا

هكذا ، اقترب .. يخيل إلى أن ذراعك عاطلة !

فأقرب منها ، ولف ذراعه حولها ، وقال :

— ولكن هذه أعمال صعبة تحتاج إلى خبرة ومؤهلات .

— ما أكثر إهانتك لى ، ألا تعجبك مؤهلاتى .

— تعجب الباشا ، ولكن كيف بدأت ؟

— حقا ما أصعب البداية ، قرأت عن عطاء فى مصلحة من المصالح ،

- فخطر لي أن أجرب حظي .
— تقصدين مؤهلاتك .
— من حسن حظي أن مؤهلاتي ممتازة ، تقدمت في العطاء .
— ولكن ليس لك الحق في التقدم فما عندك سجل تجارى .
— تريت فقد وجدت التاجر الذى يمنحنى اسمه وسجله .
— قريب عطف عليك ؟
— لا تذكر العطف من فضلك ، فإنى لا أحب أن يعطف على أحد ، كان رجلا قدر مؤهلاتى .
— ثم ماذا ؟
— كان لابد أن أזור رئيس اللجنة التى سببت فى العطاء ، فذهبت إليه وأنا مضطربة بعض الاضطراب ، كما أنت مضطرب الآن .
— ولكنى لست مضطربا .
— إن جميع أفعالك تدل على الاضطراب .. اقترب .. كان الرجل لطيفا .
فما فاتحته فى الموضوع حتى وعدنى أنه سيبدل كل ما فى وسعه ، ووعدنى اللقاء لتناقش فى الموضوع فكان رجلا خبيرا بالأعمال .
— ورسا عليك العطاء .
— ليس بهذه السهولة ، فقد شئت أن أضمن . موافقة بقية الأعضاء ، فمررت عليهم ، ورسا على العطاء ، ولكن قامت عقبة .
— إن مؤهلاتك الممتازة تدلل جميع العقبات .
— انتظر ، لم يكن معى المال الذى أشتري به الأصناف التى سأوردها .
— متون من التجار يعطونك البضاعة على الحساب ، إكراما لمؤهلاتك إلى أن تسدد لك الوزارة قيمة العطاء .

— لن أقص عليك شيئا بعد أن عرفت قيمة مؤهلاتي .

فابتسم وقال :

— بالله قولي .

— لم يبق ما أقوله ، فمؤهلاتي الممتازة فتحت في وجهي جميع الأبواب .
وكانت السيارة قد ارتقت منحدر الأهرام ، ووقفت عند السفح ،
ففتحت السيارة وهبطت ، فأسرع إليها ، ففحصته بنظرة سريعة وهو
متصب أمامها ، وقالت :

— أتقبل أن تعمل سكرتيرا لي ؟

— وما عملي ؟

— إن جميع معاملي مكتبي من الرجال ، فلو أنك عملت بمكتبي لأمكننا
أن نجذب بعض النساء .

— قبلت ، وما عنوان المكتب ؟

— تريث ، لن أذكر لك العنوان إلا بعد أن تجتاز الاختبار .

— متى الاختبار ؟

— أنت الآن في عز الامتحان .

وانطلقا وأقدامهما تسوخ في الرمال ، حتى بلغا مكانا منعزلا وجلسا ، ثم
مالتا إلى الخلف قليلا ، وقالت :

— اقترِب ، مم تخجل ؟ أمن القمر الذي يشرف علينا ، أم من الأربعين

قرنا التي تطل علينا من قمة الأهرام ؟

فضحك وقال :

— لقد أصبحت اثنين وأربعين .

وانقضى الوقت وهما لا يشعران ، وتذكر فجأة أنه تأخر عن العودة إلى

البيت ، فقال :

— تأخرنا كثيرا .

ف نظرت إليه في امتعاض وقالت :

— ألك أهل ؟

— وهل هناك من ليس له أهل ؟

— أقصد هل لك أهل يهمهم أمرك ؟

— لى أم وأخوات .

وهبت واقفة ، فنهض وسارا حتى إذا ما وصلا إلى السيارة هم بأن
يركب ، فالتفتت إليه وقالت :

— آسفة ، البطارية ضعيفة ، وتحتاج السيارة إلى دفعة ، ادفعها من
الخلف .

وركبت وأغلقت أبواب السيارة جيدا ، واستدار ليدفع السيارة من
الخلف ، وقبل أن يهم بدفعها سمع المحرك 'يدور' ، وإذا بالسيارة تنطلق
كالسهم ، لقد خدعته ، لتخلص منه ، فوقف يرقبها وقد امتلأ صدره غيظا
وحنقا ، وغابت عن عينيه ، فسار مطاطئ الرأس ، كسير الفؤاد ، يحس
إحساس الذل الذى يحسه من رسب فى الامتحان !

قصة حب

جلست مطرقاً أفكر ، فشغلت عما حولي بما تراحم في رأسي من مشاهد ، وعاونني على الاسترسال في تفكيري وجودي في عربة القطار وحدي ، وبقيت ساجداً في بحور الخيال ، وقد انتشرت في صدري إحساسات حزينة ، كان قلبي يتجاوب مع أفكارى ، فينقبض وينزف أسى ومرارة . وأحسست حركة بجوارى ، فرفعت رأسي ، فألفيت فتاة طويلة القامة ، متناسقة الجسم ، ناهدة الصدر ، رائعة الحسن ، شعرها كأسلاك الذهب ، ارتدت ثوباً أسود زاد في فتنها ، فرنوت إليها ، وهى تدرع المر ، وجسمها يثنى في روعة ، فأحسست الحزن الذى ران على صدري ينقشع كما ينقشع الظلام إذا بهره الضياء .

ابتعدت عنى خطوات ، واستدارت في رشاقة ، فتموج جسمها كما يتموج غصن رطيب داعبه الهواء ، وأقبل عليها خادماً القطار ، وتناول تذكرتها ، ثم سار أمامها ، وأشار إلى المقعد المقابل لمقعدى ، فانشرح صدري ، فستجلس أمامى أتملى من حسناتها سبع ساعات .

وضعت حقيبتها ثم قعدت ، وتحرك القطار مغادراً أمستردام ، وما انساب خلفاً المدينة خلفه ، حتى نهضت بقامتها الفارعة المتناسقة ، وأخذت تحاول أن تفتح الشباك ، فقلت لها بالفرنسية :
— إنه ثابت .

فقلت في صوت رقيق :

— متشكرة .

وقعدت وأنا أنظر إلى وجهها في إعجاب ، كانت عيناها غريتين . ونحيل
إلى أنهما في زرقة البحر ، ولكن سرعان ما تبدل لونهما فكانتا في لون
البنفسج ، ثم تبدل لونهما مرة أخرى ، فكانتا في لون الفيروزج ، أو كأنهما
كانتا بلورتين يرى فيهما ألوان الطيف ، أو عيني هرة لا يثبت لهما لون .
وفطنت إلى أنني أرمقها في إعجاب ، ولعل وجهي فضح سرى ، فقلت
بالإنجليزية في بساطة :

— لماذا تنظر إلى هكذا ؟

فقلت وقد انفرجت شفתי عن ابتسامة هادئة :

— عيناك !

— ماذا بهما ؟

— سحر .

فتوجت شفتيها ابتسامة رقيقة ، وقالت :

— من أين أنت ؟

— من مصر .

فشردت ببصرها وقالت :

— بلاد السحر والأسرار .

فقلت في انشراح :

— وأين سحرها من سحر عينيك .

فانبسطت أساريرها . وبرقت عيناها ، ولاح عليها الانشراح ، ورأيت

أن يظل حبل الحديث بيننا موصولا ، فقلت لها في تساؤل :

— بارية ؟

فقلت وقد زوت ما بين حاجبيها :

— ما الذى جعلك تحسبنى بباريسية ؟ آه .. مشيتى من غير شك .
حسبنى كثير من الناس بباريسية بسبب مشيتى .. إننى لا أحب أن أكون
باريسية .. إننى هولندية .

— من أمستردام ؟

— من هارلم .

— مدينة الأزهار ! إنك أروع زهرة فيها بلا جدال .

فتهلل وجهها فى براءة ، وقالت وهى ترنو إلى بعينها الساحرتين :

— ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

أحسست سحابة الكدر تعود لتنتشر فى صدرى ، وقلت فى صوت فيه

رنة أسمى :

— جئت لزيارة صديقة .

فقلت وهى تنظر إلى ، وعلى شفيتها ابتسامة :

— لعلك وجدت فى زيارتها سعادة لقلبك .

فقلت فى سخرية :

— وجدت إحدى الراحتين .

— ماذا وجدت ؟

— اليأس المرير .

— لماذا ؟

— خطبت ، فانقطع بذلك كل ما كان بيننا .

وسكت ، فساد الصمت بيننا ، ونظرت من نخلل النافذة المجاورة ،

فرأيت المزارع النظرة مترامية على مدى البصر ، وطواحين الهواء متناثرة هنا

وهناك ، لا يشوه ذلك الجمال إلا آثار الدمار الذى خلفه الألمان ، ولم أتبته لنفسى
إلا على صوتها ، وهى تقول :

— فيم تفكر ؟

— فيك !

فقلت فى صوت نم عن غيرة :

— بل فيها .

— انتهى كل شىء بيننا ، وما كنت ممن يجرون وراء الأوهام .

— هذا كلام عقلك ، فما رأى قلبك ؟

— فقد هولندية ، فعوضه الله خيرا منها .

— مجاملة ولا مرء .

— بل الحق الصراح .

ورفت على شفيتها ابتسامة ، والتمعت عيناها العجيبتان يريق خاطف ،

وقلت لها فى اهتمام .

— إلى أين أنت ذاهبة ؟

— إلى بروكسل .

— وماذا تفعلين هناك ؟

— دعانى عمى لتمضية بضعة أيام .

— وأين تنزلين ؟

— فندق سيرو ، عمى ينتظرني هناك .

— يا لحسن حظى ، السماء راضية عنى اليوم .

— لماذا ؟

— ستنزلين نفس الفندق الذى أنزل فيه .

ورحنا أنا ومرجريتاً نتجاذب أطراف الحديث ، وراح كل منا يقص نتفا من حياته حتى بلغنا بروكسل ، فحملت عنها حقيبتها . ثم ركبتنا سيارة انطلقت بنا إلى فندق سيرو . كانت الغبطة تملأ جوانحي ، فقد كانت مرجريتاً تختلف عمن قابلت في طرقات لندن وباريس ، إنها فتاة مثقفة ، حصلت على أكثر من شهادة ، في أكثر من فرع من فروع التخصص .

وبلغنا الفندق ، فهبطنا من السيارة ، ثم دلفنا إلى الردهة الواسعة ، ووقفت مرجريتاً تقلب عينيها في أرجاء المكان ، وغمغمت :

— لم يأت بعد .

فقلت لها :

— تعالى معي .

وانطلقنا حتى إذا بلغنا حجرتي ، فتحت الباب ودخلت ، ثم قلت لها :

— تفضلي .

تضرجت وجنتاها بلون الدم ، وقالت في انفعال :

— ماذا تظنني ؟ أتحسبني باريسية ؟

فقلت ببرود :

— أعرف أنك هولندية .

فقلت وهي ثائرة :

— ما كان هولندية تحترم نفسها أن تدخل غرفة رجل غريب .

فقلت في عدم اكتراث :

— دعوتك مجاملة ، لا بأس من أن تنتظري عندك حتى أصلح ما أفسده

السفر .

وتركبتها عند الباب ، وأخذت أمشط شعري ، وأصلح هندامى ، ثم

خرجت إليها ، وهبطنا إلى الردهة ، وقعدنا نرصد قدوم عمها .
ومرت لحظات وهي تقلب عينيها في الوافدين ، ثم انبسطت أساريرها ،
ونهضت خفيفة وهي تغغم :
— عمى .. جاء عمى .

وتقدم الرجل منها ، وصافحها وهو يلاطفها ، ونظر إلى . فقدمتني إليه ،
ورأيت أن انسحب ، فاستأذنت .

ودخلت غرفتي ، وأغلقت بابي خلفي ، وتمددت في فراشي ، فاحتلت
مرجريتا ذهني ، وراح خيالي يحضرها بقامتها الطويلة المتناسقة ، وهي تتننى
في مشيتها ، فتدب النشوة في بدني . ولججت في تصوراتي ، وأنا لا أحس
مرور الزمن ، حتى سمعت رنين التليفون ، فانتبهت من أحلام يقظني ،
ورفعت السماعة ، ووضعتها على أذني ، فخفق قلبي ، كان صوت مرجريتا
العذب ينسكب في أذني ، فيوقظ مشاعري ، ويرهف حواسي .

راحت تسألني عن حالي ، كأنما لم نفتق من لحظات ، وأحسست رغبة
في لقائها ، فقلت لها :

— تعالى نتغدى معا .

— دعاني عمى للغداء .

فقلت في إصرار :

— وأنا أدعوك للعشاء .

وأقبلت في المساء ، بقامتها الفارعة الرائعة ، فانطلقنا معا نتجاذب أحاديث
شهية ، ودلفنا إلى مطعم من المطاعم ، وجيء بالطعام ، فأخذنا في تناوله
والعيون تتحدث ، والقلوب تخفق لحديث العيون ، وغادرنا المكان لنجوس
خلال المدينة ، فرحنا نضرب على غير هدى ، وما رأينا من المدينة إلا أنوارا
(صدى الستين)

تتلاها ، وأنا سأمرون بنا مرور الأطياف ، فقد كنا غارقين في حديثنا ، وكان ألد ما في الوجود .

وتصرم الوقت ، ورأينا أن نعود إلى الفندق ، بعد أن اتفقنا على أن نتقابل في الصباح ، للذهاب لزيارة معالم بروكسل وآثارها . وانطلقنا حتى بلغنا الفندق ، فدخلنا وأنا مفعم بالنشوة ، وما إن بلغنا حجرتي حتى فتحت بابها ، وقلت لها وأنا أبتسم :

— لا تفضل .

فأشرق وجهها بابتسامة عذبة ، وذهبت إلى حجرتها .

واندسست في فراشي ، وقد احتل طيف مارجريتا أقطار رأسي ، وطاف النوم لي ، فرحت في سبات ، حتى إذا أصبح الصباح ، رن جرس التليفون ، فتناولته ، فألقيت مارجريتا تدعوني للخروج ، فقممت منشرحاً أرتدى ثيابي ، وما انقضت دقائق حتى سمعت طرقة خفيفاً على الباب ، فذهبت وفتحته ، فوجدتها في ثوب هديع من ثياب الصباح ، فحييتها وتركتها عند الباب ، دون أن أدعوها للدخول ، وذهبت أكمل ارتداء ملابسي .

وخرجنا معا ، وفيما نحن سائران وقعت عيناى على محل يبيع الثياب ، فيمنا شطره ، وأخذت أشتري بعض حاجات لي . ثم قدمت إليها جوربا من « النيلون » ، فأربد وجهها ، وضاعت عيناها الساحرتان ، وقالت في غضب :

— إذا لم تقلع عن هذا الأسلوب ، غادرتك في الحال .

— هدية متواضعة .

فقالت في حدة :

— لا .

فهزئت كتفى ، وتركت الجورب ، وخرجنا نستأنف ما كنا فيه من حديث .

ومرت الأيام ونحن لا نفرق ، نتقابل فى الصباح ، وتتقابل فى المساء ، ونعود إلى الفندق فى هجمة الليل والناس نيام . واستيقظت فى جوفى مشاعر الحب الجبار ، فكرت أكثر من مرة فى أن أطوقها بذراعى ، وأضمها إلى صدرى ، لأطفئ لهيب النار الذى يحرق كبدى ، ولكنى كنت أحجم ، وأكبت مشاعرى . وكنا نمر على حجرى فى كل ليلة ، فأحييها تحية المساء ، وألج باب حجرى ، دون أن أدعوها للدخول .

وفى ليلة من الليالى قلت لها ونحن نلج باب الفندق :
— سأغادر بروكسل بعد أربعة أيام .

ونظرت إليها ، فخیل إلى أن وجهها قد اكفهر ، وهمست فى نبرات خافتة حزينة ، عبثت بأوتار قلبى :

— هكذا سريعا !

— سأذهب إلى باريس ، ومنها إلى القاهرة .

وساد صمت بغيض ، ثم قالت :

— ألا تؤجل سفرك ؟

— لا أستطيع .

وعاد الصمت ثانية ، وانطلقنا مطرقين دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، حتى إذا بلغنا باب حجرى ، رفعت رأسى لتحيتها ، فهالنى ذلك العيوس الذى ران على الوجه الجميل ، وحز فى نفسى ، فأحسست بأن إبراهيم تخز روحى ، وهممت بأن أضمها إلى ، ولكنى كبحت جماح نفسى ، وألقيت عليها تحية المساء ، ودخلت غرفتى ، وفى قلبى شجن .

ارتيمت في فراشي ، وقد تأمرت على حواسي ، كان فكري يفكر فيها ،
وقلبي يخفق لطيفها ، وكبدى تهفو إليها ، وكل جارحة من جوارحي تحن إليها
وتشتبها ، وبقيت فريسة لأفكارى تعذبني وتضنيني ، وفي ذلك الهدوء الذي
هيج مشاعري ، رن التليفون ، فهرعت إليه ، فإذا بها تقول في صوت متهدج
هز كياني :

— حسين ، نمت ؟

— لا يا مرجى ، لم يطف النوم بعيني .

— وأنا لا أستطيع النوم ، انتابتنى وساوس وأفكار .

وكدت أضعف وأبشها وجدى ، وأشكو إليها كرى ، ولكنى كبحت
جراح نفسي ، وقلت لها وأنا أكافح ما بى ، وأغالب قلبي :

— نامى يا مرجى ، وأتمنى لك أسعد الأوقات .

وأغمضت عيني ، ولكن النوم نأى عني ، واستيقظت مشاعري ،
وراحت الخواطر التي تدور حول الاعتراف لها بحبي تتولد في رأسي ، وتنمو
وتشتد ، وقلبي يغذيها بالإحساسات التي تتدفق منه حارة فوارة ، حتى
أحسست خورا يدب في عزمي ، ودموعا تبلل مقلتي . وبينما أنا فريسة لأفكارى
سمعت طرقا على الباب ، فنهضت مبسرا وفتحته ، فوجدت مرجريت واقفة
وفي وجهها عبوس ، وفي عينيها دموع ، فتطلعت إليها مشدوها ، وهي تدخل
لأول مرة إلى حجرتي ، ودموعها تجري على خديها ، وارتمت على مقعد قريب
من فراشي ، فدنوت منها . وقلت لها في صوت أشبه بالصوت المنبعث من
خشب يتكسر :

— ماذا يا مرجى ؟

— لا تتركني ، خذني معك ، لن أستطيع أن أعيش بعيدة عنك .



وانهمرت دموعها ، فضممتها إلى صدرى ، ورحلت أغمغم فى وله :
— مارجى .. مارجى .

فقالت فى توسل والعبرات تخنقها :

— لا تتركنى . لا تتركنى ، لن أستطيع أن أعيش بعيدة عنك .
— هذا فوق مقدورنا .

— ولن أدعك تسافر وحدك .

— مارجى !

— لن أكون عبئا عليك ، إنى أستطيع أن أعمل .

فقلت لها لا هدى من انفعالها :

— غدا يا مارجى نتحدث فى هذا الأمر .

— كل ما أريده أن أكون بقربك .

وظلت مارجى تسح الدموع ، وأنا أهدى من روعها ، والنار تشوى
جوفى والغصة تحتل حلقى ، وتقضت ساعات ونحن نقاسى ثورة مشاعرنا
الطاغية ، ثم انسلت إلى حجرتها وفى وجهها أسى ودموع .

وأسفر الصبح ، ودق التليفون ، فتناولته فإذا بمارجى تسألنى أن أتأهب
للخروج ، ثم مرت على وخرجنا واجمين ، كان كل منا مشغولا بأفكاره ،
وانطلقنا حتى إذا بلغنا حديقة قرية من الفندق دلفنا إليها ، وقعدنا على مقعد ،
ونحن صامتان .

والتفتت إلى بعينها العجيبتين اللتين بدا فيهما آثار البكاء ، وقالت فى
صوت حزين :

— لا أدرى كيف أدعك تسافر وتتركنى !

— لو كان الأمر بيدى ما تركتك .

— وماذا يحول بينى وبين أن أسافر معك ؟
— لا بد من اتخاذ إجراءات طويلة قبل دخولك مصر .
— إنى أستطيع أن أمارس التمريض ، وقد حصلت على شهادة عالية في
التدليك ، والكتابة على الآلة الكاتبة ، إننى مطلوبة في لندن وإندونيسيا .
— سأذلل عقب عودتى إلى مصر العقبات التى تعترض ذهابك إليها ، ثم
أستدعيك .

فقلت فى صوت متهدج :
— لن أكون عبثا عليك ، كل ما أرجوه أن أعيش حيث تعيش . وخفق
قلبى ، ولو طاولته لقلت لها : لن أدعك لحظة واحدة ، ولكن ما معى من مال
كان قد تبخر ، وهو كل ما أملك ، وما كنت أحب أن أصبحها معى إلى
مصر ، وأنا خالى الوفاض ، ولو كنت أملك مالا لحملتها معى إلى مصر ،
لأريح الفؤاد العاشق الولهان .

وجاء الليل ، وخرجنا معا ، ولكن مارجى لم تكن فى هدوء الصباح ،
عادت تتوسل إلى أن آخذها معى ، والدموع تترقرق فى عينيها ، وخشيت أن
تنفجر بالبكاء فى الطريق ، فأشرت عليها أن تعود إلى الفندق ، فوافقت ،
وعدنا من حيث جئنا ، ودخلنا غرفتى والأسى يلوح فى وجهينا .

واستسلمت مارجى للبكاء ، فألمتنى دموعها ، وحزت فى روحي ، ولم
أطق أن أراها فى نشيجها ، فذهبت إليها ، وضممتها إلى صدرى . وأخذت
أغمغم فى توسل :

— كفى .. كفى أرجوك .

فهمست وقد خنقتها عبراتها :

— ليتنا لم نتقابل ، ليت عيني لم تقعا عليك .

فقلت لها في عتاب :

— أحاقدة على يا مارجى ١٩

فقلت وهى ترنو إلى فى وجد :

— أبدا .

وصمتت قليلا ، ثم أردفت فى وجد :

— إننى لست كالفتيات اللاتي قابلتهن فى طرقات لندن وأمستردام

وباريس ، إننى مخطوبة ، وخطيبي من خيرة شباب هارلم ، وها أنا ذى
أعرض عليك أن تأخذنى معك ، فتفر منى لقد انتهيت .. انتهى كل ما كان
بينى وبين خطيبي ، ولن أعود إليه .

فقلت لها فى حرارة :

— أقسم لك يا مارجى أنى سأبعث إليك ، حينما أذلل الصعاب التى

تعترض قدومك إلى مصر ، لنعيش سعيدين .

فقلت وقد شردت ببصرها :

— لكأتما ذلك حلم من الأحلام .

ووافت الليلة الفاصلة ، آخر ليلة أقضيها فى فندق سيرو قبل ذهابى إلى

باريس ، فى طريقى إلى مصر ، لم تغادر الفندق ، بل تلاقينا فى حجرتى
للوداع ، كانت مارجيتا شاحبة اللون ، عابسة الوجه ، ظللنا نتبادل
النظرات ، ونحن صامتان ، وإن كانت مشاعرنا تمور فى صدرينا نائرة دافقة ،
وفتحت حقيبتها ، وأخرجت منها قداحة ، وقدمتها إلى وهى تقول :

— ليس معى غيرها ، خذها لتذكرنى بها .

تناولت القداحة خافق القلب ، ثم نهضت واتجهت إليها ، وألبستها عقدا

وقرطا كنت قد اشتريتهما لها ، وكنت أرقب الفرصة المناسبة لأقدمهما لها

دون أن أغضبها ، فأخذت تتحسس العقد بيدها ، ثم قامت إلى المرأة ، ونظرت إلى صورتها ، وملأت الدموع مقلتيها .

وأصبح الصباح ، فهبطنا إلى قاعة الفندق ، وأنا منقبض النفس ، تكاد دموعى تفر من عيني ، وانطلقنا إلى المحطة ، وحن أوان الوداع لما دق الجرس مؤذنا بتحريك القطار ، فامتزجنا فى عناقنا كأنما نتزود لدهر لا ندرى مداه ، وتحرك القطار وهى متشبثة . بعنقى ، تتحرك معه ، ثم ارتخت ذراعها شيئا فشيئا ، ووقفت ترنو إلى من خلال دموعها التى ملأت عينيها الحبيبتين .

وراح القطار ينهب الفضاء ، وبقيت فى مقعدى مطرقا ، كنت نهيا لأفكارى السود ؛ ساءنى أننى خلقت حبي ، ومزقت قلبي ، كانت مارجريتا بهجة نفسى ، تملأ دنياى حياة ، فإذا بها تصبح طيفا يزورنى ، وذكرى تحرك الأشجان .

وهبطت باريس ، وفى القلب لوعة ، وفى الرأس أفكار ، فشغلت بنفسى عما حولى ، وانطلقت إلى فندق من فنادقها الغاصة بالحسان ، ولكنسى انزويت فى حجرى ، تراقبنى عينا مارجريتا الساحرتان الأسرتان . وأحسست حينئذ عجبيا إليها ، فبعثت أَدعوها لتقبل إلى باريس ، وألحقت فى الرجاء ، ولكنها كتبت إلى تقول إنها عائدة إلى هارلم .

وعدت إلى مصر مجروح الفؤاد ، وما إن دخلت دارى حتى بعثت إليها برسالة حارة أبشها فيها لواعج نفسى ، واشتياق القلب الوهان ، ثم أنبأتها أننى سأبذل كل ما فى طوقى لتذليل ما يعترض قدومها من عقبات ، ومرت أيام وأسابيع ولم أفعل فى مسألة قدومها شيئا ، ولم أكن صادقا عندما أخبرتها أنى سأعمل على تذليل الصعاب ، كنت خالى الوفاض ، لا أملك مالا ، وما كنت أقبل أن تقدم مارجى لتعمل وتكدح ، إننى أريدها على طريقتنا الشرقية ، أن

أكون السيد الذى يذل كل شيء ، لا الصديق الذى ينعم بالحب ، ثم يلقى بالعبء كله على حبيبة الفؤاد !

وجاءتنى منها رسالة ، تخبرنى فيها أنها فسخت خطبتها دون أن يدري أحد فى هارلم سبب ذلك ، وراحت تقص على فى أسلوب نابض ما تقاسى من وجد ، وتقول لى إنها ترقب فى لهفة رسالتى التى تحمل إليها بشرى تذليل ما يعترض سبيل قلوبها إلى مصر ، لتعيش بقرى ، وتنعم بحبى .

مست رسالتها أوتار قلبى ، وكدت أضعف وأبعث إليها أن تقدم لتطفيئ النار المتأججة بين الضلوع ، ولكنى ملكت نفسى ، وكبت إليها بأن الظروف لم تسمح باستدعائها بعد . واتمست منها أن تترث وتعتصم بالصبر . ومرت أيام وأنا أروض نفسى على احتمال ما أقاسى من وجد ، وفى صباح يوم أقبل ساعى البريد ، وسلمنى رسالة منها ، ففضضتها خافق القلب ، وجعلت أقرؤها فى لهفة ، فالفيتها صاحبة ، ثم ما لبثت ثورتها أن هدأت وهدأت ، حتى انقلبت إلى استعطاف ، قالت فى غضب إنها كانت تنتظر منى تلك المراوغة قبل أن تصل إليها رسالتى ، وإنها تعلم أننى أحاول الفرار منها ، وإن هذا لا يهمها فإنها لم تحينى يوما ، ثم لانت حلتها ، وقالت إنها لن تمكث فى هولندا ، لقد بيتت العزم على مغادرتها ، فلندن تطلبها وأندونيسيا فى حاجة إليها ، إنها سترحل ما فى ذلك شك ، ولكنها تفضل أن ترحل إلى مصر ، إلى البلد الذى أعيش فيه ، لتكون بقرى وهذا كل ما ترجوه فى الحياة .

جلست لأكتب إليها ، ولكن ساءنى أن أعتذر مرة أخرى ، فمزقت الرسالة فى غضب ، ثم قرأت رأى ألا أكتب إليها إلا إذا ادخرت مبلغا من المال ، هذا هو رأى ، ولن أجرى بعد اليوم فى أثر سراب .

وأخذت أعمل ، وأواصل الليل بالنهار ، وطيف مارجرىتا يؤنسنى ، ويشد من أزرى وهمت أكثر من مرة بأن أكتب إليها أستدعيها ، فقد لاح

لعيني تباشير النجاح .

وجمعت مالا ، وطابت نفسي ، ولكن لم تكتمل سعادتي ، فقد راح قلبي
يحرضني على استدعاء مارجي ، وأرسلت إليها رسالة ، وأخذت أنتظر ردها
في تشوق واهتمام .

وبقيت أرصد رسالتها قلقا ، وكنت أعجب لذلك القلق الذي يلغني ،
ومرت أسابيع ، ولم يرد منها شيء ، فزاد قلقي ، واستولت على رهبة ، ولكن
لم أقطع حبل الأمل ، وبت أعيش على بصيص خافت من الرجاء كان يمهده
بالنور قلبي العاشق المتلهف على اللقاء .

ومر شهر وشهر ، فانطفأ ذلك البصيص ، ولغني حزن ، وأصبحت
حليف الانقباض ، وفي ذلك الظلام الثقيل ، برق في ذهني خاطر استراحت
له نفسي ، إنها رحلت قبل أن تبلغها رسالتي ، إنها لا تزال تحبني ، فإن كانت
قرأت ما سطرته بذوب نفسي ، لجاءت على جناح الحب تطير ، واطمأنتت
إلى ذلك الخاطر ، ولكن عز على أن أحيا على خاطر لطيف ، فقد راحت
نفسي توسوس لي أنها تلقت رسالتي بعد أن مسحت يد النسيان من قلبها
حيي ، واستبد شيطاني بي ، حتى صدقت وسوسته ؛ فعدت إلى سجن
نفسي ، حزينا يائسا مهموما ، لأعيش ما بقي من عمري في ظلام دامس
بغيض .

رجل وامرأة

هبط من القطار ساهما ، وسار بقامته الطويلة يحمل حقيبة كبيرة وقد دثرته رهبة خفيفة ، كان يحس إحساسات الغريب الذى يهبط بلدا لأول مرة ، وخرج من المحطة ، ووقف على الطوار يتلفت فى حيرة لا يدرى إلى أين يذهب ، ورفع رأسه إلى السماء ، فآلفاها ملبدة بالغيوم قائمة ، وتلفت حوله فوجد المكان موحشا كأنما استعار وحشته من نفسه ، فوضع الحقيبة على الأرض ، وجعل يفكر فى أمره .

إنه موظف نقل إلى هذه المدينة الساحلية من مدن القطر ، وما رآها من قبل يومه ، وما كانت هذه المدينة الوحيدة التى لم يرها من قبل ، فما كان يعرف غير القاهرة ، إنه لم يغادر أهله ، عاش عمره فى دار أبويه ، لا يعرف ارتحالا ، حتى عطلاته الصيفية ، كان يمضيها بين ملاعب الكرة ودور السينما ، فإذا جن الليل عاد إلى البيت ، وأوى إلى فراشه منعما سعيدا .

أكمل دراسته الفنية ، وأصبح مدرسا فى مدارس الحكومة ، وسعى أبوه سعيا حثيثا ليلحقه بمدرسة من مدارس القاهرة ، ونجح فى سعيه ، ولكن ما كان ذلك ليذوم ، كان عليه أن يرتحل كما يرتحل زملاؤه ، وأن يطوف بمدارس القطر ، حتى يقضى المدة المقررة لكل مدرس بعيدا عن العاصمة .

وجاء يوم رحيله ، فأحس غصة لفراق أمه ، وأطرق يفكر مهموما ، فترأى له سفره بغيضا مخفوا بالصعاب ، أخذ يقلقه أمر ليله ، فما كان

يعرف كيف يمضيه بعيدا عن أمه ، أين يبيت ؟ ومن ذا الذى يجهز له طعامه ، ويعنى بفراشه ، ويرعى شئونه ، وهو الذى ما كان يفكر فى شيء من أمره . ومرت به عربة ، فأفاق من تفكيره ، وخطر له أن يتدس فيها ويلتمس من الحوذى أن يطوف به المدينة ، ولكنه عاد ووجد من الأوفى أن يجوس خلالها سعيا على قدميه ، حتى يهتدى إلى مكان يؤديه ، وانساب فى شوارع المدينة ، وراحت عيناه تنتقلان فى سرعة بين اللافتات المثبتة فى واجهات الدور ، كان يتقرب عن نزل يهبط فيه ، وصفرت الريح ، وزججرت السماء ، ثم هطلت الأمطار ، فدار بعينه فى المكان ، فألقى مطعما صغيرا على قيد خطوات ، فرأى أن يتجه إليه ، وأن يحتمى به ، وأن يتناول طعاما آخر .

ذهب إلى المطعم ، وجلس إلى خوان قريب من الطريق . وطفى يرصد الماء المنهمر فى غزارة ، فخیل إليه أنه يغسل صدره ، ويزيل تلك الكآبة التى رانت عليه طوال سفره . وأحس تلك اللحظة كأنها فصل من ماضيه ، وخلق خلقا جديدا .

وأقبل الخادم ، ووقف أمامه فى احترام ، ينتظر أوامره ، فشخص ببصره يفكر ، وتذكر أنه فى بلد اشتهر بالسملك . فطلب سمكا ، ثم عاد يرقب الطريق الذى أصبح كمرآة متكسرة . تنعكس على جنباتها صور الدور والمركبات والمارة متراقصة مترنحة .

ووضع الطعام أمامه . فأخذ يتناوله فى شهوة ، كان لذيذا . وما كان يحسب أنه يستطيع أن يهنا بطعام لم تصنعه أمه ، فقد ألقت فى روعه أن طهوها لا يعدله طهو ، وأن من يسعده حظه بأن يطعم من صنع يديها لن يسيغ طعاما آخر .

ونادى الخادم ، وأعطاه ثمن طعامه ، ثم نفحه بضعة قروش .. كان قد عزم

على أن يستعين به ، ليهديه إلى مكان ينزل فيه ، وما استقرت القروش في يد الرجل حتى انبسطت أساريره ، قالت إلى الشاب وقال :

— أتريد فندقا كبيرا ؟

— لا .. أريد مسكنا هادئا .

— إذن انزل عند ماريا .

فحذجه الشاب بنظرة المستفهم ، فقال الرجل وهو يشير بأصبعه إلى بيت من طبقتين أمام المطعم :

— هذا بيت ماريا .

والتفت الشاب إلى البيت ، فألفاه قد بنى على الطراز الإنجليزي ، تحيط به حديقة صغيرة يطل على البحر الذي تلاطمت أمواجه في ثورة وغضب ، وأعجبه البيت ، وبقي يتطلع إليه والرجل يقول :

— إنه يموج بالناس في الصيف ، أما في الشتاء فهو هادئ ساكن ، لا يسمع فيه صوت ..

وصمت الخادم قليلا ، ثم قال :

— لا يقطن عندها الآن إلا شيخ كبير .

فغمغم الشاب في ارتياح :

— هذا جميل ، سأمضى الشتاء هنا ، وأعود في الصيف إلى أهلي .

وقام وحمل حقيبته ، وانطلق إلى بيت ماريا والمطر ينهمر . وما إن دنا منه حتى أرهفت مشاعره ، وشاعت في صدره تلك الرهبة التي تنتشر في الصدور عند الإقدام على مجهول ، ووقف أمام الباب لحظة يستجمع قواه ، ثم مديده وضغط زر الجرس ، فرن رنينا عاليا ، كان له تجاوب في قلبه ، وفتح الباب ، وظهرت خادمة عجوز ، وراحت تنظر إليه في هدوء ، فلما رأت في يده

حقيقية ، فسحت له الطريق ، ولكنه لم يدخل ، بل قال في صوت خافت مرتعش :

— أريد حجرة ..

— تفضل .

وسارت وهو خلفها ، وصعد بضع درجات ، ثم ألقي نفسه في حجرة فسيحة ، رصت فيها مقاعد وثيرة ، وأشارت إلى مقعد قريب كبير ، وقالت له :

— تفضل حتى أدعوك ماريا .

وضع حقيبته وجلس ، واستيقظت حواسه ، فراح يتلفت في قلق ، ويعبث بأصابعه في مسند المقعد الكبير ، ثم يرفع يده ويتحسس رباط رقبته ، وسرعان ما يدس يده في جيبه ويخرج منديله ، ليجفف قطرات العرق المنبثقة من جبينه ، في ذلك اليوم الذى اشتدت ريحه وهطلت أمطاره !

وتصرمت دقائق خالها ساعات ، ثم أقبلت امرأة في الثلاثين ، ناصعة البياض ، ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، يشع منهما بريق جذاب ، وما أن لمحها قادمة نحوه ، حتى نهض بقامته الطويلة في ارتباك ، ولفه اضطراب ، ووقع بصره على صدرها الناهد وقوامها المشقوق ، فغض من بصره حياء ، وظل في إطراقه القلقة ، حتى مس أذنيه صوتها الرقيق وهى تلقى عليه تحية المساء ، فرد عليها تحيتها في صوت متهدج ، وساد السكون برهة ، ثم قال :

— أريد حجرة .

فقالت مستفسرة في رطانة لطيفة :

— لأيام ؟

— لشهور طويلة .

ونظر إليها ، فلمح في عينيها الزرقارين الواسعتين تساؤلا ، فقال :
— سأَمْضى هنا شهور السنة جميعا إلا الصيف .
فابتسمت وقالت :

— إلا الصيف ، ستكون ضيفا عزيزا .
ورنت إليه فاحصة ، فأحست راحة . كان شابا طويلا ، أسمر اللون ،
متناسب القسمات ، أسود العينين ، فاحم الشعر ، عريض المنكبين ، من
ذلك الطراز الفخم ، الذى تهفو إليه قلوب النساء . واتفقا على الأجر سريعا ،
فما كانت ماريّا تطمع فى أن يفد إليها ضيف فى غير أيام الصيف ، ونادت
الخادم العجوز ، وأمرتها أن تحمل الحقيبة ! وسارت ماريّا تهديه السبيل .
خرجتا من غرفة استقبال إلى ردهة طويلة ، وسارا حتى بلغا درجا من
الخشب ، فراحت تصعد فيه فى رشاقة ، كانت موفورة النشاط ، نابضة
 بالحياة ، وصعد فى أثرها ، فوق نظره على مفاتن جسمها ، ورأى ساقها
المصقولتين اللتين بدتا كأنهما خرطتا من مرمر ، فاضطرب وغض من بصره
خجلا وحياء ، وبلغا بهوا فسيحا به بعض النضد والمقاعد وأبواب غرف
النوم ، وباب من زجاج يوصل إل شرفة تطل على البحر ، واتجهت ماريّا إلى
غرفة من الغرف ، وفتحت بابها ، والتفتت إليه ، وقالت :
— تفضل .

ودخل وقلب ناظريه فى الغرفة ، فوجد سريرا وصوان ملابس ومشجبا
ونضدا ومقعدا ، كانت غرفة لطيفة نظيفة ، وسمع ماريّا تقول :
— أعجبتك ؟

فقال فى صوت خافت :
— بديعة .

وقالت ماريًا وهي تغلق الباب وقد رفت على شفتيها ابتسامة عذبة :
— إذا احتجت إلى شيء فأنا في خدمتك !
فقال في ارتباك وقد تدفق الدم إلى وجهه :
— متشكر .

وخلع ثيابه ، وشعر بأنه في حاجة إلى حمام ساخن ، ولكنه خجل من أن
يلتمس من ماريًا أن تعد له الحمام ، فذهب إلى دورة المياه ، وغسل رأسه
ووجهه وقدميه ، ثم عاد إلى غرفته . وتمدد في فراشه ، وأسبل جفنيه ، وراح
يفكر وهو بين النوم واليقظان .

سرى إلى سمعه خرير الأمواج ، وزفرقة الرياح ، فبخل إليه أنه يصفى إلى
لحن سماوى أخاذ ، فصفت نفسه ، وانتشت روحه ، وأقلعت عن صدره
تلك الرهبة التى أفلقتة ، وجسمت لخياله ما ينتظره من صعباب ، وفكر في
أمره ، فحمد الظروف التى ساقته إلى بيت ماريًا ، وتمنى أن تكون مدرسته
قريبة من الحى الذى نزل به ، حتى لا يقاسى قسوة المواصلات .

وطاف به ملاك النوم ، وأسبل عليه جناحه ، فنام ملء جفنيه ، وانقضى
الليل ، وتسلسل أول خيط من خيوط النهار إلى غرفته ، فنهض من فراشه وغادر
حجرتة ، وما أن خطا في البهو خطوات ، حتى رأى ماريًا في قميص وردى ،
يفضح جمال تكوينها ، كانت ذراعاها البضتان عاريتين ، وصدرها شاخا في
رعونة ، وشعرها الذهبى متهدلا خلفها في روعة ، وعيناها تنفتان سحرا ،
ولما وقع بصره عليها ارتبك ، وحيهاها بإيماءة خفيفة ، وذهب يتعثر في
خجله .

وارتدى ثيابه ، وخرج يبحث عن مدرسته ، وكم كان سروره عظيما لما
ألفاها في نفس المنطقة التى يقع فيها بيت ماريًا ، فأحس رضا ، ووجد في ذلك
(صدى السنين)

فألا حسنا ، فذلك التوفيق الذى صادفه فى مستهل حياته الجديدة ، يشير بأنه سيمضى فى هذه المدينة أياما سعيدة هنية .

وراح يطوف بأرجاء المدينة ، حتى إذا انتصف النهار ، ووافى ميعاد الغداء ، قفل عائدا إلى الدار ، فقابلته ماريّا فى بشاشة ، وقالت له :
— آن أوان الطعام .

فاتجه إلى غرفة السفرة ، وجلس صامتا ، وأخذت ماريّا تغدو وتروح ، تعد له غداءه بنفسها ، وانتهت من تجهيز كل شيء ، ووقفت أمامه برهة ترنو إليه .. كانت ترجو أن يدعوها لتناول الغداء معه ، وكانت قد وطنت النفس على أن تلبى دعوته . ولكنه أخذ يلتهم ما أمامه ، ولم ينبس بكلمة ، فانسلت إلى غرفة أخرى وقد سرى فى نفسها تبرم وضيق .

وانتهى من غداءه ، وكان لذيذا دسما ، فنهض ليذهب إليها يمتدح طعامها ، ويشكرها على عنايتها به ، ولكن ما إن دنا منها حتى عقد لسانه ، وغلب على أمره ، فانسل من جوارها صامتا ، واتجه إلى السلم الخشبي ، وراح يرقاه ليدخل غرفته ، ويغلق عليه بابها .

وتصرم النهار ، ووقد الليل بهدوئه وشاعريته ، وفتح باب غرفة ماريّا ، وخرجت فى ثوب أزرق فاتن ، يكشف عن صدرها البلورى ، وعنقها العاجي ، وجيدها الأتلع ، كانت قد صفت شعرها الذهبى فى عناية ، فزاد فتنها ، وذهبت إلى مقعد فى مواجهة غرفته ، وقعدت ووضعت ساقا على ساق ، فانحسر ثوبها عن الساقين معا ، فبدت فى هيئة تفتن العابد فى محرابه . وراحت ترصد الباب بعينين متلهفتين ، ومر الوقت وهى فى جلستها . فأرهفت حواسها ، وتململت فى مقعدها ، وطغت ثورة مشاعرها ، فقامت وسارت إلى الشرفة ، ومدت بصرها إلى البحر الساجي ، الذى بدت

صفحته كمرآة فضية مصقولة . كان القمر في ليلة تمامه يبعث ضياءه اللطيف إلى الكون الهاجع ، فيمده بالشاعرية والجمال .

ومارت إحساساتها الزاخرة في صدرها ، وهفت إلى الحب فلم تطق أن يحول ذلك الباب بينها وبين إرواء نفسها . فلو أنه انفتح ووقع عليها نظر الشاب ، لما استطاع أن يقاوم فتنتها ، ولذاب من حرارتها كما تلذوب الشمعة إذا أحست مس النار .

وخطر لها أن تذهب إليه ، وتطرق بابه ، وتلمس منه أن يناولها شيئا ، ولكنها لم ترتع إلى ذلك الخطر ، ففكرت في وسيلة أخرى ، وبان في وجهها الرضا . فرفعت صوتها بالغناء ، فسرى أسرا جذابا شحن رقة وأنوثة ، وانساب عذبا نديا يهز القلوب ، ويعبث بالأفئدة ، ومس أذن الشاب مسا رقيقا ، فأعارها السمع ، كانت تغنى أغنية رومية لم يفهم منها حرفا ، ولكن نبرات صوتها أطربته ، فراح ينعم بالأنغام وهو ممدد في فراشه ، وهام في تيه الخيال ، ولكن لم يخطر على قلبه أن ينطلق إلى ماري ..

وانتهت من أغنياتها ، وغادرت الشرفة ، ودلفت إلى الردهة وهي تمنى النفس بأن تجده هناك ، يصغى إليها هيمان ، ولكنها ألقت باب غرفته موصدا ، فذهبت إلى غرفتها تحس إحساس العائد من معركة منهزما ، ولو طاولت نفسها الحطمت عليه بابه .

وانقضى الليل ، وطلع النهار ، فقامت ماري ، وفتحت باب حجرتها ، ثم عادت إلى فراشها ، وارتمت فيه ، في وضع مثير ، حسرت الغطاء عن ساقها فكانت فتنة ، وبلغ سمعها صرير باب ، فاشربأت بغنقها ، لترى ما يفعل الشاب إذا وقع بصره على ما هيأت له من إغراء ، ومر بياها ، فلما وجده مفتوحا تطلع إلى الغرفة برغمه ، فلما رأى ماري في فراشها ارتبك ، وغض من

بصره ، وأسرع في خطاه ليغيب في دورة المياه .

وغادر البيت إلى مدرسته ، وانقضى النهار ، وعاد مع الغروب ، ودخل إلى حجرته وأغلقها على نفسه ، ومر بعض الوقت ، فأحس مللاً ، فخرج إلى الشرفة يمتع الطرف بمراقبة قرص الشمس المتوهج وهو ينجو في البحر الذي اصطبغت صفحته بلون الأرجوان .

وقف صامتا ينظر وقد ملأ منظر غروب الشمس أقطار نفسه بهجة ، وظل شاخصا ببصره ، مفعما بالنشوة ، حتى سمع حركة في الردهة ، فالتفت فرأى ماريا تومى إليه أن تعال فخلق قلبه ، واستيقظ قلقه وذهب إليها وقد دثرته رهبة . كانت في ثوب أحمر زاد في روعتها ، فبدت كتمثال للجمال . واستدارت على عقبها وأولته ظهرها ، وقالت له في رقة :

— ساعدنى في تزيير أضرار الثوب من فضلك .

كان ثوبها مشقوقا حتى خاصرتها ، به أضرار كثيرة ، فوقف في مكانه مأخوذاً ، زائف البصر ، ثم دنأ منها وهو في اضطرابه ، ووقعت عيناه على ظهرها الناصع ، الذى كان كأنما خلق من شمع مصفى ، فسرت في صدره رهبة ، ومد يدا مضطربة وجعل يزور أضرار الثوب في حرص حتى لا تلمس أنامله لحمها . واستدارت بوجهها ، ورنث إليه بعينيها الزرقاوين ، ولفسحت أنفاسها الحارة وجهه ، ولو أنها لفحت لوحا من الثلج لأذابته ، ولكنه كان مشغولا بتلك الأضرار التى كان يعالجها في حرص وحذر !

وأرادت أن تخرجه عن صمته فقالت وهى تميل إلى الوراء قليلا ليلمس ظهرها صدره :

— إني ذاهبة إلى السينما .

كانت تأمل أن يعرض عليها الخروج معها ، وكانت تتأهب لشكر له

لطفه ، ولكنه لج في صمته ، فاستأنفت حديثها ، لتخرجه من ذلك الجمود الذى يجرح كبرياءها .

— بها رواية رائعة .

فقال فى صوت مضطرب خافت كأنما ينبعث من أغوار نفسه :

— أية رواية ؟

وأرضاهما أنه نطق أخيرا .

فقال فى خفة :

— جيلدا .

— رواية رائعة : رأيتها فى القاهرة .

وصمت ، فأحست كأنما صفعها على وجهها ، فثارت ثورتها ، ولم تعد تحتل أن تبقى أكثر من ذلك ، فانطلقت فى الدرج الخشبي ، وجعلت تهبط فيه حانقة متبرمة . وارتمى على أول مقعد صادفه ، وجعل يلتقط أنفاسه فى جهد ، فقد أدار عرقها الطيب رأسه ، وأيقظ دنوها منه مشاعره ، حتى كاد يضعف ويضمها إلى صدره ولكنه أحجم ، خشية أن يغضب السيدة التى رعته وأكرمت وفادته !

ومرت أيام وماريا تتودد إليه ، وهو منطو على نفسه ، ينظر إليها بعين التقدير والتبجيل ، فلم يخطر له على بال أنها تشتيه ، وأن كل جارحة من جوارحها تهفو إلى شبابه الغض الرطيب .

وضاقت ماريما بجموده ، وعزمت على أن تخرجه من قوقعة نفسه ، ففى عصر يوم من الأيام ، بينما كان جالسا فى الردهة يقرأ ، خرجت من غرفتها وخيته متطلقة الوجه ، ثم راحت تهبط فى الدرج قفزا فراح ثدياها يترجرجان فى رعونة ، وقبل أن تبلغ نهاية الدرج تظاهرت بأن رجلها قد زلت ، فندت

منها صرخة ، واستلقت على الأرض ، وأسبلت عينيها .
صكت صرختها أذنيه ، فأسكنت الرهبة قواده ، وهرع إليها مضطربا ، رآها
مغشيا عليها ، فراح يتلفت في حيرة ، ولم يعد يدري ما يفعل ، وفيما هو
يتلفت في ارتباك ، خطر له أن يدعو الخادم المعجوز ، فأنطلق في الحجرات
يبحث عنها ، فلما لم يجدها عاد إلى ماري ، وراح يتطلع إليها بعينين شاردتين ،
ثم صعد في الدرج وثبا ، ولم يغب لحظات حتى رجع وفي يده زجاجة
« كولونيا » أدناها من أنفها ، ولكنها ظلت في إغمائها ، ولم يجد مقرا من
حملها ، فمد يديه وحملها بين ذراعيه ، فالتصق جسمها اللدن بصدره ،
وراح يصعد بها في حرص وأناة ، وقد اطمأنت ماري ، فقد سقط في
شباكها .

بلغ الردهة العليا ، وذهب إلى غرفتها ، ودفع بابها بقدمه ، ثم سار إلى
السري ، ووضع فيه ماري ، وأخذ يفرك يديها بين يديه ، ثم بلل كفه
بالكولونيا ، وراح يمررها على جبينها وعنقها وجيدها .
وأحست أنفاسه الحارة تلمح وجهها ، ففكرت في أن تطوقه بذراعيها ،
وأن تضمه إلى صدرها الذي يعلو وينخفض في ثورة ، ولكن لماذا الإسراع إن
هي إلا لحظة حتى يهوى بشفتيه على شفتيها .

وفتحت عينيها في وهن ، ورنّت إليه رنوة لو أنها صوبتها إلى رجل آخر
لزلزت كيانه ، ولكنه ابتعد عنها وهو يغمغم :

— حمدا لله على السلامة .

وتأوهت ، فقال لها في إشفاق :

— إنك في حاجة إلى الراحة .

وانسحب من الغرفة ، وأغلق الباب وقد خلفها وهي تكاد تنفجر حنقا

وغضبا .

وانقضى الليل وماريا ثائرة ، تحس كبرياءها تدمى ، فيما طالما صرعت رجالا من أول نظرة ، وعز عليها أن يظللها ومن أذل كبرياءها سقف واحد ، فما أن شقشق الفجر حتى ذهبت إليه ، وطرقت بابه ، ففتحه ، ووقع بصره عليها ، فأوماً إليها برأسه محييا ، ولكنها لم ترد تحيته ، بل قالت فى غضب : — أرجو أن تغادر اليوم بيتى ، إني فى حاجة إلى هذه الغرفة .

رمقها فى دهش ، وقبل أن يفتح فاه كانت قد أولته ظهرها ، وولت عابسة مقطبة ، دخلت حجرتها ، وشفقت الباب خلفها فى حنق شديد .

وقف مشدوها يفكر ، ما الذى فعله لشور عليه كل هذه الثورقائه كان يحترمها وييجلها ، وما أغضبها يوما ، كان يعاملها كما يعامل أمه ، وتحرك وهو مذهول ، وتناول حقييته الكبيرة ، وراح يجمع متاعه ، وتراجمت حوادث الأمس فى رأسه ، وأخيرا هز رأسه فى اقتناع ، فقد خيل إليه أنه اهتدى إلى سبب ثورتها ، أغضبها أنه حملها بين ذراعيه ، وأن جسدها الطاهر التصق بصدر رجل غريب !

فنان

١

نظر في المرأة لآخر مرة ، وأصلح من هندامه ، ثم استدار ليخرج ، وقطع الغرفة وهو يصفر لحنا خافتا في بهجة ، حتى إذا ما بلغ الباب مد يده وضغط الزر الكهربى ، فساد الغرفة ظلام ، وأغلق الباب خلفه ، وهبط في الدرج منشرحا ، فقد أتم كتابة الرواية الكبيرة التى شغلته عن العالم شهورا ، إنه خارج الليلة ليستريح من أفكاره ، وليمضى سهرته في ملهى من الملاهى ، ينعم بمباهج الحياة كما ينعم بها سائر الناس .

وبلغ وصيد الباب ، فألقى السكون يسيطر على المكان ، والظلام يلف الكون ، فوقف يجيل عينيه فيما حوله ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فرأى النجوم تتألق في رقعة صافية زرقاء ، فأحس حركة تدب في نفسه ، وشعر بعقله يعمل ، يترجم عما ترى العين بالألفاظ ، إنه يذكر أن أحدهم وصف ما يراه الآن بزنحية تحلت بجمان ، وشاء أن يجد الألفاظ التى تصور ما يحسه ويراه ، فأغرق في التفكير لحظة ، ولكن سرعان ما أفاق إلى نفسه ، وفطن إلى ما يعتمل في جوفه ، نزل وقد انفرجت شفتاه في سخرية وغمغم : « ما لنا وهذه الليلة ! لقد انتهينا من الكتاب ، وما خرجنا إلا لنتمتع بالحياة كما يتمتع بها الناس » .

وسار ، وعاد إليه هدوؤه بعد قليل ، جعل يدندن في انشراح ، حتى إذا بلغ الطريق العام ، ورأى المصاييح القوية الممتدة على جانبيه ، أخذ يرمقها بعينه الفاحصة ، فبدت له كشموس رفعت على قضبان ، ونظر إلى صقال الطريق فخيّل إليه أنه يرنو إلى صفحة هادئة من ماء تعكس ما يسقط عليها من ضياء ، ولمح « تاكسى » قادمًا ، فأشار له ، ثم ركب ، ومد بصره إلى السائق ، فأحس رضا ، ففى سحنته خصائص بارزة ، إن أنفه الكبير المقوس تلك التقويسة التى تجعله أقرب إلى منقار بيغاء ، وهاتين العينين الضيقتين ، والشارب المتدلى على الفم ، وهذه الجبهة المتفضضة ، والشعر المفلقل المنقوش البارز من « البيريه » تجعل منه شخصية متميزة ، إنه يستطيع أن يستعير هذه الملامح ، لينحها شخصية من شخصياته التى يرسمها ، وأطرق يفكر فى شخصية تصلح لها هذه الملامح ، وأغرق فى التفكير ، ولكنه تذكر فجأة أنه ما خرج الليلة إلا لينعم بالحياة كما ينعم بها سائر الناس ، فتعلمل فى جلسته ، ثم نظر من نافذة السيارة ، يتسلى بما يمر أمام عينيه من مشاهد .

٢

ووقفت السيارة أمام الملهى ، فهبط ومد يده بالنقود إلى السائق ، وأدام النظر إلى وجهه فى إمعان ، كأنما يلتقط له صورة ، لتحفظ فى مخيلته مع الصور العديدة التى يلتقطها فى كل آن . ودلف من باب المقهى ، فألقى نظرة شاملة على المكان ، ولمح فى مكان متزو تضدًا خاليا ، فاتجه إليه ، وبقي لحظات وهو ساكن فى جلسته ، ولكن ما لبثت عيناه أن دارتا كما تدور الكاميرا ، فجعل يتطلع إلى الأضواء الخافتة الحمراء ، التى أضفت على المكان

جوا شاعريا ، ثم راح ينقل بصره بين الجالسين إلى الموائد ، يرمقهم بنظراته الفاحصة ، كأنما يحاول أن يتغلغل في أعماق نفوسهم ، ليستشف سرائرهم ، ويكشف عن الأسرار المدفونة في صدورهم . وأقبل النادل يلبي الطلبات ، فأخذ يتبعه نظره ، ويرقب حركاته ، ويحاول أن يفسر كل حركة وانحناءة . وعزفت الموسيقى ، فأرهف السمع وأحس نشوة تغمره ، ولكن ما لبثت أن انقضت النشوة ، فقد طأطأ بصره ، يفكر في ترجمة الإحساس الذي يحسه إلى ألفاظ ، وأخذ يدخره في نفسه حتى إذا ما احتاج إليه يوما وجده مذكورا ، ورننا إلى الفرقة الموسيقية ، فانشغل بأفراد الفرقة عن الأنغام ، وجذب بصره عازف الكمان ، القمىء الجسم ، ذو الوجه الجاف ، والشعر المسترسل كشعر فتاة ، فأخذ يرقبه مدة ، ثم راح يتخيله في أوضاع وأشكال .

وسكتت الموسيقى عن العزف ، فصفق الناس استحسانا ، فعاد إلى نفسه وقد أحس تبرما ، فقد شغل عن الموسيقى ، وحرمت متعتها ، وشعر بضيق يستولى عليه ، فما باله لا يمد بصره إلى شيء أو يسمع شيئا أو يحس إحساسا حتى يحيله عقله إلى مادة لفنه ، إنه يود أن يتمتع بالدنيا كما يتمتع بها الناس . وفكر في أن يفر من فكره ، فرأى أن يدعو فتاة يعرفها من فتيات الملهى لتشاركه في جلسته ، إنها فتاة لطيفة خرجت معه مرات ، وقاسمته بعض لياليه . وأخرج ورقة خط فيها سطرا ، ودفع بها إلى النادل ليبلغها الفتاة ، وأقبلت بعد لحظات ، فصافحها في رقة ، ثم جذب لها مقعدا ، فجلست إلى جواره ، فابتدأ يحادثها صافي النفس ، ثم راح يرقبها .

كانت رائعة الحسن ، فلم يهزه حسنها ، ولم يمس وترا في قلبه ، ولكنه حرك فكره ، فجعل يتطلع إليها كما يتطلع إلى تمثال من الجمال يوحى بفكرة ، فيالشعرها السبط الفاحم السواد الذي صفف تاجا ، ويا للعينين الواسعتين



اللتين تطلقان سهاماً ، ويا للقم الفاتن ، والشفقتين الممتلئتين ، وراح خياله يخلق ، ولكن رن في أذنه صوته ، فعجب لحاله ، فقد شغل عن الفتاة الجالسة إليه ، وأحالتها إلى مشاهد وأفكار .

وأقبل عليها بنفسه ، وأصغى إليها ، فتحدثت وتحدث ، ولكن سرعان ما جذب حديثها فكره ، فجعل يصغى إليها بعقله ، ويختزن حديثها في واعيته ، فسيحتاج إليه يوماً ، ونهضت لتأهب للخروج معه ، وما أولته ظهرها حتى راح يفحصها بنظرة الفنان ، الذى يخشى أن تشرد منه شاردة .

وما اختفت عن عينه حتى تلملم ، فما بال فنه يفسد عليه سهرته ، إنه يود أن يمضى ليلة كما يمضيها أى رجل !

٣

وجاءت بعد أن تفتنت في إبراز فنتها ، فاصطحبها وخرج ، وانطلقا إلى الجزيرة . كانت الليلة من ليالى الربيع المنعشة ، فما هب النسيم رقيقاً حتى انتعشت روحه ، فمد يده وقبض على يدها ، فسرت نشوة في صدره ، وما أحس تلك النشوة حتى جعل يفكر فيها ، كأنما أحس إحساساً ، فأسرع يعتقله قبل أن يفر منه ، وضايقه ذلك التفكير الذى يحد من نشوته ، فشاء أن يتخلص منه بأن يندمج في إحساس فوار ، فضعها إلى صدره ، وراح يقبلها قبلة حارة ، نسي فيها نفسه ، ولكن ما رفع فنه عن فمها حتى هرع فكره ، ليسجل ذلك الإحساس .

وعاد إلى البيت حانقاً متبرماً ، فإنه لا يستطيع أن يرى الأشياء كما يراها الناس ، ولا أن يسمع الأحاديث كما يسمعها الناس ، ولا أن يحس

الإحساسات كما يحسها الناس ، ودخل فراشه وهو يحسب أنه غضبان ،
وحاول أن ينام ، ولكن كانت تتلاحق في مخيلته صور وأفكار ويعمل في
صدره شعور وإحساسات ، واكتملت الصور ، ونضجت الأحاسيس
فتنهض بدون ما تولد في ذهنه ، وما اعتمل في صدره ، في لذة لا يحسها إلا
الفنان .

شرف

هب نسيم خفيف ، فراح يداعب قطع الغسيل المنشورة في شرفات بيوت
الحى العتيق ، ويحرك الرايات الخضراء الممزقة التى كلح لونها ، والتى مرفوعة
أمام مقهى المعلم أبو سريع من أيام العيد التى انقضت منذ شهور ، وحمل صبي
المقهى الإناء النحاسى الأصفر المعد لغسل الفلجانات ، وراح يرش الطريق
الضيقة المتعرجة ، ليطفئ حرارة الأرض ويلطف الجو للرواد الذين ابتدءوا
يقدون مع الليل ، وشربت الأرض وارتوت واستمر الصبي يدور بإثائه
النحاسى الأصفر ينثر الماء نثرا ، ولم يكف حتى امتلأت حفر الطريق المبعثرة
هنا وهناك ، ففدت كبخيرات صغيرة متقاربة قد تعكس ماؤها وهذا
سطحها ، وراح المارة من الرجال يرفعون جلايبهم ، حتى لا تتلوث
أطرافها ، وما كان أحد من الجالسين ليحس مرورهم ، أو يلتفت إلى
حركاتهم ، وكانت النساء الملتفات بملاءات سود يرفعن أطراف ملاءاتهن ،
ويسرن على أطراف أصابعهن ، حتى لا تتلوث كعوب أقدامهن العارية
المدسوسة فى (شباشب) متباعدة ، فكانت السيقان العارية تبدو مشدودة ،
فتصوب العيون الخائنة إليها ، وتنطلق هتافات الإعجاب : « يا دين النبى »
« اسم النبى حارسك » « على مهلك يا غزال » .

وخيم الظلام قبل الأوان على المكان ، فقد كانت مبانى الحى متقاربة
متشابكة ، حتى ليخال إلى المرء أن فى مقدور الجارين المتقابلين أن يتصافحا

من النوافذ وابتدأت المحال الممتدة على جانبي الطريق تضيء مصابيح الغاز الخافتة ، فانبعث منها ضوء باهت مرتعش ، وأضاء المعلم أبو سريع مصابيح الكهرية ، فبهرت النظر ، وأعلنت عن المكان .

وخرج المعلم أبو سريع من باب منزله القريب من المقهى ، واتجه بجلبابه الأبيض النظيف ، ولاتته الحريرية المزركشة ، وسار بخطوات منتصب القامة ، مرفوع الجبين ، ثم ارتقى درجة ، فأشرف على المقهى ، ورفع يده إلى رأسه وقال في صوت أجش خشن « السلام عليكم » ، فرد الجميع في احترام ظاهر « السلام السلام » .

وتناول المعلم كرسيًا وانتحى جانبًا ، وجلس بالقرب من شيخين يتناولان « التعميرة » في هدوء ، وسقط النور على وجهه ، فبدأ أسمر اللون ، واسع الفم ، ضخم الأنف غزير الشارب ، في خده الأيسر أثر جرح عميق ، ورفع يده ، وراح يمرر أصابعه فوق فمه المطبق ، ثم تناول شاربته بين أصابعه ، وراح يقتله في خيلاء .

وساد الصمت قليلا بعد إقبال المعلم ، ثم عادت الضوضاء سيرتها الأولى ، فارتفع صوت صبي القهوة ينادى : « واحد تعميره نادية » ، « اتنين ينسون » .

وابتدأ باعة النهار الجوالون يعودون إلى حجرهم وأكواخهم . فكانوا يدفعون أمامهم عرباتهم في استسلام وخمول ، وابتدأ باعة الليل ينسلون من دورهم ، ويخترقون الطريق الضيق ، ييغون الميدان الفسيح ، وينتظرون رواد الليل ، ولاحت في نهاية الطريق عربة صغيرة ، قد صنعت جميعها من الزجاج ، ليس بها من الخشب إلا الإطارات ، وقد جهزت بمصابيح قوية تضيئها ، وأخذت العربة تقترب حتى وقفت في الضوء الذي فرشته المصابيح

الكهرية المتألقة في مقهى المعلم أبو سريع ، وارتفع صوت من كان يدفعها في نبرات منغمة « عاشورا مبشورة » .

انتشر الدخان في المقهى وتكاثف فعبق الجو وسيطر على المكان كسل وخمول ، وخرجت من الدار المواجهة للمقهى فتاة في الثالثة عشرة ، ممتلئة الجسم ، ناهدة الصدر ، حمرة اللون ، ترتدى جلبابا ضيقا قصيرا كشف عن ساقها الممتلئين وأظهر تفاصيل جسمها في إغراء ، وصارت تتخلع وتتمايل تمايل أغصان يداعبها النسيم ، فجعل جسمها يهتز كأنها زئبق يترجرج ، وما إن أحس الجالسون خروجها حتى التهب منهم الحواس ، ودبت فيهم الحياة ، وتحولوا إلى عيون .

وانجذبت زنوبة إلى بائع العاشوراء وتناولت صحنًا وراحت تلتهم ما فيه ، والتفت البائع إليها وابتسم ، والتقت نظرتها بنظراته ، فارتبك وقال مغازلا وهو لا يدرى : « على مهلك يا جدع » فضحكت زنوبة ضحكة طويلة ممدودة ، كهربت الجو ، فما بلغت آذان الشباب حتى سرت في أبدانهم رعشة للذينة ، وحتى تدفقت الدماء الحارة في العروق ، وهب أكثر من شاب ، وانطلقوا إلى عربة العاشوراء ، ليلتهموا زنوبة بعيونهم ، قبل أن يلتهموا ما في الصحنون التي دفعها الرجل إليهم .

كان المعلم أبو سريع يرقب ما كان يجري عند عربة العاشوراء في انتباه ، فامتلاً صدره غيظا ، وبان الضيق في وجهه ، وجعل يتحمل في كرسيه ، وينفخ في صوت مسموع ، ثم التفت إلى الشيخين الجالسين بالقرب منه وقال في تأفف : « أعوذ بالله ، بنت تستحق قصف رقبتها ، لو كانت بنتي لشربت من دمها » .

فرفع أحد الشيخين التعميرة عن فمه وقال :

— آخر زمن .

فقال المعلم أبو سريع :

— أين أهلها ؟ أين الغيرة ؟

فقال الشيخ الآخر في تحسر :

— لم يعد هناك غيرة يا معلم . الله يرحم أيامنا .

فقال أبو سريع وقد أمسك قميصه بين أصابعه ، وراح يحركه :

— والله إني لأغار من قميصي .

وانتهت زنوبة من التهام العاشوراء فناولت الرجل الصحن وسارت وكأئما كان هناك من يخزها بإبرة في خصرها الأيمن ، فينفر عجزها إلى الناحية اليسرى ، ثم يعود ويخزها في خصرها الأيسر ، فينفر عجزها إلى الناحية اليمنى ، أو لكأئما كانت ترقص على نقرات موزونة ، فنظر أحد الشيخين إليها من بين أهدابه المسبلة في إعجاب ، فقد كان في سالف العصر والأوان زير نساء ، وقد تاب — أو بمعنى أصح أرغم على التوبة إرغاماً — ولو كان به حركة لاشتهاها .

ونظر المعلم أبو سريع إلى بجسم زنوبة الرجراج نظرة تمن ، فإنه كان يريد لها ، ولكنه ما كان يريد لها لنفسه ، بل كان يرغب في أن يضمها إلى النسوة اللاتي في داره ، فلو أنه ضمها إليهن لضمن إرضاء شباب الحى الذين ابتدعوا يزهلون فيما عنده ، بل لضمن وفود شباب الأحياء المجاورة ، ولعاد إلى البيت عزه الذى ولى يوم ولى شباب أخته .

وأطرق المعلم أبو سريع يفكر ، وراح يعبث بأصابعه في شاربه المنتصب في خيلاء ، وقد رفع حاجبه الأيمن ، وضيق من عينه اليسرى ، فقد كان يفكر ، وطأطأ رأسه برهة ، ثم رفعها وقد أشرق وجهه ، فقد هداه فكره إلى (صدى السنين)

أن يبعث بأخته إلى زنوبة ، لتربط بينها وبينها الأسباب ، ولتدعوها لزيارتها ، واطمأن إلى فكره ، وأحس غبطة ، فعما قليل تكون زنوبة في داره ، وإنه من ذلك على يقين ، فإنه ليعرف أخته جيدا ، فهي شيطانة لا تعيها الحيل ، ولا يقف في سبيلها العراقيل .

ومرت أيام ، وأقبل أول الشهر ، ولاحظ المعلم أبو سريع أن الشقة الخالية في البيت المواجه لبيته قد نزلها سكان جدد ، فوقف في الشباك ، وراح يرقب الوافدين على الحى العتيق . فرأى فتيات منهوكات ، قد لطخن وجوههن بالمساحيق ، ليخفين شحوب بشرتهن ، ولحهن يرحن ويجمن في تراخ وخمول ، كأنما قد استيقظن بعد نوم طويل ليستقبلن وفود الليل ، وما كانت حركاتهن غريبة عنه ، فقد شب في بيت من هذه البيوت ، ومد بصره الحديدى يتفحص داخل الشقة ، فلم يجد كثير أثاث ، وما حاجة أمثالهن إلى الأثاث ، لأنهن اليوم هنا ، لا يعلمن كم يمكن ، فقد يمكن يوما أو بعض يوم ، وقد يمكن شهرا أو بعض شهر ، إن بقاءهن رهن بانكشاف أمرهن ، وعلى مقدار ما في الحى من غيرة و .. شرف !

وأحس المعلم أبو سريع ضيقا ، فما كان يظن أن يجرو غريب على أن يقتحم عرينه ، وينافسه في عقر داره ، وهبط إلى المقهى ، وتناول كرسيا ، وجلس بحيث استقبال باب البيت الذى نزله المنافسات الجديرات ، فقد عزم على أن يرقب الدار .

ومر أسبوع ، وخفت الرجل في دار المعلم ، وانحرف طلاب الشهوات إلى الناحية الأخرى ، فإن لكل جديد زهوة ، فلم يستطع المعلم أبو سريع صبرا ، فعزم على أن يستعين ببعض أعوانه ، ليتخلص من هذه المنافسة التى أضجرتها وأقلقتة ، وأن يعمل على أن يكسب تأييد الشيوخ واحترامهم ، فما

كان بمستطيع أن يفتح الشباب في هذا الأمر ، فإنه يفهمهم ويفهمونه .
وجلس المعلم أبو سريع في جلاباب أسود عتيق ، وفي يده « الحاجة » ،
وهي هراوة غليظة ، إذا حملها كانت نذير شر ، فإنه لا يحملها إلا إذا عزم على
شجار ، ووقف خلفه اثنان من أعوانه ، في يد كل منهما عصا طويلة ، وكان
كلما وفد وافد ، ورأى المعلم في عدة القتال قال مستفهما :
— كفى الله الشر !

فكان يرد عليه بابتسامة ، يحاول أن توحى بالثقة والاطمئنان ، حتى إذا ما
اكتمل عقد معامليه اتجه إلى ركن كان يحتله رهط الشيوخ ، وتكلف الثورة
والغضب ، فسأله أحدهم :
— خيرا ؟

— لم يعد هناك خير .

— مالك ثائرا اليوم ؟

فقال المعلم في ثورة وغضب :

— لقد ترك لنا أهلنا هذا الحى طاهرا ، فوجب أن نحافظ على طهارته .
— إنه طاهر يا معلم .

— ياليت ، لقد دنسته نساء عاهرات ، وما كان في حينافسق ، وما ينبغي
أن يكون .

— وعلام عولت يا معلم .

— على ذلك هذا البيت الفاسد ، وإن كان نصيبى في السجون ، لقد عشت
شريفا ، ولا أحب إلا أن أعيش شريفا ، إلى رجل أغار من قميصى .
ولوح بعصاه ، وسار مرفوع الرأس ، متفخ الأوداج ، ونخلفه عوناه .
فنظر الشيوخ إليه في إعجاب ، وغمغم أحدهم :

— رجل شريف .

فقال آخر :

— إنه أسد .

وهجم أبو سريع ومن معه على دار المنافسات ، وأعملوا عصيهم فيمن كانوا في الدار ، ففر الرجال ، ووعدت النساء بالرحيل ، وفي سكون الليل خرجت نسوة متسللات ، كما جئن متسللات ، وانصرف أبو سريع هادئ النفس ، مطمئن البال .

وفي صبيحة اليوم الثاني استيقظ المعلم أبو سريع بعد القيلولة ، فوجد أخته وزنوبة جالستين تتحدثان ، فانشرح صدره ، وهزه السرور ، فقد سقط الطير في القفص ، ونظر من النافذة إلى البيت المواجه ، وتطلع إلى شقة المنافسات ، فألفاها قاعا صفصفا ، فأنفجرت شفتاه عن ابتسامة فوز وتصبر ، فقد أصبح الحى له وحده ، لا ينافسه فيه منافس ، وفي داره تحفة جديدة ، يرجو أن تدر عليه الخير الكثير .

وخرج إلى المقهى متהלلاً الوجه ، راضى النفس ، وأقبل الشيوخ يصافحونه في حماسة ، والتفت إليه أحدهم وقال :

— عيني باردة عليك ، وجهك مضىء اليوم .

فقال المعلم أبو سريع وأصابعه تعبت بشاربه في خيلاء :

— ما أحلى الشرف يا أبا خليل ؟؟؟

رسالة حارة

عزيزى خيرى :

هذه الرسالة ليست بنت اليوم ، روادتنى فكرة الكتابة إليك أول مرة منذ شهور ، وأخذت تراودنى كل ليلة منذ ذلك اليوم . كنت أدخل غرفتى ، وأغلق على بابى ، وأتبعاً للكتابة ، ولكنى كنت كلما جلست إلى القرطاس لأبثك لواعج نفسى أحسست خجلى حائلاً بينى وبين تسطير ما أحس ، فما كان لفتاة أن تبعث إلى شاب لا يعرف عنها شيئاً — وإن كانت تعرف عنه كل شيء — برسالة تشكو له فيها ما تقاسى من وجد .

ظل ذلك الخجل يقهرنى حتى ليلتى هذه ، فقد دخلت إلى فراشى بعد أن اطمأنتت إلى عودتك من مقهاك ، وحاولت النوم ، ولكنى أرقى ، ولم تغمض لى عين ، وتقلبى فى فراشى كأنما أتقلب على جمر ، فقد تأمر على خيالى ، فأحضر صورتك أمام عيني فى شكول تؤجج النار فى الفؤاد ، فطغت إحساسات الحب ، فملأت صدرى ، حتى كادت تكتم أنفاسى ، فلم أجد لها منفساً إلا أن أقوم فى هجعة الليل لأسكب شواظ القلب على رسالة أبعث بها إليك ، لعل تارى تبرد ، وقلبى الذى أضنانى يهدأ ، والخيال الشارد السارح يثوب ، ويطوقنى ملاك النوم بجناحيه ، فيدثر نفسى القلقة الحائرة هدوء ، وإن كان هدوءاً إلى حين .

رأيتك يا حبيبى أول مرة بعد ظهر يوم لن أنساه ، كنت ذاهبة إلى

طبيب الأسنان ، وكنت عائدا من عملك ، فما وقعت عيناي عليك حتى
تملكنى إحساس غريب ، شعرت بروحى تهفو إليك ، وانطلقت فى طريقى ،
وما ابتعدت خطوات حتى تلفت خلفى لأمتع العين برؤيتك .

وانتهت زيارتى للطبيب ، وعدت إلى البيت ، فجلست فى الشرفة
أستروح نسيم الأصيل ، وفجأة شعرت كأن جناح حمامة يخفق فى جوفى ،
كان قلبى يضطرب ، رأيتك عيناي وأنت مقبل من دارك ، منطلق إلى
الميدان ، فقفز قلبى فى سرور الولهان .

تبعتك بعينى مضطربة النفس ، حتى إذا اختفيت عن ناظرى ظل قلبى
يتبعك ، وانقضى النهار وأقبل المساء وأنا أفكر فىك ، وجاء أوان مغادرتى
الشرفة ، وتحركت لأدخل إلى غرفتى ، ولكن لم يطاوعنى قلبى ، لم يشأ أن
يغادر الشرفة قبل أن يطمئن إلى أوبتك . مرت من الليل ساعات وأنا جالسة
أرصد الطريق ، فإذا لحت شبحا قادم حسبته أنت ، فتسرى فى بدنى رهبة
لذيذة ، وطال مكثى وما تسرب الملل إلى ، فقد كنت مفعمة بالنشوة ، لأنى
أرغب عودة رجل خفق له القلب .

علمنى حبك يا حبيبى أن الظلام مرتع خصب للخيال . راحت الأوهام
تنمو فى فكرى ، وتزدهر فى نفسى ، فتتشى روحى ، ويرضى فؤادى .
وفجأة اشتد وجيب قلبى ، رآك فى حلقة الليل قبل أن تميزك عيناي ، وبقيت
أتبعك بنظرى حتى اختفيت ثانية فى الظلام ، فغادرت الشرفة وأنا أحس خفة
وانشراحا .

صارت الشرفة مأوى ، فى الصباح أهرع إليها لاستجلاء طلعتك ، وفى
الظهر أنتظر عودتك ، وعند الأصيل أرقب خروجك إلى مقهاك ، أما الليل
فكان مسرح الأحلام .

فكرت مرة في أن أتبعك ، لعل أستطيع أن ألفت نظرك إلى ، فارتديت
ثيابي قبل موعد خروجك عند الأصيل ، ووقفت في شرفتي قلقة ، تتجاذبنى
خواطر تترجح بين الإقدام والإحجام : ولحتك قادما ، فاندحر ترددي ،
ووجدت نفسي أهول ، وأنطلق كأنما كنت واقعة تحت تأثير منسوم
مغناطيسي ، وهبطت الدرج قفزا ، ووصلت إلى الطريق وقلبي في حيرته
واضطرابه ، وأحسست رهبة تسرى من قمة رأسي إلى أطراف أصابع
قدمي ، مشيت في بدني رعدة ، وتدفق الدم حارا إلى وجهي ، وتلفت بعيون
زائغة ، فألفيتك تسير أمامي ، فأغذذت سيري ، حتى إذا اقتربت منك
ضيققت من خطوي ، كأن قوة خفية أرغمتني . وتبعتك على البعد ، كأنما
كنت منجذبة إليك ، حتى إذا لحتك تدخل مفهاك وقفت أديم النظر وأنا سعيدة ،
ثم عدت راضية من حيث جئت .

في يوم تقابلنا وجهها لوجه ، ولا أكذبك القول فأقول إنها مجرد مصادفة ،
فما أحب وأنا أعترف لك بحبي ، أن أكذب عليك ، كانت هذه المقابلة ثمرة
تدبير فكرت فيه ليالي وأياما ، يا طالما قابلتك في خيالي وابتسمت لك ، ثم
حدثتك وحدثتني ، ونعمنا باللقاء ، ولكن ما إن قابلتك في الحياة ، وهممت
أن أبتسم لك كما فعلت في الخيال ، حتى جهد وجهي ، وعز على الابتسام . فكرت
في أن أدعوك ، أن أهتف باسمك ، وفتحت فمي وأطبقتة ، ولم ينبعث منه
صوت ، تحطمت الألفاظ على شفتي ، فعدت إلى البيت حائقة على نفسي ،
وثار قلبي ، فأخذ يخزني وخزا ما أقساه .

ومرت على ليلة ليلاء ، ليلة لن أنساها ما حييت ، جلست في الشرفة
أرقب عودتك ، وكان الظلام يرخي ستوره السود ، والسكون يسيطر على
المكان ، فراح خيالي يرتع حرا طليقا ، ينعم بأعذب الرؤى وألطف

التخيلات . ومر الوقت ، ووافى ميعاد أوبتك ، فأرهفت منى الحواس ، وجعلت أتفرس أشباح الغادين ، لأطمئن إلى عودتك ، وانقضت ساعة ، ثم ساعة ولم تقع عليك عيناى ، فتحرك قلقي ، وثارت نفسى ، واستولى على ضيق ، وزاد فى كرى أن هجس فى صدرى هاجس جرح روحى ، راح يوسوس لى أنك تنعم اللحظة بحببية الفؤاد إذ كنت أنتظره وقد اندلع فى جوفى نار .

تحركت عقارب غيرتى ، وراحت تلسعنى لسعا ، وأحسست جمره نار فى حلقي ، وعبرات تخنقنى ، وحنقا يلفنى ، وتمتيت بكل جوارحى أن تعود ، لأنجو من ذلك العذاب ، ولكن الوقت راح يمر ولم تلمحك عيناى ، فمخطر لى أن أنسل فى هدوء الليل إلى مقهاك ، أنقب عنك حتى أستريح من حواسى التى تأمرت على ، ولكنى جيت عن تنفيذ ذلك الخاطر الذى طفق يلح على ، يؤازره القلب الواله الحيران .

وبرد الجو ، وصفرت الرياح ، فمشيت فى جسدى قشعريرة لم ألتفت إليها ، كنت شاردة فى تيه الخيال ، غارقة فى بحور الأفكار ، وأشرف الليل على الانقضاء وأنا فى مكاني ، وأخيرا انسلت من الشرفة محطمة النفس مهيضة الجناح .

وأشرقت الشمس ، وتسلفت إلى غرفتى ، وما إن فتحت عيني ورأيت الضياء ، حتى شعرت بخوف يسرى فى صدرى ، خشيت أن يكون ميعاد خروجك إلى عملك قد انقضى ، وكتب على ألا تكتحل عيناى ذلك اليوم برؤيتك ، ولكنى شعرت بثقل فى جسمى عاقنى عن النهوض ، فتحسست جبهتى بيدي ، فالفيتها تكاد تنصهر ، لقد سقطت فريسة للحمى ، وما فطنت إلى هذه الحقيقة حتى ارتجفت ، لم أرنجف لمرضى ، بل خشية أن

أهذى باسمك ، فيتبدى مكنون نفسي ، ويفضح سر قلبي الذي ائتمنت عليه
ضلوعى ، وطويت عليه صدرى .

ولازمت الفراش ، وراحت الدقائق واللحظات تمر وئيدة بغبيضة ،
وعادنى طيفك فى ساعات صحوى ، فأنعش روحى ، وأرضى قوادى ، وفى
يوم من أيام مرضى لججت فى التفكير فيك . وأخذت أناجيك ، حتى غلبنى
النوم فرحت فى سبات ، وفيما أنا غارقة فى نومى رأيت كأنما أنا وأنت فى
حديقة رائعة ، تفتحت أزهارها ، وغنت أطيافها ، نخطر خفافا على زرع
أخضر بهيج ، وقد انسدل شعري على كتفى ، فأخذ النسيم يداعبه ، وأنت
ترنو إلى فى عطف .

ولحنا نهرا فهرولنا إليه مسرورين ، حتى إذا بلغناه ألفيناه من لجين ،
ووجدنا زورقا رائعا زين بالزمرد والياقوت ، انثر فيه الورد والياسمين ،
فركبنا فيه ، وأخذنا نجذف فى البحر العجيب ، وقد سرى صوت سماوى
أخاذ يغنى بأعذب الألحان ، فعبث بقلبيننا ، فملأنا نشوة ، وفاسضت
سعادتنا ، فالتصق رأسانا .

والتفت إلئى وفى عينيك حب ، ولففت ذراعيك حولى ، وضممتنى
إليك ، ولم أستطع أن أحتمل السعادة التى كنت فيها ، فاستيقظت خافقة
القلب ، مرهفة الإحساس ، وما إن هدأت مشاعرى حتى أخذت أفكر فى
حلمى اللطيف ، منشرحة الصدر ، راضية النفس ، قريبة العين .

وكأنما كان ذلك الحلم الحبيب البلم الشافى لمرضى ، فما أشرق شمس
النهار حتى أبللت مما كنت أقاسى ، ولكنى لم أبرأ من حبى ، فما ملكت قواى
حتى هرعت إلى الشرفة خافقة الفؤاد ، أرقبك فى الغدو والآصال ، وطغى
حبى وقاض فلم يعد يسعه جوفى ، ولم يعد يقنع بسبحات الخيال ، وطمع فى أن

يغمر الحبيب بالإحساسات الفوارة .

إننى أكتب إليك وليس لى على نفسى سلطان ، قهرنى حبي ، وتمرد على قلبى ، واستبدى وأرهقنى ، حتى أرغمنى على أن أكتب إليك ، فنزلت على حكمة مقهورة ، وإن كان فى ذلك طعنة لكبريائى نجلاء .

القلم يرتجف بين أصابعى ، وقلبى يطفو ويغوص ، وعلى على كلمات ، والعرق البارد ينبثق من جبينى ، ليتنى أستطيع أن أعصى ما يأمر به قلبى ، ولكن هيهات ، فما هى ذى يذى تسطر ما يمليه القواد .

سأنتظرك عند محطة الترام فى الميدان ، فى الساعة الخامسة من مساء يوم الخميس ، ولن أذكر لك عنوانى ، حتى لا تجيب بأنك لا تستطيع أن توافينى فى ذلك الميعاد ، فإنى أريد أن أحيأ الأيام الباقية وأنا سعيدة ، يداعينى أمل لقياك . وإلى ذلك اليوم المرتقب أتمنى لك ولنفسى أسعد الأحلام .

« فتحة »

وطوى خبرى الرسالة وهو نشوان ، يحس خدرا الذيدا ، فما دار بخلد أن هناك من تحبه هذا الحب العارم الجبار . كانت حياته مجدبة قبل أن تصل إليه هذه الرسالة الحارة . فما كان ممن يتفيعون ظلال واحة الخيال ، كان يضرب فى صحراء الحياة محدود الآمال ، ولكن ما إن قرأ هذه الرسالة حتى شرد بصره ، وفتحت فى رأسه أبواب التصورات .

راح يفكر فى فتحة ومن تكون ، وما شكلها ، وتفتق ذهنه فراح يجلب له ممثلات السينما الحسان ، فيستعير لفتحة من هذه قوامها ، ومن تلك نضارتها ، ومن ثالثة عينيها النجلاوين ، ومن رابعة صدرها الفاتن الرائع ، واسترسل فى تخيلاته حتى تجسعت فتحة فى ذهنه نموذجا للحسن والجمال . وخرج إلى الطريق ، وسار يتلفت يمينا ويسارا ، وفوق وتحت ، يتفرس فى

الشرفات ، فلمح أكثر من فتاة جذابة ، تصلح أن تكون صاحبة الرسالة النابضة بالحب والحياة ، طفق يوزع ابتساماته هنا وهناك ، لعل ابتسامة منها تكون من نصيب فتحية ، فتنزل السكينة بالقلب الوهان .

وخطر له أن يحى من في الشرفات الممتدة على جانبي الطريق بكلمات يديه ، كما يفعل الزعماء ، والأبطال ، فابتسم لذلك الخاطر الساخر الذى اقتحم عليه خياله في هذه اللحظة الحاسمة من لحظات حياته ، لحظة التنقيب عن الجميلة التى فتحت له قلبها قبل أن يطرقه ، ووهبت له السعادة والحب .

انطلق وهو يحس كأنما بعث خلقا جديدا ، إنه محبوب ، وما أسعد أن يكون المرء محبوبا ، وتدفقت في عروقه دماء حارة ما أحس حرارتها قبل يومه ، وسرى في صدره أمل حلو أنعشه ، وأحيا نفسه من الموت .

ولمح في شرفة من الشرفات ، فتاة جذابة ، ممشوقة القد ، دقيقة الخصر ، تهدل شعرها الكستنائى المتموج ، فأخفى في دلال جزءا من وجهها الحلو الناصع البياض ، زادها حسنا ، وبدت ذراعاها البضتان كأنما خرطتا من الشمع ، خفق قلبه لجمالها الآسر ، الذى يلعب بالقلوب ، ويعبث بالرجال .

وقف يرنو إليها مذهولا ، وبقي مدة ، ثم انتبه إلى نفسه ، وراح يتلفت حوله ، قرأى رجلا مسنا أبيض الشعر ضعيل الجسم ، محدودب الظهر ، جذب حسنها عينيه ، فراح يتفرس في جمالها ، ويتلفت نحوها كلما خطا في الطريق خطوات ، فابتسم خيرا مزهوا ، فجمال من أحبته سبى الرجل الفانى ، وجعله يتلفت وفي عينيه إعجاب ، كشاب فوار الحواس .

وأشرق وجهه بابتسامة عذبة ، ومرر يده على شعره نحية ، فخيل إليه أنها ابتسمت له ، ومدت يدها تصلح شعرها المتهدل ، فانشرح صدره ، وصدق

ما حزره قلبه ، إنها هى بعينها ، فتحية التى بعثت إليه برسالتها الحارة ، ترد عليه تحيته بتحية مثلها .

وسار فى طريقه وهو نشوان ، سره أنه اهتدى إلى فتحية ، ووجدها نابضة بالحياة كرسالتها ، ووسع فى خطاه ، فقد دب فيه نشاط غريب ، وما إن بلغ الميدان حتى أحس رغبة فى أن يعود ويتطلع إلى فتحية ، فدار على عقبه ، وقفل عائداً من حيث جاء ، فلما لاح له الشرفة ظلت عيناه متعلقتين بها ، وانداح فى صدره خدر لذيذ .

ودنا من الشرفة ، فخفف من خطوه ، ورفع رأسه ، وراح ينقل فيها عينيه ، وقد تحرك فى جوفه اضطراب شهى . كانت شفتاها ممتلئتين مغريتين ، ووجنتاها فى لون الورد ، وعيناها آسرتين ساحرتين ، فانبعث من عينيه بريق أخاذ ، وسار الهوينى وهو يتلفت ، حتى اختفت الشرفة عنه . وعاد إلى داره ، فاسترخى فى مقعد وثير ، وأخرج الرسالة ونشرها ، وراح يعيد تلاوتها ، فغمرته نشوة أعظم من النشوة التى غمرته أول مرة ، إنه يرى الآن بعين خياله فتحية : بشعرها الكستائى المتموج ، ووجهها الحلو الصبيح ، توجه إليه خطابها فتتشله من دنياه المحدودة ، لترفعه إلى عوالم رحيية من السعادة والهناء .

وضع الرسالة على ركبته ، وأطلق لخياله العنان ، فرأى نفسه وفتحية فى تلك الحديقة البديعة التى رأتها فى منامها ، وهما يهرولان إلى النهر الرقراق ، ثم يتجهان إلى الزورق الرائع . ويركبان فيه ، وينطلقان ليسبحا فى عالم السعادة ، وقد أسند رأسه إلى رأسها ، واسترسل فى تخیلاته ، فألقى نفسه يضمها إلى صدره فى وله ، ويمطرها بقبلاته الحارة ، فأحس وهو فى مقعده نشوة عارمة .

وتبدل خيري ، دب فيه نشاط بعد خمول ، واستيقظت حواسه بعد سبات ، وسبح خياله ، فهم في سماوات التصورات ، بعد أن كان مشدودا إلى الأرض ، وصار يعتنى بهندامه ، يقف أمام المرأة سويعات ، وما كان يرتدى جاكته إلا وهو هابط في الدرج لا يلوى على شيء .

وراح يحيا على الأمل ، يعد الدقائق والساعات ، يرصد يوم الخميس في قلق ورجاء ، وما انبلج صبح ذلك اليوم الموعود ، حتى فتح صوان ملابسه ، وأخذ يتفرس في حلله ، يقلب هذه ، ويفحص عن تلك ، حتى اطمأن إلى حلة رمادية جذابة فتناولها ، ونادى الخادم الصغيرة ، وأمرها أن تذهب بها إلى الكواء .

واتجه إلى حيث يضع أحذيته ، وانتقى منها حذاء وضعه في عناية بالقرب من المشجب ، ثم ارتدى ملابسه وخرج إلى الطريق ، وسار نشيطا ، حتى إذا بلغ الشرفة لم يجدها أحدا ، فانقبض ، وترث قليلا لعلها تقبل فيتسم لها ، مؤكدا أنه سينظرها في الموعد المضروب ، ولكن مرت لحظات دون أن تفد إلى شرفتها ، فانطلق وهو يحس ضيقا ، لكن سرعان ما انقشع ضيقه ، فقد خطر له أنها تتأهب للقاء الذي يهفو إليه قلبها .

وذهب إلى عمله وهو جدلان ، راح يداعب زملاءه طلق الوجه ، ولم يستطع أن يطوى صدره على سره ، فأخذ يقص عليهم قصة الفتاة الفتانة التي أحبت ، وبعثت إليه تلمس منه أن يوافقها اليوم ، لتطفئ لهيب الغرام ، وأرضى ذلك الحديث غروره ، فجعل يحدثهم عما سيفعله بعد اللقاء .

وانقضى ميعاد العمل في الديوان ، فأسرع بالعودة وهو فرحان ، وما بلغ أول الطريق الذي يقطن فيه ، حتى سرى في جوفه قلق لذيذ ، ومد بصره إلى شرفتها فلمحها ، فرقص قلبه سرورا ، وأغذ السير ، حتى إذا أصبح تحت

شرفتها رفع رأسه ، وافتر ثغره عن ابتسامة ، فخيّل إليه أنها تبادله الابتسام ، فسار إلى بيته وهو هيمان .

وجلس إلى طعامه ، وما إن ازدرد لقيمات حتى عافت نفسه الطعام ، كان شارد اللب ، مشغولا بما يجري في رأسه من رؤى وتخيّلات ، فنهض وغادر السفرة ، وذهب إلى مقعد طويل تمدد فيه ، وأرخص لخياله العنان .

راح يفكر فيما سيفعله عند اللقاء ، فرأى أن يذهب إلى مصر الجديدة ، ثم يستقلا سيارة إلى كازينو مونترو الضارب في صحراء المأظلة ، لينعما بالهدوء وهواء تلك المنطقة الجاف ، واستراح إلى تلك الفكرة ، ولكن سرعان ما قفزت إلى رأسه فكرة أخرى ، إنها رأت في منامها أنهما بذرعان حديقة بديعة ثم انطلقا إلى زورق راح يتهادى بهما في نهر صاف رقيق ، فلماذا لا يحقق لها في الحقيقة ما رآته في المنام ؟

واطمأن إلى ذلك الخاطر الجديد ، فقرر رأيه على أن يذهب إلى قصر النيل ، بجوسان خلال حدائق الجزيرة كفرأشتين طليقتين ، ثم يركبان زورقا من الزوارق المنتشرة هناك ، يخطر بهما في النيل ، عند الأصيل ، فيمتعان الطرف بمشاهدة الغروب القاتن ، الذي يملأ النفوس بالجلال .

وأخذ الوقت يمر وهو غارق في بحور النشوة المستمدة من الخيال ، ودقت ساعة الحائط الرابعة ، فأحس رنينها في نفسه ، ارتفعت دقات قلبه ، وأرهفت مشاعره ، وزحفت إلى صدره رهبة خفيفة .

وقام يتأهب للانطلاق للقاء ، فذهب إلى المرأة ، وقرب وجهه ، وراح يتفرس في صقالها ، فألقى شعرة نابذة في خده ، فجذبها بالملقاط ، ثم أخذ يرجل شعره اللامع ، وارتدى قميصا أبيض هههاقا ، وتناول رباط عنق جذابا . راح يعقده في حرص ، ومد يده إلى العقدة لتحسسها في رفق ، ليزيل



ثنية خفيفة في طرفها .

وتناول حلتها الرمادية في حرص بالغ ، ثم ارتداها ، وأخذ يصلح من هندامه ، ويمد يده إلى المنديل المتدلى من جيبه ، يرفعه قليلا ، ثم يخفضه قليلا ، ثم يعود ليرفعه ، حتى إذا استراح إلى وضعه تقهقر خطوة ، وجعل يفحص عن صورته في المرآة .

وأخذت اللحظات تمر في ببطء ، فطفق يذرع الغرفة صاعدا هابطا ، وقد سيطر عليه اضطراب مشوب بلذة ونشوة ، وخطر له أن يقرأ رسالتها ، فمد يده ، وأخرجها وراح يقرأها خافق القلب ، مرهف الحواس .

ونظر إلى الساعة ، فألفاها الرابعة والثلاث ، فتعلمل في ضيق ، واتجه إلى الشرفة ، ووقف يستنشق الهواء ، ولكنه لم يطق أن يبقى فيها طويلا ، فدخل يقطع الحجرات جيئة وذهابا في حيرة واضطراب . واستقر رأيه أخيرا على مغادرة الدار ، فراح يهبط في الدرج متمهلا ، حتى يحافظ على رونق حلتها .

وسار يتهادى ، حتى إذا بلغ شرفها زاد وجيب قواده ، ورفع عينيه فلم يجدها ، فسرت الطمأنينة في صدره ، إنها الآن أمام المرآة تتأهب للقياء ، آه لو تدرى لأسرعت بالهبوط ، لينعما بأسعد الأوقات ! وبلغ الميدان ، فوقف عند محطة الترام ، يمد بصره إلى الطريق الذي ستقبل منه فتحة بقامتها المشوقة ، ووجهها الحلو الصبيح ، الذي يزينه عينا صافيتان رائعتان ، وفم في لون العقيق ، يغرى باللثم والعناق .

ونظر في ساعته ، فارتفع نبضه ، وزاد خفقان قلبه ، وسرى الدم حارا في عروقه . إن هي إلا عشر دقائق ثم تقبل فتحة بذاتها اللطيفة . يا طالما حادثها في الخيال أرق حديث ، وإن هي إلا لحظات حتى يناجها في الواقع الملموس ، الذي يفوق سحره سحر الخيال أعذب مناجاة ، وراح يغدو ويروح على

الطوار ، وعيناه ترقبان منفذ الطريق ، الذى ستقبل منه الفتنة والإغراء .
ووقعت عيناه وهو يتلفت على فتاة مقبلة نحوه ، إنها تبسم له وإن ابتسامتها
تسع وتسع ، فرمقها فى دهش ، فما كان يحسب أن تبلغ الجرأة بفتاة أن
تغازل شابا مثل هذه المغازلة المفضوحة ، ودنت منه وهمست :
— لقاء سعيد يا خيرى بك .

ومدت يدها تصافحه ، فأحس رأسه يدور ، وقلبه يغوص فى قدميه ،
وضيقا ينتشر فى صدره ، إنها فتاة سمراء ، مفلفة الشعر ، واسعة القم ،
جاحظة العينين ، أنفها أقرب لأنوف الزوج ، وقد انتشر فى وجهها بقع
سوداء زادت فى دمايتها .

وهمس فى صوت مفزوع :

— فتحية هائم ؟!

فانفرج فمها الواسع عن أسنانها الصفراء ، فوقف مذهولا لا يدري ما
يفعل ، بعد أن انجلت لعينيه الحقيقة البشعة ، ثارت إحساساته وامتزجت ،
حتى كاد يتعطل تفكيره ، وأقبل الترام ، فصعدت فتحية مسرعة ، وصعد
خلفها دون أن يدري .

وأخيرا أفاق من المفاجأة البغيضة ، والترام يجد فى سيره وقفزت إلى رأسه
فكرة ، فنهض مسرعا ، وقفز من الترام ، وراح يعدو برهة وهو من الخوف
يتلفت !

غنية القصير

وقف أمام المرأة يصلح من هندامه وهو شارد اللب ، فقد كان يحاول أن يمسك بأطراف أفكاره التي انتشرت في ذهنه كأبخرة لم تبلور ، لينسج منها قصة ، وخطر له أن يستعير ملامحه لبطل روايته ، فتفرس في صورته المتعكسة على صفحة المرأة ، وأدام النظر إلى وجهه الأبيض المستدير وعينييه الواسعتين ، وحاجبيه اللذين كانا يبدوان كأنما قد رسما بقلم من الفحم ، وشفتيه الرقيقتين ، كانت صورته مقبولة ، وعضلاته مفتولة وعلى الرغم من ذلك لم يرض عن صورته يوما ، فقصر قامته حال بينه وبين الرضا ، فكان يشعر في قرارة نفسه بشيء من الهوان ، وإن حاول جاهدا ألا يبدى إحساسه بهذا النقص الذي يضايقه .

وأقبلت زوجته ، فلمحها في المرأة في ثوب بديع أبرز جمال تكوينها ، فرفع رأسه قليلا ليرنو إلى وجهها الخلو الدقيق ، فقد كانت أطول منه قامة ، فرأى خصلة من شعرها قد تهذبت على وجهها ، فزادت من فتنتها ، ولحها وهي تمد يدها لتعيد الخصلة إلى مكانها ، وتحرك رأسها الصغير حركه لطيفة ، فراح يرقبها وقد ارتسمت على شفتيه طلائع ابتسامة . كانت مصدر إلهامه ، ومنبع وحيه ، ولطالما أوحى إليه بأفكار .. فجما لها الرائع كان ينبت في صدره وسوسات ، فكان يغذى وساوسه بخياله ، حتى تترعرع في ذهنه ، وتستوى قصة .

وارتديا ثيابهما ، وخرجا معا إلى الطريق ، فراحت تخطر كحللم رائع

هادئ ، وسار إلى جوارها وقد نفخ صدره ، وزها كالطاووس ، لا تبها
بالتحفة النادرة التي تشاركه في حياته بل تحديا للغادين والرائحين ، فقد كان
يتلفت يمنة ويسرة يرقب عيون الناس ، فإذا رأى رجلا يصوب إلى امرأته
نظره السفیه ، رماه بنظرة نائرة غاضبة عابسة فيرغمه على أن يغمض من
بصره ، ويوسع من خطوه ، كان رنو الأبصار إلى زوجه يحنقه ويضايقه وقد
يسر هذا الحنق وهذه المضايقة قصر قامته وخیاله الخصب .

انطلقا وهو منتفش كالديك ، واقتربا من فاكهي جوال فارع الطول ،
يملاً وجهه شارب ضخيم قل ورفع ، حتى كاد طرفاه المديان يمسان الأنف
المفلطح الكبير ، فرفع بصره إليه ، فألفاه يتطلع إلى زوجه في فضول بغيض .
بعينين براقتين ، فشعر بحنق شديد ، ورماه بنظرة شرر غاضبة ، فلم يحفل
به الرجل ، ولم تحتلج عيناه خلجة واحدة ، بل ظلتا مصوبتين إلى الجمال
اللطيف الأسر للقلوب والأبصار ، فشعر الزوج بعضلات وجهه تتقلص
ويعرجل غضبه يغور ، ولكنه كظم غيظه وانطلق ، وما ابتعد عن الرجل
خطوات حتى صك أذنيه صوته المنغم ينادى :

— أنا في حبك ظلموني يا حلو .

فتدفق الدم حارا إلى رأس الزوج ، وشعر بشواظ من نار تسرى في
عروقه ، وأحس عقدة من الحنق تعقد في جوفه ، فتضيق من صدره ،
وانتفض من الغيظ ووقف وهو يلتقط أنفاسه في ثورة وجهه ، وهم بأن يدور
على عقبيه ، ليعود لذلك المتغزل الوقح ، فيحطم له وجهه ، ولكن زوجته
فطنت إلى ما يدور في رأسه ، فمدت يدها وجذبتة بخفة من ذراعه ، فرفع
وجهه إليها فرآها ترنو إليه عاتبة ، فكبح جماح نفسه ، وكبت عواطفه النائرة
وانطلق نافخا صدره ، يتلفت يمنة ويسرة ، منفوشا كالديك .

كانا قد خرجا لزيارة أخت زوجته ، فلما اقتربا من دارها التفت إلى زوجته وقال :

— لن أستطيع أن أمكث معك طويلا ، عندى موعد هام .
كانت زوجته تعلم شدة غيـرته ، ولطالما أضنتها هذه الغيرة ، فقالت
لتسكن في صدره الطمأنينة :
— انتظرنى لتعود معا .

— لا . يمكنك أن تعودى وحدك .
ودخلا على الأخت ، فألقياها وحيدة ، فأنشـرح صدر القصير ، وطفق
يمد بصره ، ويدور بعينه في المكان ، فلم يلمح أحدا فشعر بطمأنينة ،
وانتشت روحه ، ولكن لم تدم طمأنينته طويلا ، فسرعان ما غاضت وانتشر
في صدره قلق لما أقبل عديله وصافحه ، ثم اتجه إلى زوجته بصافحها ، وبيـالغ
في الترحيب بها .

كان عديله أسمر اللون ، عادى الملايح ، ولكنه كان محدثا لبقا ، وكان
طويلا ، فكان هذا من أسباب نكد القصير ، وكان يضايقه لباقتـه في
الحديث ، فلو أنه كان عينا لما أنصتت زوجته إليه ، ولما انشـرحت لما يرويه من
أحاديث . جلس صاحب الدار وهو يرحب بها ، ثم أخذ يروى قصة وقعت
له في أسلوبه الفكـه ، فضحكت الأختان ، فشعر القصير بيد قوية تهـصر
قلبه ، وبطعم الصاب من فيه ، فتـململ في كـرسيه ، فقالت زوجته :

— لن نستطيع أن نمكث طويلا .

فقالت أختها :

— ولماذا ؟

— حامد عنده موعد هام .

— يذهب إلى مواعده وابقى معنا .

وقال صاحب الدار مجاملا : .

— وسأوصلك عند عودتك إلى دارك .

فتحركات عقارب الغيرة في صدر حامد ، وجعلت تلسعه . ولم يطاوعه قلبه الغيور أن يترك زوجته لرجل غريب وإن كان عديله ، فقال وهو يتسم ابتسامة كادت تفضح ما يكنه صدره .

— أوه تذكرت .

فقال زوجته باهتمام :

— ماذا ؟

— الموعد غدا لا اليوم .

واستأنفوا أحاديثهم ، وشرذ ذهن حامد ، فقد كان يفكر فيما كان المتوقع حدوثه لو انصرف وترك زوجته لعديله . رآهما في الخيال سائرين جنبا إلى جنب ، هي بقوامها المشقوق ، وهو بقامته المديدة ، وما كان يستطيع أن يتصوره صامتا ، فرآه يتحدث إليها متفكها ، ويتودد إليها في ظرف ، وهي تنصت إليه جذلاثة ، كما تنصت إليه الآن . واستسلم لخياله ، وتبها لينسج ما يوحى به خياله المريض ، ولكن ضحكات رنت في أذنيه ، قطعت عليه حبل تفكيره ، فانتبه واغتصب ابتسامة ، ليوهم الآخرين أنه يشاركهم حديثهم ومرحهم .

ولم تدم انتباهته طويلا ، فسرعان ما شرذ ذهنه ثانية ، وجعل يجتر حوادث قصة كتبها ، كانت تشبه ما يجول في ذهنه الساعة ، ولم يفتن من قبل إلى أنها تترجم عن إحساسات اللحظة ، لعل نفس الإحساسات التي يحسها الآن ، بلذت في صدره دون أن يدري من أول يوم رأى فيه عديله ، ثم ترعرعت هذه الإحساسات فحسب أنها من وحى خياله ، فكتبها دون أن يفتن ، إلى أنه

كان يترجم عن مخاوفه ووساوسه .

كانت القصة تدور حول شاب وزوجته ، وأختها التي تعيش معهما ، وفي يوم كشف الزوج أنه يحب أخت زوجته . فحاول أن يكتم إحساسه ، وأن يثد حبه ، ولكن حبه كان طاغيا جارفا ، فاجتاح الحوائث ، وهجر الزوج زوجته ، وفر مع من أحبها .

هنا ما حدث في القصة ، وهو ما يتصور الآن أنه سيحدث في يوم من الأيام ، لو أنه ترك كل شيء يجري في مجراه ، ولكنه لن يدع ذلك يحدث ، سافر بزوجته من طريق عديله ، ولن يسر لهما المقابلة بعد اليوم ، وما وصل تفكيره إلى ذلك حتى هب متصبيا ، وأشار برأسه لزوجته ، فنهضت وانصرفا ، وقد وطن العزم على أن يخاصم عديله ، ليحول بينه وبين زوجته ، وليدرك ما يهدده به خياله المريض من أحداث .

وراح يبدى نفورا مستترا من عديله كلما قابلته ، ويسخر منه سخريات مغلفة بغلاف رقيق من النوق ، ويستفزه ويخز كبرياءه وخزا ، فتحلم الرجل ، واعتصم بالصبر الجميل ، ولكن ذلك الصبر أحرق حامدا ، فراح يفسره بأن الرجل يحتمل أذاه لإرضاء لزوجته التي يهواها ، فكشف عن نفوره ، وهتك الغلاف الرقيق الذي كان يغلف به سخرياته ، وجعل يجرح كبرياء الرجل ، فحلت الجفوة بينهما ، وامتنعا عن التزاور ، فتنفس القصير في اطمئنان ، وهذا صدره المكروب ..

ولم يدم هذا الهدوء طويلا ، ولن يدوم ما دام حامد يشعر في أعماقه بالهوان لقصره ، ويدع نفسه مطية ذلولا لخياله المريض ، ففي يوم مرضت الزوجة ، وعادها أكثر من طبيب ، فقرروا علاجا يحتاج إلى بعض العناية ، وفضلوا انتقالها إلى مستشفى تمرض فيه ، كانت الزوجة تفضل أن تعالج في بيتها ،

ولكن القصير راح يقنعها بأفضلية العلاج في المستشفى ، فافتنعت .
ودخلت الزوجة المستشفى ، وأقبل حامد في عصر ذلك اليوم ، الذي
دخلت فيه ليزورها ، وسار منبسط الوجه ، هادئ النفس ، حتى إذا ما دخل
غرفتها ، ورأى طبيبا شابا بجوارها وهي تبسم ، أو خيل إليه ذلك ، اكفهر
وجهه ، وتلبد بغيوم الغيظ ، وثارت نفسه ، وهب خياله يغذيه بشكوكه
فيضنيه .

كان الطبيب معتدل القامة ، فيه وداعة محبة ، يرنو إلى زوجته بعينين
جذابتين ، وهو قابض على معصمها بحس نبضها ، فأحس غيرته تكساد
تعصف به ، وشعر بوخز في صدره ، وبجفاف في حلقه ، وتذكر أنه كتب
قصة حول طبيب كان يعالج فتاة ، فتوطدت الألفة بينهما على مر الأيام ، ثم
تطورت إلى حب عميق ، إن هذا الطبيب الشاب الوسم ، سيقابل زوجته
الجميلة في الليل والنهار ، فما يدريه أن هذه المقابلات لن تتطور إلى ألفة ، ثم
إلى حب عميق ؟

وأطرق وقد نزل بصدره ضيق ، وخرج الطبيب ، وبقي وحده فلم
يحادث زوجته ليرفه عنها ، بل ظل فريسة طيعة لأفكاره ، التي أخذت تعذبه
وتضنيه ، وفيما هو في إطراره ، أحس حركة عند الباب ، فرفع رأسه ، فرأى
عديله وزوجته ، فزاد امتعاضه واستياؤه وزاد كربه ، أما يكفيه الطبيب حتى
يأتيه العديل !

وانترع ابتسامة كانت تقطر مقنا ، ومد يده يصافح الأيدي الممدودة ،
ولم يبد ترحيبا ، وانطلق العديل إلى فراش المريضة ، وجلس على حافته ، فما
وجد مقعدا في الحجرة ، وراح يحادثها متلطفا محاولا التخفيف عنها ، فكانت
تبسم فشعر حامد بسكين تمزق قلبه ، وبأظافر حادة تنهش صدره . ومر

الوقت ثقيلًا بغيثًا ، وأخيرًا انصرف عديله وزوجته ، ولكن حامد لم يحس ارتياحًا ، فالخطر جاثم هنا في هذا المستشفى ، يهدده في كل لحظة ، وفي كل ساعة .

وشرد ذهنه ، فرأى الطبيب بعين خياله بجوار زوجته ، يقامته المعتدلة ووجهه المشرق الصبيح ، فانقبض ، ورأى عديله يأتى فى الصباح ، وفى المساء ، فباب المستشفى مفتوح ، فزاد انقباضه ، وأقبل الليل ، فتراكمت فى مخيلته أفكاره السود ، فعزم على ألا يترك المستشفى ، قبل أن يأخذ زوجته معه ، فلن يدعها لعديله ، ولذلك الطبيب .

اقترب من زوجته وقال :

— سنعود إلى البيت الآن معا .

فبان الدهش فى وجه الزوجة ، وقالت فى عجب :

— ولماذا ؟

— لا أحتمل دخول البيت ، وأنت بعيدة عنه .

وحزرت زوجته ما يكابده من وساوس ، فنهضت ترتدى ثيابها لتنصرف معه ، فقد كانت تعلم أنه عنيد ، وانفلتا من المستشفى متسترين بالظلام ، وأسرع فى سيره ، ليفتر بزوجه من المصير الذى صور له خياله المريض !

قَصْرٌ فِي الْبَحْثَةِ

رفع بصره عن الكتاب الذي كان يقرأ فيه ، ونظر إلى ساعته ، فألفى أن
ميعاد ذهابه إلى الزمالك لزيارة خطيبته قد اقترب ، فوضع الكتاب المطبوع في
ورق أصفر على حافة مكتبه الأنيق ، ثم نهض ليتأهب للخروج .

إنه شاب متوسط القامة ، متناسب التقاطيع ، حلو القسمات له عينان
سوداوان ، وأنف دقيق ، وفم صغير يحرسه شارب خفيف ، تلوح عليه
البراعة والصفاء ، تلقى علومه في الجامعة ، والتحق عقب تخرجه بوزارة
الخارجية ، وعشق القراءة ، فما كان يغادر داره بعد عمله إلا لماما ، ولكنه ما
كان يقرأ الكتب الحديثة أو الكتب العربية القديمة ، بل كان يهوى الكتب
انصفراء التي تبحث في الجنة والنار ، والبعث والحساب ، وقصص الأنبياء
والأولياء ، وحكايات الصالحين والمتصوفين ، فيقبل عليها في شغف ولذة .
وكان إذا تعب من قراءته يجلس إلى أمه وأقاربه ، يصغى في اهتمام إلى
القصص العجيبة التي يرددونها عن الأقطاب ، الذين كشف عنهم الحجاب ،
أو يقص عليهم بعض النوادر التي قرأها في كتبه الحبيبة عن الأولياء ، الذين أتوا
في كل خطوة معجزات يعجز عنها الرسل !

كان متدينا ، وما كان يعرف دينه الصحيح ، فقد شب وهو يصغى إلى
البدع ، ويتلقى تعاليم دينه من أفواه العوام وأمه العجوز .
دخل غرفته ليرتدى ملابسه ، وفتح الصوان ، وأخرج حلة فاخرة ،

وقميصاً أبيض هفهافا ، وهم يتبدل ثيابه ، ولكنه تذكر أنه سيمضى الوقت بين المغرب والعشاء فى بيت خطيبته ، فذهب يتوضأ حتى لا تفوته الصلاة . وليس ثيابه ، وخرج يتلفت ، فلما لمح سيارة قادمة أشار إليها ، ثم ركبها ، وانطلقت به وهو غارق فى غمرة من النشوة . فقد احتلت فكره صورة خطيبته الشابة الجذابة . وأمام قصر فاخر من قصور الزمالك وقفت السيارة ، فهبط منها فى عظمة ، وتقدم فى ثبات ، وأقرأ البواب النوى السلام ، وسار فى الحديقة المنسقة تنسيقاً بديعاً بضع خطوات ، ثم راح يصعد فى الدرج الرخامى الفاخر ، فى تودة ووقار ، وقلبه يخفق فى جوفه طرباً .

ودخل غرفة الاستقبال ، وغاص فى مقعد وثير ، وراح يتلفت فى إعجاب ، كان كل ما فى المكان ينطق بالبذخ والروعة ، فالصور الزيتية التى تزين الحيطان تسلب الألباب ، والرياش الفاخر والطنافس الفخمة ، والأثاث الرائع ينتزع الإعجاب ، وسمع حركة ، فنظر صوب الباب ، فرأى خطيبته قادمة بقامتها المشوقة فى ثوب وردى ، فبدت كملاك ، فخفق قلبه فى صدره ، وانتصب واقفاً ، وأقبلت تخطر فى خفة الغزال ، فلما دنت اقترن ثغرها عن ابتسامة عذبة ، أضاءت نفسه ، فابتسم فى انشراح ، ولكنه لم يقدم يده ليصافحها ، كان يخشى أن تنقض وضوءه .

وقعدت وقعد ، وجعل يرنو إلى وجهها المليح وهو جذلان ، ويتحدث إليها وهو نشوان .

وأقبلت حماته ، فنهض وحيها فى أدب ، ولم يصافحها ، وجلسوا يتحدثون ، ومر بعض الوقت ، وفر النهار ، ووفدت طلائع الليل ، ورأت الحماة أن تنهض ، منتظاهرة بقضاء حاجة ، لتخلي الجو للمخطيين ، فقامت مستأذنة ، وغادرت المكان .

ورنت الفتاة إليه بعينها الرائعتين ، وقد انبعث منهما بريق خاطف عبث
بأوتار قواده ، وألقت رأسها إلى الخلف فتهدل شعرها السبط الخالك السواد
كليلة ظلماء ، وزمت شفيتها المتلفتين ، فكانت فتنة ، إنها تهيأت للقبل ،
وباتت تنتظر أن يهوى بشفتيه على شفيتها ، وصدرها في علو وانخفاض ،
وغض من بصره ، وقال في صوت خافض :
— سجادة الصلاة من فضلك .

فنهضت وهي نحس خيبة ، وانطلقت متبرمة لتحضر ما طلب ، وما غابت
عن عينيه حتى أخذ يلتقط أنفاسه المكروبة ، ويجفف العرق المنبثق من جبينه ،
وعادت وفي يدها سجادة جديدة لم تستعمل من قبل ، زخرفت برسوم
وعماويل تشغل العابد عن صلاته ، فتناولها منها شاكرا وفرشها ، وخلع
حذاءه ، ووقف يصلى في خشوع .

وغاصت في مقعد وثير ، ووضعت ساقا على ساق ، فأنحسر ثوبها عن
الفتنة والإغراء ، وأخذت تنظر إليه وقد انتشرت في صدرها سحائب من
الضيق ، وجاءت الأم ، فلما ألفتة قائما يصلى لوت شفيتها السفلى ، وقعدت
بعد أن فطنت إلى أنه ليس هناك ما يدعوها إلى انتحال الأعذار لمغادرة المكان .
والتفت إلى اليمين وهو يسلم ، فوقعت عيناه على الساقين الجميلتين ،
فأسبل جفنيه ، ثم التفت في سرعة ناحية الشمال ، ونهض وهو يتسمم
بالاستغفار ، وقالت له الأم وهي تبتسم :

— حرما ..

فقال في حرارة :

— جمعا إن شاء الله .

وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ، ويتذاكرون ما فعلوه استعدادا لليلة

الزفاف .

وعاد إلى داره وهو يحس خفة ، وفرحا يلفه ، فقد جلت تلك الزيارة صدره ، ودخل فراشه ، وأطلق لخياله العنان . فأخذ يجتر ما حدث له في يومه ، رأى خطيبته وهي ترنو إليه بعينها الساحرتين في وله وهيام ، وقد ألقت رأسها إلى الخلف ، واستدارت للقبل فاضطرب ، واستيقظت مشاعره الكوامن ، وانبعث من جوفه صوت راح يؤنبه على أنه لم يضمها إليه ويقبلها قبلة حارة ، تترجم عما يكنه لها من حب ووجد ، إنها خطيبته وعما قليل تصبح زوجته ، فلماذا لا يداعبها مداعبة لطيفة ، ويناجيها مناجاة رقيقة ، ويهمس في أذنها بحديث عذب يدغدغ حواسها ، وينعش قوادها ؟

وظل ذلك الصوت يحرضه على أن يبدى لها حبه حتى استجاب له ، فعزم على أن يعتصرها إذا ذهب لزيارتها ، وأن يغمرها بقبلاته ، وأن يسمعها وجيب قلبه الولهان . وما كاد يستريح إلى ذلك العزم حتى هب خاطر جديد قوض ذلك العزم ، وجعله ككثيب من الرمال .

تذكر أن صديقا من أصدقائه خطب فتاة ، فكانا يخرجان معا ، يقضيان شطرا من الليل في الملامى ودور اللهو ، يعبان كهوس الحب مترعات ، وفي لحظة من لحظات النشوة انطلقا في حيهما حتى النهاية ، فلم يفزعا ، فما كان يفصل بينهما وبين ليلة الزفاف إلا أيام ، وقيل الليلة الفاصلة وقعت حادثة ذهب ضحيتها الشاب ، خلفا خطيبته للذل والعار .

واحتلت هذه الذكرى أقطار نفسه ، فمشت في يديه رعدة ، ولفه خوف ، ونكص عن عزمه ، وصمم في نفسه على ألا يرتكب ما قد يقوده إلى مثل تلك النهاية البغيضة ، فما يدري ما تخبئه الأقدار ؟

وفي عصر يوم من الأيام ، دخل مكتبه ، وأخذ يقرأ « حكايات

الصالحين » ، ومر الوقت وهو في مطالعته ، حتى بلغ حكاية استحوذت عليه ، فراح يقرأها مرهف الحس مشغوفا ، وما أتمها حتى أغلق الكتاب وهو مفعم بالنشوة ، وغادر مكتبه ، وذهب ينقب عن أمه في غرف الدار .
ألفاها جالسة بالقرب من النافذة تستنشق الهواء ، وتقطع الوقت بالتطلع إلى الغادين والرائحين ، فدنا منها وقال في صوت خافت :

— هنيئا له .

فالتفتت أمه إليه ، وقالت في استفسار .

— من ؟

— شاب رأى ما أعد له في اللجنة قبل أن يموت .

فنظرت إليه أمه وفي عينيها اهتمام ، وقالت :

— كيف ؟

فقعد بالقرب منها ، وتبها للحديث ، ثم قال :

— خرج جيش من جيوش المسلمين يغزو أرض الروم . وكان في ذلك الجيش شاب يصوم النهار ويقوم الليل ، وجعل ذلك الجيش يتقدم في زحفه ، حتى حاصر حصنا من الحصون ، وفي ليلة من الليالي خرج ذلك الشاب فيمن خرج ، ليحرس القوم ، فظل يتعبد دون نصب أو كلال ، فلما طلع الفجر دنا منه رجل ، وقال له : « إن لنفسك عليك حقا ، إن رحمتها كانت خيرا لك » فقال له الشاب : « يا أخي ، إنما هي أنفاس تعد ، وعمر يقنى ، وأيام تنقضى ، وأنا رجل أرتقب الموت » . فجعل الرجل يقسم له أن يدخل الخيام ليسترخ ، فدخل ونام ، وفيما هو في نومه أتاه رجلان لم ير أحسن منهما ، فسلما عليه ، فرد عليهما السلام ، فقالا له : « أبشر فقد غفر ذنبك ، وشكر سعيك ، وقبل عملك ، واستجيب دعاؤك ، وعجلت لك البشرى ،

فانطلق معنا حتى نريك ما أعد الله لك من نعيم .
فانطلق معهما ، وإذا يخيل لا تسبقها خيل ، كأنها البرق الخاطف ، أو
هبوب الريح ، فامتطوها .

وانطلقوا حتى انتهوا إلى مجالس ذات أسرة من ذهب وهاج ، مكللة
بالجواهر ، محفوفة بكراسي من اليواقيت ، وعلى كل سرير جارية أحسن من
القمر ، وفي وسطهن جارية أحلى من الحسن ، وأنضر من الورد ، كأنها
الشمس تحف بها الأقمار ، فقال الرجلان للشاب : « هذا منزلك ، وهؤلاء
أهلك ، وهنا مقيلك » ثم انصرفا عنه ، فوثبت الجوارى إليه بالترحيب ، ثم
حملته حتى أجلسه على السرير الأوسط ، إلى جانب الجارية اللميحة ، ثم قلن
له : « لقد طال انتظارها لك » .

وأخذ الشاب والجارية يتجاذبان أطراف الحديث ، قال الشاب : « أين
أنا ؟ » فقالت الجارية : « في جنة المأوى ! » فقال : « ومن أنت ؟ »
فقالت : « زوجتك الخالدة » ، ومد يده ليضمها إليه ، فردتها ردا رفيقا ، ثم
قالت : « أما اليوم فلا ، فإنك راجع إلى الدنيا ، فتقيم ثلاثة » . فقال لها : لا
أحب أن أرجع » . فقالت : لا بد من ذلك » .

واستيقظ من نومه لا صبر له عنها ، ثم قام فتطهر وتطيب ، وأخذ
سلاحه ، وتوجه إلى موضع القتال وهو صائم ، فقاتل إلى الليل ، ثم
انصرف ، فتحدث الناس بقتاله ، ثم مكث قائما يصلي حتى آخر الليل ، ثم
أصبح صائما يقاتل أبلغ مما فعل بالأمس ، فلم يزل يلقي نفسه في المهالك إلى
غاية النهار ، وهو لا يصل إليه شيء مما كانوا يرمونه عليه ، وظل يتقدم كليث
كاسر كشر عن أنيابه حتى بلغ باب الحصن ، وجعل يعالجه حتى فتحه ، وفي
هذه اللحظة جاءه سهم في منخره فخر صريعا ، وصعدت روحه إلى جنة

المأوى ، لتتعم بالزوجة الخالدة .

وصمت قليلا ثم غمغم :

— هنيئا له .

وقالت أمه في ابتهاج وهي ترنو إلى السماء من النافذة :

— اللهم عدنا !

وأطرق يفكر في الجنة وقصورها .

وأفاق من حلم يقظته ، فنهض يتأهب للذهاب إلى قصر الزمالك ، ليقدم لخطيبته هدية .

ودنا من القصر ، فلمحه البواب النوى ، فهب واقفا يرحب بمقدمه بشا ، وقد لمعت عيناه وأسنانه البيضاء في رقعة وجهه السوداء ، وراح يصعد في الدرج الرخامي متمهلا ، وهو ينمق مقالة رقيقة يقدم بها هديته .

وقادته الخادم إلى شرفة رحبة ، تطل على حديقة الدار ، فراح يقلب ناظريه في الورود والأزهار ، ويمأأ رثيته بالعبير الفواح وهو نشوان ، وجاءت في ثوب سماوي أبرز فنتتها ، وما إن وقعت عيناه عليها حتى خفق قلبه ، ورففت على شفثيه ابتسامة ترحيب ، وحيته في رقة ، وجلسا يتحدثان .

كان يتلفت نحو الباب بين لحظة وأخرى ، يرصد إقبال حماته . وكان يرجو من كل قلبه أن تقبل ، وأن لا تغادر الغرفة حتى لا يتفرد بخطيبته ، ولكنها لم تظهر ، فقال في رقة :

— أين ماما ؟

— خرجت .

فأحس رهبة تنتشر في صدره ، وتمايل في جلسته ثم دس يده في جيبه ، وأخرج علبة فأخرة من القطيفة ، وقدمها إليها وهو يقول :

— تفضلى .

وسكت ولم يتفوه بكلمة من المقالة التى غمقها ، فتناولت اللعبة وفتحها ، فانبسطت أساريرها .. كانت هديته عقدا من اللؤلؤ ، فراحت تقلبه وهى تقول دون أن ترفع عينيها عنه :

— متشكرة .

ورفعت العقد بين يديها ، ثم وضعت على جيدها ، وحاولت أن تشبكه حول عنقها ، ولكنها وجدت عتتا ، فالتفتت إليه وعيناها تفيضان بالبشر ، وقالت :

— تسمع !؟

واستدارت له ، فمد يده وجعل يشبك العقد فى أناة ، وإن كان الدم يتدفق حارا فى عروقه ، وقلبه يخفق فى شدة اضطراب ، وثارت مشاعره ، وتآمرت عليه ، فجعلت تهتف به أن يحتويها بين ذراعيه ، وأن يضمها إلى صدره الذى اشتعلت فيه النار ، وأن يهوى على عنقها بقبلة تطفئ ذلك اللهب .

وكاد يضعف ويستجيب لهوائف نفسه ، ولكن خيل إليه أنه فى قصر فى السماء ، وقد التف حوله الوصيفات ورحن يهتفن به : « مهلا حتى يتم الزواج » ، فكبت عواطفه التى كانت تمور فى صدره فوارة دافقة .

ونهضت بقامتها المشوقة ، واتجهت إلى مرآة قريبة لترى العقد فى جيدها : فأخذ يتبعها بعينين براقتين وفى جوفه ثورة ، ورأى أنه لو مكث أكثر من ذلك فقد تقهره رغبته ، فوطن النفس على الفرار .

أقبلت تخطر فى روعة ، وجلست إلى جواره ، وقد التصقت كتفها بكتفه ، فأحس ديبب النمل يسرى فى جسمه ، وملأت رائحتها الزكية أنفه ،



فدار رأسه ، وكاد يضعف ، ولكنه ملك نفسه ، ونهض وهو يقول :

— أرجو أن تسمحى لى بالانصراف .

فنظرت إليه وقد اتسعت حدقتها ، وقالت :

— هكذا سريعا ؟

— إني ذاهب لقضاء بعض الحاجات .

فقال في دلال :

— انتظر حتى تعود ماما .

ولو طأوع نفسه لجلس ، ولكنه كان يخشى ذاك السكون الخيم عليهما ،

وتلك التزوات التى كانت تستبد به أحيانا كإرد جبار ، فقال :

— بلغى تحيائى لماما .

ومد يده وصافحها ، فألقى نفسه يضطد على يدها في خفة ، ويجذبها إليه

قليلا ، فلمعت عيناها بريق أخاذ ، وتضرجت وجنتاها بحمرة ، فقد تدفق

الدم الفوار إلى وجهها ، وترددت أنفاسها سريعة ، فاضطرب وإن كانت

النشوة قد ملأت أقطار نفسه .

وغادرها وأخذ يقطع الردهة الطويلة في خطا واسعة . وصدره مسرح

لإحساسات متضاربة ، انتشرت فيه مشاعر الحب نائرة مزججة ، كما انداحت

فيه راحة لطيفة لانتصاره على هوائه ، وبلغ الدرج الرخامى ، فراح يهبط فيه

متمهلا ، ولفحه النسيم المنعش ، فهدأت ثورة مشاعره .

وفي ذات يوم خرج ليشتري بعض أشياء ، وفيما هو سائر لمح جنازة

متواضعة في طريقها إلى مسجد الحسين ، فوقف يتشهد ، وخطر له خاطر ،

لقد سمع من أمه ومن خالطهم ، أن من يحمل ميتا ويسير به إلى قبره يبنى له

قصر في الجنة ، فلماذا لا يتقدم ويشارك في حمل النعش ، فيضمن لنفسه قصرا

يغص بالجوارى والولدان والخور العين ١٩

واستولى عليه ذلك الخاطر ، واطمأن له ، فتقدم ثابت الخطو ، وحمل
النعش ، وقد انتشرت في جوفه إحساسات الرضا ، وسار ووجهه منبسطة :
وما فطن إلى أن الناس قد وقفوا يرمقونه في دهش ، كان الرجل الوحيد
الأنيق ، في جنازة من الحفاة ولابسي الجلابيب الزرقاء .

وانطلقت الجنازة ، ووقفت شابة ومسيدة تنظران إلى ذلك الأنيق الذي
يحمل النعش ، وما وقعت عيونهما عليه حتى أنكرتا ما رأتا ، وأخذتا يتبادلان
النظر في دهش ، كانتا خطيئته وأمها ، خرجتا لاستكمال بعض الحاجات قبل
ليلة الزفاف .

وغصمت الأم في أسى :

— يا للفضيحة !

واربد وجه الفتاة : ولاح فيه الحلق الشديد والغضب الثائر ، وأحست
خنجرًا يطعن كبرياءها ، ففكرت في الفرار ، ولكنها عادت وصممت على أن
تدنو منه ، لترى أنها قد رآته في موقفه الشائن ، فجذبت أمها من يدها وقالت
لها :

— تعالى .

واندفعت إليه ، وأخذتا تحملقان في وجهه وعيونهما تقذف حمما من
الغضب ، ووقع بصره عليهما فارتبك ، ولكن لما ابتعدتا عنه أقلع ارتباكها ،
ولج في سيره ، حتى لا يقروض القصر الذي بدأ يئنه في السماء .

وبلغت الجنازة مسجد الحسين ، فوضع حمله ، وعاد مهرولا ، ينقب عن
خطيئته وأمها هنا وهناك ، وقد تفصد عرقه ، ولما يئس من أن يعثر عليهما ،
عزم على أن يذهب لزيارتها بعد صلاة المغرب .

وقضيت الصلاة ، فانطلق في سيارة إلى الزمالك ، وهو يحس قلقا ، ولما وقفت السيارة أمام القصر ، زاد ارتباكه ، وهبط منها وهو يضطرب ، وتقدم في خطا ثقيلة وهو يتلفت ، وقع بصره على البواب النوى ، فألقاه متجهما ، فانقبض وأحس خوفا . ودنا من البواب ، وقال في صوت متهدج :

— السلام عليكم .

وهم بالدخول ، ولكن البواب لم يفتح الباب ، وقال في لهجة خشنة :

— إلى أين ؟

فقال في تخاذل :

— الهاتم فوق ؟

— الهاتم لا تريد أن تقابلك .

وقف مشدوها لا يدري ما يفعل ، وثارت كرامته وغضب وتركه البواب وغاب في غرفة صغيرة ، وعاد وفي يده لفافة ، دفعها إليه وهو يقول :

— وقد نصحتني أن أعيد لك هذه .

تناول اللفافة في تراخ ، وقفل عائدا منقبض النفس ، مطأطئ البصر ، لقد أعادت إليه هداياه ، وقطعت كل ما بينه وبينها من سبب ، وسار حزينا محطما ، وفي ذلك اليأس المرير قفزت إلى ذهنه فكرة ، بددت بنورها الظلام الذي يحيم على كهف صدره ، فغمغم :

— إن كنت خسرت قصر الزمالك ، فقد كسبت قصرا في الجنة !

قصة بحار

سمعت طرقا خفيفا على باب مكتبي ، كان متاهيا في الرقة ، ففطنت إلى أن صاحبه يحاول أن يوحى إليّ أنه رجل مهذب ، لا يحب إقلاق الناس ، وإن حضرت أنه صاحب حاجة ، جاء إلى الديوان يلتمس منفذا لحاجته ، فقلت :
— تفضل .

فدلف إلى الحجرة إنسان قمىء ، ترف على فمه ابتسامة ، وما إن وقعت عيناه عليّ حتى حنى رأسه في أدب وقال :

— حضرتك مصطفى بك ؟

— نعم . أية خدمة ؟

— لي موضوع هنا أحب أن أعرضه على سعادتك .

فأشرت إلى كرسي قريب مني ، وقلت :

— تفضل .

وقعد وسحب الكرسي واقترب مني وقال :

— تقدمت في مناقصة لتوريد زيوت للوزارة ، ورسا على العطاء ، وحدد

يوم ١٠ لانتهاؤ التوريد ، ومضى ذلك التاريخ ، ولم أستطع تنفيذ العقد ، كان التأخير لأمر خارج عن إرادتي ، اشترت من تجار كثيرين ، ولم أتسلم الزيوت في الميعاد الذي اتفقنا على أن أتسلمها فيه ، ولقد قرروا هنا الشراء من السوق على حسابي وتحميلي فرق الأسعار ، ولو تم ذلك كان فيه خرابي .

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟

— أن تمد أجل التوريد .

— هذا ليس من شأنى ، هذا من اختصاص وكيل الوزارة .

— قيل لى إنك تستطيع أن تقنع الوزارة بتمدد أجل التوريد . أرجو منك أن

تفعل شيئا ، اشتريت بكل أموالى زيتونا ، سأسلمها قريبا ، فإذا لم أوفق فى

مد أجل التوريد ، فسأصاب بكارثة .

— سأهتم بهذا الموضوع .

— أرجو منك .. مستقبلى بين يديك .. لن أنسى هذه المكرمة ما

حيث .

وصافحنى الرجل وهو يشد على يدى ، وخرج وهو ينحنى فى أدب .

وجلست أكتب مذكرة للوزارة أطلب فيها امتداد أجل التوريد ، وذهبت إلى

الوزارة ، وقابلت هذا وذاك ، وتمكنت بعد لآى أن أحصل على الموافقة

المنشودة ، وأخطرت الرجل ، فجاء إلى يسعى ، يزجى لى عبارات الشكر

والتقدير .

ومرت أيام ، ووفد إلى مكتبى ذلك الرجل القمىء ، يتسم فى رقة ،

وينحنى فى احترام ، فلما وقعت عيناي عليه قلت :

— خيرا ؟

— أتممت التوريد ، ولم أصرف بعد ثمن ما وردت .

فاستفسرت عن سبب تأخير الصرف ، فعلمت أن هناك بعض

الإجراءات لم تستوف بعد ، فوعدت الرجل خيرا ، وانصرف من عندى

وهو يكرر الشكر ، ويدغدغ أذنى بعبارات الشاء .

وما انقضى على انصرافه يومان حتى تسلمت رسالة سرية من الوزارة ،

ففضضتها فإذا بها شكوى من ذلك الرجل القمى . يتهمنى فيها صراحة أننى
أتعمد تأخير صرف قيمة الزيوت التى أتم توريدها ، فانتشر الضيق فى
صدرى ، وأحسست دماء حارة تتدفق فى عروقى ، وشردت قليلا ،
فتذكرت قصة الحذاء ، فخدمت ثورقى ، وارتسمت على شفتى ابتسامة
زراية . كانت تلك القصة البلسم الشافى لنفسى ، كلما أساء إلى من أحسنت
إليه :

كنت رئيسا لفريق كرة القدم بالمدرسة الابتدائية ، وفى يوم من أيام
الخميس جاءنى ثلاثة أقارب لزملاء لى فى المدرسة ، وقالوا لى :
— سنتبارى اليوم مع فريق من فرق الحى ، ونحب أن تلعب معنا ، إنها
مباراة هامة ، إذا فزنا فيها انعقدت لنا بطولة الحى .

فاعتذرت بأنى أرسلت حذاء الكرة للإصلاح ، ولن يتم إصلاحه قبل يوم
الجمعة ، فقال أحدهم :

— عندنا أكثر من حذاء .

وقال آخر :

— عندنا حذاء جديد يليق بك .

وعرضوا على أن أذهب معهم ، فانطلقنا إلى دارهم يتملقوننى ،
ويتحدثون عن براعتى فى اللعب ، وأنا مطرق حياء ، حتى إذا بلغنا البيت ،
دلفنا إلى غرفة بها أرائك عتيقة ، وبعض أحذية الكرة ، وملابس مبعثرة ،
أجلسونى فى الصدر وغاب أحدهم ، وعاد يقدم لى كوب شراب الليمون ،
فشربته وقد شاعت فى نفسى إحساسات الرضا ، وقدموا لى حذاء جديدا ،
فخلعت حذائى ، وهممت بلبس حذاء الكرة ، فامتدت أكثر من يد تعاوننى
على لبسه ، وأخذت أذرع الغرفة جيئة وذهوبا ، وأنا أنظر إلى الحذاء ،

وأضرب به الأرض ، فقال أحدهم :

— رائع .

فذهبت إلى الأريكة ، وجلست ورفعت رجلى لأخلع الحذاء ، فإذا بأصوات تقول في استنكار :

— ماذا تفعل ؟

— أخلعه .

— لا .. لن تخلعه .

— لماذا ؟

— سيبقى في قدميك حتى تذهب به إلى الملعب .

فقلت في إنكار :

— أسير في الطريق وفي قدمي حذاء الكرة !

— كلنا نفعل ذلك .

ولفوا حذاءي في ورقة ، ووضعوه تحت إبطي .

واستأذنت في الانصراف ، فعرضوا على أن أتغدى معهم ، وألحفوا في العرض ، فاعتذرت بأنني لم أخبر أهلي ، وهبطت إلى الطريق ، والثلاثة من حولى ، حتى إذا بلغت رأس الشارع ودعوني في حرارة ، فانطلقت وأنا نشوان ، هزتنى تلك المعاملة الطيبة ، ومست شغاف قلبي .

وذهبت إلى الملعب ، وما إن لمخوني قادما حتى خفوا إليّ مرحبين

وأحاطوني بعطفهم ، حتى غرقت في السعادة .

وبدأت المباراة ، فعقدت العزم على أن أبذل غاية ما في وسعي من مجهود ،

فهذا أقل ما أقابل به ذلك الكرم .

ووفقني الله ، فسجلت لهم إصابة ، ثم أردفتها بأخرى ، وانتهت المباراة

وقد فازوا بهاتين الإصابتين ، وتفرقت الجموع ، وأقبل الثلاثة إلى يهرولون ،
فحسبتهم قد خفوا إلى يزجون آى الشكر وعبارات الإطراء ، فرقص قلبى فى
جوفى ، وإن تدفقت إلى وجهى دماء الخجل .
قال أحدهم وهو ملهوف :

— الخذاء ؟

فقلت فى بلاهة :

— ماذا ؟

— نريد الخذاء .. اخلع الخذاء .

فقلت فى إنكار :

— الآن ؟

— نعم الآن .

— ليس معى خذاء آخر ، ولا أستطيع أن أسير حافيا .

— هذا ليس من شأننا ، نريد الخذاء .

— تعالوا معى إلى بيتنا .

— لا .. إتنا نريد الخذاء .

وجلست على الأرض مقهورا ، وقبل أن تمتد يدى إلى رباط الخذاء ،
امتدت أكثر من يد ، وما هى إلا لحظات حتى كنت فى الأرض الفضاء
وحدى ، عارى القدمين إلا من الجورب .

هذه هى قصة الخذاء التى أتذكرها كلما وقعت على إساءة ممن أحسنت
إليه ، فتجلب على شفتى بسمه ازدراء ، وتنزل بصدري تلك الراحة التى
يحسها من فقد إيمانه بالناس .

فارسى وامرأة

١

أتم منصور الرواية التى كان يقرؤها ، فطواها وهو يزفر زفرة ارتياح ،
ولاح فى وجهه انشراح ، ووضعها على ركبتة ، ثم ألقى برأسه إلى الخلف ،
وأسيل عينيه ، وأخذ يجتر فى لذة وشغف فعال البطولة والشهامة التى قام بها
البطل ، ثم ما لبث كما هى عادته ، أن أقحم نفسه فى غمار الحوادث ، فانتزع
من البطل بطولته ، وتسربل بها ، ورأى نفسه بعين خياله فارسا مجلى يركب
الصعاب ويقنحم الأهوال ، ويقاسى فى سبيل حبه النبيل أشد المقاساة ، حتى
ينعم فى الختام بالحبيبة ربة الطهر والعفاف .

رزق منصور بسطة فى الجسم ، وقوة فى الذراعين ، وسذاجة لا تنفك
ومظهره الجبار ، وكان فى قرارته راضيا عن نفسه كل الرضا ، مع أنه لم ينل
إلا قسطا ضئيلا من التعليم ، ثم اضطرتة قسوة الحياة أن يحترف حرفة لتدر عليه
رزقا ، إلا أن ذلك لم يفت فى عضده ، بل راح يعمل على أن يثقف نفسه
بنفسه ، فعكف على قراءة الروايات ، فشغف بها حبا ، فما كان يسير فى
الطريق ، إلا وفى يده رواية ، وما كان يرى فى البيت إلا قارئاً أو ساجداً فى بحور
الخيال .

وباتت أمنيته فى الحياة أن تهبط عليه من السماء ، فتاة كتلك الفتيات

الرائعات ، اللاتي يهبطن على أبطال الروايات ، يرعاها بعطفه ، ويغمرها بحبه ، ويشها مكنون نفسه ، ويكافح في سبيلها ، وينافح عنها حتى تخلص له وحده ، ويعيشا في سعادة وهناء . وكان يرى فتاته بعين الخيال ، في لحظات التأمل التي تعقب قراءة الروايات ، لذلك ما كانت تستقر على حال ، بل كانت تتغير وتتبدل بتغير البطلات ، فمرة سوداء الشعر بيضاء البشرة ، سوداء العينين ؛ ومرة ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ، ومرة سمراء خفيفة لطيفة . وما كان يغوص في نفس فتاته ، فما كانت الروايات التي يقرأها لتهم إلا بالمظهر الخارجي الجذاب للفتيات ، إن كل ما يطلبه أن تكون مثال العفة والوفاء .

وظلت أمنيته تداعبه في خلوته ، فعاش يترقب اللحظات السعيدة التي ستبسط عليه فيها حبيبة الفؤاد ، لتحيل حياته الفارغة إلى قصة جذابة ، ينعم في عالمها الواقعي بما ينعم به في دنيا الخيال ، وكان يؤمن في نفسه ، أن القدر يخبيء له مفاجأة كذلك المفاجآت السعيدة التي يدخرها مؤلفو الروايات ، لينحورها أبطالهم مكافأة لهم على ما قاسوه من مشقة وحرمان ، وكان يعتقد أن ذلك لن يتأخر طويلا ، ولكنه ما كان يدري على أية صورة من الصور البهيجة ، ستقع هذه الحادثة المرتقبة ، فما كان يرفع بصره عن الروايات ليرى الفتيات اللاتي يملأن الدنيا حوله حياة ..

وفي صباح يوم من أيام الصفاء ، خرج منصور من داره ، ولم يكن في يده كتاب ، فقد أتى قبل طلوع النهار على الرواية التي كانت معه ، انطلق ساهما يقطع الطريق التي اعتاد أن يذرعها كل يوم في ذهابه إلى العمل ، فقد كان مشغولا بنفسه ، يحادثها وتحادثه ، وملأ خياشيمه فجأة عير حلول نفاذ ، فإذا فتاة على قيد خطوات منه ، راعه منها دقة خصرها ، وتناسب جسمها ،

وحسن تكوينها ، فوسع في خطاه ، حتى إذا ما حاذها أحس رعدة خفيفة تسرى فيه ، والتفت إليها يتفرس في وجهها ، فبهره جمالها ، وكان قد وطن نفسه على أن يهمس لها همسات إعجاب ، ولكن بريق العينين الواسعتين ألجم اللسان ، فتأخر قليلا ، وراح يتبعها كلما أخذ الذي فقد الحواس .

وبلغت محطة الترام ، فوقفت تنتظر ، ووقف على بعد خطوات منها يعن النظر ، وهمس في جوفه هامس بأنها فتاة الأحلام التي هبطت عليه من السماء ، فرنا إليها رنوة حبيب ولهان ، وأقبل الترام فقفزت إليه في خفة الغزال ، فشعر بقلبه يخفق في صدره خفقات ، فلبث قليلا شاخصا يبصره إلى الترام ، ثم استأنف سيره وهو يفكر في الفتاة ، رآها في الخيال تسير بالقرب منه ، ورأى نفسه يللم أطراف شجاعته ، ويهرع إليها يحيطها في جراءة ، فترد تحيته بابتسامة عذبة ، فيحادثها وتحادثه حديثا حلوا يشرح الصدر ، ويبهج الفؤاد ، وأحس نشوة تملأ نفسه ، ولكنه لم يركن إلى هذه النشوة طويلا ، فإن هذه الصورة البسيطة من صور التعارف لم ترض خياله الجموح ، فراح يجتر مشاهد الروايات ، فرآها أول ما رآها في عربات السفر ، التي تجرها الجياد تقطع القفار . ورأى نفسه على صهوة جواد في أعلى الجبل ، يرقب العربية المنطلقة في الفضاء ، وإذا بالجياد تجمع فجأة ، فتطلق كريح عاصفة لا تلوى على شيء ، فيلوى عنان جواده ، وينحدر كسيل جارف حتى يبلغ الجياد الجامعة ، فيقفز فوقها ، ويجذبها من أعنتها ، وقبل أن يتم هذا المشهد في ذهنه ، زال ليحل مكانه مشهد آخر لا يقل عنه روعة وفخامة ، رآها سجين في قلعة من قلاع العصور الوسطى وهو في عدة الفرسان شاهرا سيفه ، ينزل الرجال ، ويجدل الأبطال ، ليصل إلى أسرة الفؤاد ، وظلت المشاهد تقفز إلى ذهنه متتاليات وهو غارق في نشوته ، محلق في عالم وردى من الأحلام .

وعاد مع الليل إلى بيت الأوهام ، فتمدد على أريكة عتيقة ، وأرغى لفكره العنان فراح ينسج من خيوط خياله حول فتاة الصباح مواقف رائعة من البطولة والغرام ، واستمر في تحليقه اللذيذ في سماءات الأحلام ساعات ، حتى إذا ما فاضت بهجته وارتوى خياله ، هبط إلى الأرض لحظات ليفكر كما يفكر الناس ، ففكر في نفسه المقيدة بقيود وأغلال ، رأى فقيرا لا يقوى على إقامة عش هانئ لزوجين سعيدين ، فقد تعقدت الحياة ، فشاعت في صدره سحابة خفيفة من الكدر ، لكن سرعان ما تبخرت تلك السحابة ، فقد عاد ثانية ليسبح في بحور الخيال ، فأقنع نفسه أنه اليوم في البداية يتعثر ويقاسى الحرمان ، أما في الغد فستبتسم له الدنيا ، سينساب فيها لينعم بخفض العيش وبهجة الحياة .

وظل كطيف يتشكل في شكول لطيفة ، وينعم برؤى اليقظة ، حتى غلبه النوم ، فنام واستمر في رقدته الهنيئة ، حتى داعب أذنيه صياح الديكة ، مبشرة بدنو طلائع النهار ، فنهض يرجل شعره ، ويسوى هندامه ، فقد عزم على أن يتوودد إلى الفتاة . وترك الدار قبل مياعده الذي اعتاد أن يخرج فيه ، ووقف على وصيد الباب يرصد الطريق ، ويتلفت ذات اليمن وذات الشمال . ومر الوقت بطيئا فلم يحس مللا ، فقد كان ممتلئا آملا ، وخفق قلبه فجأة ، ثم اشتد وجيبه ، وصعد الدم حارا إلى وجهه ، فقد لمحها تخرج من دار قريبة من داره بقوامها الممشوق ، ومرت أمامه ، فملا خياشيمه عيبرها الحلو النفاذ ، فانتشت روحه ، وهم بأن يومئ لها برأسه محيا ولكنه لم يجرؤ ، فظل ثابتا لا يريم ، ولولا البريق المتألق في عينيه لحسبته تمثالا .

وبعدت عنه خطوات فعاد إلى نفسه وتملك حواسه ، فجعل يقتفى أثرها ، ولم يجد في نفسه الشجاعة ليدنو منها ليسمعها ما تمق طول الليل من كلمات ،

وما انفك يرقبها على البعد حتى ركبت الترام ، فانطلق إلى عمله وهو يحاول أن يجد لنفسه الأعذار ، فما هو من الرقعاء الذين يعترضون الفتيات في الطرقات ، إنه يتمتع بما يتمتع به الفرسان من حميد السجايا ونبل الأخلاق !

٢

وترادفت الأيام وهو ينتظرها في الصباح ، ويتبعها على البعد خافق الفؤاد ، وكانت تترفق في السير أحيانا ، وتتلقت أحيانا ، وابتسمت مرات ، ولكن كل ذلك لم يشد أزره ، ويشجعه على هجر السجايا الحميدة ونبل الفرسان ! وكأنما شاء القدر أن يترضاه ، فجعل تعارفه على الصورة المشتتة ، ففي ليلة من الليالي بينما كان يسير عند أوبته في الميدان القريب من داره ، إذ لمح ذلك الجسم المتناسب الذي انطبع في الفؤاد ، ينساب في لألاء الضياء المنبعث من مصابيح الميدان ، فيسرى فيه اضطراب للذيد ، وانطلق إليها خفيفا ، حتى أصبح على مرمى حجر منها ، وعرجت إلى شارعهم الضيق ، فخطر له أن يذهب إليها ، ليلقى عليها في رقة تحية المساء ، فالشارع هادئ ساكن ، والظلام سائد ، لا تقوى على هتك غلالته تلك المصابيح الخافتة القليلة التي تكاد تلفظ الأنفاس ، ولكنه كبح ذلك الخاطر ، فقد كره أن يقوم في الظلام بما أحجم عن تنفيذه في وضوح النهار .

ورآها على بصيص النور الواهن تنفر من شيء . وسرى في أذنيه همس زجر ، فحملق وقد أرهفت منه الحواس ، وأغذ في السير حتى اقترب منها ، فلمح شابا يطاردها ، فثارت ثورته ، وتدفق الدم حارا في عروقه ، وصك أذنيه صوتها وهي تنهر الشاب ، فلم يشعر إلا وهو ينقض عليه ، ثم يلكمه

لكمة قوية ترنح بعدها الشاب ، وهوى على الأرض ، وداعبه صوتها وهي
تغمغم : « متشكرة » ، فأحس خدرا لذيذا ، وتحركت أحاسيس البهجة في
نفسه فغمزته بالسرور والهناء .

وحنى لها رأسه في أدب جم ، ثم انصرف ودخل داره هيمان ، وتمدد على
أريكته العتيقة ، وأسبل عينيه ، وجعل يستعيد ما حدث من لحظات في
نشوة ، رأى نفسه وهو يلکم الشاب تلك اللكمة الجبارة ، فشعر بزهو ،
وأنصت إلى صدى صوتها الرقيق ، فأحس دغدغة في الحواس ، ولاحت له
في ظلام الغرفة عيناها البراقتان الواسعتان ترنوان إليه ، فانتفض كأنما سرى فيه
تيار كهربى ، وانطلق خياله ليخلق في أجوائه ، ولينسج ما تشتهي النفس ،
فغمزته سعادة شاملة .

٣

وصارا يتلاقيان كل صباح ، وتواعدا يوما من أيام الربيع ، فهب النسيم
عليلًا فأنعش روحيهما ، وسارا ملتصقين ، فهبت العواطف النائمة تتصارع
في جوفيهما . أحس حينئذ إليها ورغبة في أن يضمها إلى صدره الذي ضاق
بأحاسيسه الفوارة ورنا إليها في وله ، ونظر إلى عينيها الجذابتين فانتشى ،
وضيقت من عينيها ، وألقت برأسها على صدره ، ورفعت وجهها في دلال
وإغراء كأنما تتأهب للقبل ، وملأ عبيرها خياشيمه ، فكاد يهوى بشفتيه على
شفتيها المغريتين ، ولكنه كبج جماح نفسه ، وترفع عن أن ينتهز لحظة من
لحظات ضعفها ، فقد كان فارسا !

وبلغا مقعدا فجلسا يلتقطان الهواء في قوة ، فقد أجهدتكما أحاسيسهما ،

وبقيا صامتين برهة ، ثم تناول منصور يدها وضغطها في رفق ، وقال في

صوت متهدج :

— أحبك .

وصمت كأنما عقد لسانه ، وأشرق وجهها ، فتملك روعه ، وعاد إليه

بعض هدوئه ، فقال في أناة :

— أحبك . ولما كنت أمقت أن أرتكب ما يرتكبه الشاب العاثر فإني ..

ثم عاد فصمت ثانية ، كأنما ألجمه حياؤه ، ولكنه قهر خجله وقال :

— أتقبلين ؟

فهمست في صوت خفيض .

— ماذا ؟

— التزوج لي .

فترقق ماء الحياء في وجنتيها ، وبرقت عيناها ببريق السعادة ، ولاح في

محياها الرضا كل الرضا ، وهمت بالكلام . ولكنه أسرع وقال :

— يكفيني ما أرى ، إلى سعيد ، أسعد مخلوق في الوجود .

٤

دقت الدفوف ، وأطلقت الزغاريد ، وأغلق الباب خلف العروسين ،

واختل منصور بفتاة الأحلام التي هبطت عليه من السماء فغمرته السعادة ،

وراح قلبه يرقص في صدره طربا ، فقد نال في النهاية حبيبة الفؤاد ، وربة

الصون والعفاف .

وقادها إلى مقعد طويل ، وجلسا ، فأطرقت ، فمد يده إلى ذقنها ، ورفع



(صدى السنين)

وجھها فرأى عينيها ممتلئتين بالدموع ، فانقبض وقال بصوت مبحوح :
— ماذا ؟

فقالت في انكسار :

— إني تاعسة . منكودة .

فزاد انقباضه ، وأحس رأسه يدور ، وقال في حشرجة :
— ماذا جرى ؟

فقالت وقد نكست رأسها :

— لا فائدة من الکتان ، سأبوح بكل شيء .

فحملق فيها مشدوها ، وراحت تعترف :

— خطبني فوثقت فيه ، وغرري فاستسلمت له ، وفي لحظة من اللحظات
الضعف نال كل شيء .

وصمتت ، وساد الغرفة سكون الرموس ، ولكن كان صدر منصور
مسرحا لصراع هائل جبار ، فقد بات بين أمرين : أن يطرد المدنسة من
البيت ، أو يستر عرضا ، وظل فريسة لأفكاره تتجاذبه وتتنازعه ، وأخيرا
نهض إليها كفارس كريم ، يحنو على ضعيف ، ويقيل عثرات المتعثرين ، وربت
على كتفها وقال :

— عفا الله عما سلف .

ووطن العزم على أن يتناسى ما عرفه تلك الليلة الهائلة ، وراح يمني النفس بأن يحيا حياة سعيدة ، بعد أن ضحى واحتمل تلك الصدمة المروعة في ثبات ورباطة جأش ، إنها ستقدر نخوته ولا ريب ، وستمنحه الحب ، بل ستجود له بالنفس ، تقديرا لما أسدى إليها من معروف .

ومرت شهور ، فأبدت نفورها منه ، فراح يتألفها ويتودد إليها ، وكان كلما أظهر لها الحب ازدادت منه نفورا ، وجعلت تنغص عليه حياته ، وترهقه بما لا يطيق ، حاول أن يرضيها ، فما كانت ترضى ، وحاول أن يلبي رغباتها ، فكانت تزداد تعسفا ، فجعل يفكر بعقلية الفارس ، ولو فكر بعقلية المرأة لفطن إلى أنها كرهته من تلك الليلة ، ليلة العفو الكريم !

وتجرات عليه على مر الأيام ، فكانت تسخر منه وتهزأ به ، وفي يوم أخذ السباب يتدفق منها ، فقالت له في ثورتها :

— اخرج يا ..

وقالت كلمة تملأ القم ، فخرج منكس الرأس ، كفارس ثلم شرفه ، وكسر سيفه .

في العيد

عضها الجوع ، فجعلت تتلوى في فراشها ، و تفتح عينيها ، خشية أن يفر منها النوم ، ولكنها كانت سادرة في الوهم ، فقد نأى النوم عنها وأمعن في الحجر ، فما كان يجود بوصول المحرومين الجائعين .
وأحست سكاكين تمزق جوفها ، ووهنا يدب في أوصالها ، فدفعت عنها غطاءها الذي كونه من قطع شتى من الأنسجة اختلفت ألوانها ، فبدأ الحصر الممزق في ضوء الذبالة الخافت ، كأعواد من القمح ، صفت على ظلال سود ، وتحاملت على نفسها ونهضت ، قصيرة هزيلة نحيلة ، عبث الزمن بصفحة وجهها ، فخلف غضونا ، وترك الجوع آثاره ، فكانت ذبولا .
وانطلقت كالطيف صوب الذبالة وحملتها ، وسارت يسترها جلباب أدكن فقد شبابه ، فذهب سواده ، واستحال إلى لون الزيتون ، وهرعت إليها قطتها تتمسح بها ، فتزيد في اضطراب خطوها ، إنها قطرة نقاسمها ليلها ، وتغادرها نهارها ، فما كانت تستطيع أن تصير على الحياة المتقشفة القاسية .
وراحت تجوس خلال حجرتها التي كانت أشبه بكهف ، فما كان بها للهواء منفذ ، إلا ذلك الباب اللافظ إلى بضع درجات متهدمات ، تؤدي إلى فناء الدار الرطب ، الذي ينبعث منه روائح ماء آسن ، وتنطلق فيه أسراب الجنادب والخنافس ، وما كان بها كوة ، تسمح لأشعة الشمس أن تنفذ منها ، لتبدد ذلك الليل السرمم . ثم اتجهت إلى قلة ذليلة طاح رأسها ، رفعتها

وتجمرت منها جرعة .

وعادت إلى حصرها وتمددت ، وسحبت غطاءها ، ولكن ما كانت تلك الجرعة لتكم أنفاس ذلك الغول الذى كان يعوى فى أعماقها ، وينشب أظافره فى أحشائها ، فسرعان ما أنت وتلوت .

ولم تطلق صبرا ، فهبت ثانية من رقدتها ، أحضرت قطعة خبز يابس ، كانت تدخرها ، ورشتها بالماء ، ثم جاءت بقليل من الملح ، وقعدت تأكلها ، لتسكت ذلك الصراخ المنبثق من أغوارها ، وخفت إليها قطتها ، تنظر بعينيها الخضراوين المتألفتين فى الظلام كمصباحين ، فتغافلت عنها ولكن القطة راحت تتمسح بها ، فشعرت كأن اللقمة وقفت فى حلقها ، وتحركت شفقتها . فأشركتها فى كسرتها .

وارتفع ثغاء الخراف ، فمشى الصوت فى أذنيها ، حقيقة موجعة ، فأطرقت وقد ارتسم الأسى فى وجهها الجاف الذابل ، فغدا هو عيد الأضحى ، ولم تعد تملك ما تبيعه لتحفل بالعيد كما يحتفى به جيرانها ، باعت كل شيء ، ولم يبق فى حجرتها إلا الحصر والقلعة ، والموقد والقدر .

وخطر لها أن تبيع القدر ، ولكن سرعان ما تبدد ذلك الخاطر ، فلو أنها باعتها لتشتري بـشمنها لحما فقيم تطهوه ؟ وغزتها همومها ، فظلت فى إطراقها ، وأخيرا رأت أن تخرج إلى الدنيا ، تبحث وتنقب ، لعلها تعود بقطعة من اللحم ، تجعلها تستقبل العيد مستبشرة ، كما يستقبله آلاف الناس .

وصك أذنيها أقدام الجيران القاطنين فوقها ، فكان ذلك إيذانا بأن الليل قد أدير ، وأن النهار قد أقبل ، فقامت تلف ملاءتها حول جسمها النحيل ، أطفال الذبالة ، وذهبت تتلمس طريقها ، فتحسس الجدار ، وتهبط الدرج المتهدم ، وتنساب فى الفناء الرطب ، وتمتنشق رائحة الماء الآسن ، دون أن

تنقبض في وجهها المتغضن عضلة ، فقد أسنت حياتها ، وخسرت إلى الطريق ، فبهرها النهار ، ولفحها الهواء ، وسارت وثيدة تتلفت ، فألفت دكان الجزار ، وقد زين بالرايات ، وتدلّت الخراف والعجول ، وازدحم الناس عنده يشترّون ، فوقفت على البعد تنظر ، والحزن يرعى في جوفها ، والحرمان يخزها وخزات ألمه قاسية ، تزيد أساها ضراما .

وخيل إليها أن الناس فطنوا إلى وقفها الدليلة المتطفلة ، فانسابت في الطريق مطرقة ، ينفجر الحزن في جوفها ، وبلغت دار بعض من تعرف ، ممن رزقهم الله بسطة في الرزق ، فدخلت يداعبها طيف من أمل .

وجلست تتحدث مع ربة الدار ، وتصرم الوقت ، ووافى ميعاد الغداء ، فدعتها السيدة إلى الطعام ، فتمنعت تمنع الراغبات ، ثم لبثت ترفرف في جوفها فرحة ، وفي مثل لمح البصر طاف بذنها أطياف أكالات شهية ، فتحلب ريقها ، وجلست إلى المائدة ، وإذا بالطعام قطعة من جبن وزيتون أسود ، فحنقت ، وزاد في حنقها اعتذار السيدة بأنها لم تطبخ اليوم لأن غدا العيد الكبير !

وانقضى النهار وهي تدور على البيوت ، وأقبل الليل ، وقد دب التعب في أوصالها ، فعادت إلى حجرتها ، عابسة الوجه ، تملؤها خيبة ، وتجر رجلها جرا ، وعادت كما خرجت خالية الوفاض ، وقد ذاب الأمل تحت وهج الواقع الأليم ، وراح اليأس يرتع بين جوانبها مخلفا المرارة والأسى .

وارتمت على حصيرها مكدودة ، يدثرها الحزن ، ويحثم على صدرها الضيق ، وأخذ الوقت يتصرم وثيدا ، وأخيرا طاف بها ملاك النوم فهجمت ، وتقضى الليل ، وأقبل نهار العيد ، فخرج الناس إلى المسجد مكبرين ، وارتفعت أصوات التهليل ، فقامت من رقدتها تتلفت ، ونفذت دقات الهاون في البيوت المجاورة إلى مسامعها ، فكان لها على نفسها وقع ثقيل ، وتسرب

دخان الشواء إلى حجرتها ، ومشى إلى خياشيمها ، فأحست غصة ، وأدارت عينها في المكان في ذلة ، ونخيل إليها أن آذان الجيران أرهفت إلى ذلك الصمت السائد في حجرتها ، وأن عيونهم تنطلع إليها ، فعز على نفسها أن يفتنوا إلى أن الفقر قد أقعدها عن أن تحتفل بالعيد ، فقامت إلى الموقد وأشعلته ، ثم وضعت عليه القدر وقد ملأتها بالماء القراح ، وجعلت تحركه بالمغرفة ، وتتعمد أن تدق جدار القدر ، ليسرى صوت رنينه إلى الآذان المنتصبة إلى ما يجري في كهفها ، لتدخل في روع الجميع أنها مثلهم بالعيد مستبشرة ، ونظرت حولها تبحث عن قطتها فلم تجدها ، وظلت هي في حجرتها تقاسي الحرمان الشديد ، ولم تقو على احتفال ما هي فيه ، فتركت الماء يغلي على النار ، وارتمت على حصيرها تبكي وتتحب .

من أجلك أنت

راح المطر ينهر في الخارج ، وأخذت الريح تولول ، تكاثف الضباب على النوافذ ، وأسدل الظلام ستوره السود ، وسرت قشعريرة في جسم حمدي ، فهرع إلى المدفأة يتفرض من البرد ، وجعل يدس أعواد الحطب ليؤجج النار ، لعل حرارتها تنتقل إليه ، فنقضى تلك الرعدة التي تملكته . كانت ليلة من ليالى لندن الباردة ، التي لم يألّفها بعد ، فسرى الدفء في جسمه ، فأحس راحة ، وأطرق رأسه ، واستسلم لأفكاره ، فراحت الصور تتابع في مخيلته كشريط السينما ، فرأى الأهل والأحباب ، وراح يجتر الذكريات ، فكان يتمهل أحيانا ، ويسرع أحيانا ، حتى إذا ما فكر في سهام تريث في تفكيره ، وانعكس على وجهه أثر ما يعتمل في صدره فشابه كدر خفيف .

كانت سهام آخر فتاة عرفها في القاهرة ، قبل أن يسافر إلى إنجلترا ، قابلها في حفل أقامه صديق ، وعرفها هناك ، وجذب بصره إليها ابتسامتها ، كانت ابتسامة غامضة ، لم يعرف كنهها أول ما وقعت عليها عيناه ، ولكنها أسرته ، فتودد إلى صاحبها ، وواعدها اللقاء ، فقبلت ، وعلى فمها الابتسامة التي شغف بها ، ومست أوتار قلبه .

وقابلها مرات ، وفي ذات يوم راح ييشها حبه ، وقد زاد نبضه ، وتدفق الدم حارا في عروقه ، فحسب حرارته ستشعل نار الصباية في جوفها ، فتبادلته الغرام ، ولكن راعه ما بدا في عينيها ، وما ارتسم على شفيتها ، وقد نظرت إليه

في ازدرء . وعلى شفيتها ابتسامتها الغامضة ، وقالت في سخرية :

— واهالك ، لا زلت صيبا في الغرام .

فأحس كأن ماء باردا صب عليه ، وعقد لسانه ، وسار صامتا يحاول أن يلم شتات نفسه التي ذهبت شعاعا ، وقبل أن يفيق من سخريتها ، استأذنت في الانصراف ، وفي عينيها بريق خبيث كان يصرخ به هازئا ، فيذل كبريائه ، ويختر نفسه وخزا قاسيا .

واستمر في مقابلاتهما وكان كلما غازها رمقته ينظرتها الهازئة ، وارتسمت على ثغرها تلك الابتسامة التي بات يرتجف منها ويهاجها ، لم تعد ابتسامة غامضة ، وعزم على ألا يقابلها ، ولكنها راحت تعترض سبيله ، وتحاول أن تجعله ألعبه ترجحها في لذة ، فقد كانت تجد في تعذيبه بهجة ، فأخذ يحادثها في تحرز ، ويعاملها في حرص ، متحاشيا أن يعرض نفسه لهزئها ، أو أن يكون هدفا لابتسامتها الساخرة المريرة .

وقابلته قبل أن يترك الديار ، فحاول أن يضمها إليه ، ليقبلها قبلة الوداع ، فقد حسب أن الظرف ليس ظرف سخرية وعناد ، ولكن ما أن مد ذراعيه ليلقهما حولها ، حتى جفلت منه ، وقالت وهي تبتعد وعلى شفيتها ابتسامتها الساخرة :

— أحسبت نفسك لبقا ، فحاولت أن تستغل ساعة الوداع ١٩ هيات ، سافر يا حبيبي وفي مخيلتك ذكرى هذا الوداع .

وتحمل في مقعده أمام المدفأة ، وأحس مرارة ، وخطر له أن يكتب إليها رسالة يتنقم لنفسه فيها ، لما ناله من هوان ، وألح عليه ذلك الخاطر ، فراح يكتب :

عزيزتى سهام :

راودتنى فكرة الكتابة إليك ، وألحت على . فأخذت أسطر لك هذه الرسالة من بلاد الغرب ، كنت أحب أن أقول لك فى أولى رسائلنى أعيش هنا فى محرابى أصلى من أجلك ، وأن طيف الحبيب يؤنسنى فى وحدتى ، ولكن ابتسامتك التى تمزق قلبى ، تنهى عن الخوض فى حديث صياني للفرام ، لطالما قلت لى إنك تمقتين فى الرجال اللف والدوران .

إننى ما فعلت شيئاً هنا إلا بوحى منك ، أقولها صادقاً لا هائلاً ولا ساخراً ، وأرجو أن تؤجلى ابتسامتك ، حتى أفضى إليك بما يثبت ادعائى ، ويدعم قولى .

ذهبت بعد أن استقرى المقام فى لندن إلى مطعم من المطاعم ، وكان الليل قد انقضى منه ثلثه ، وقعدت أتناول طعامى ، وأنصت إلى الموسيقى الهادئة ، التى كانت تعزف ألحاناً خفيفة ، ورفعت رأسى عن الطعام ، وألفيت فى النضد المواجه لى فتاة ذهبية الشعر ، كان شعرها يحاكى شعرك ، فخطر لى أن أحقق فيها إكراماً لك ، بل أقصد أن أقول إكراماً لشعرك ، وتلاقت عينانا . وابتسمنا ، وخرجنا من المطعم وقد تعارفنا ، وأمضينا ليلة شاعرية وأنا أمرر يدى على شعرها ، أستغفر الله بل شعرك ، فلو لا شعرك يا سهام ما جذبت تلك الفتاة بصرى .

وفى دار من دور السينا التقيت بفتاة زرقاء العينين ، فذكرتنى بعينيك ، ففكرت فى أن أتودد إليها إكراماً لعينيك ، فاقتربت منها ، وحادثتها فحادثتنى ، وخرجنا من الدار صديقين ، وأمضيت ليلتى أنظر إلى عينها ، بل إلى عينيك ، لقد أسعدتنى تلك الفتاة ، وجعلتنى أعيش ليلة لن أنساها ، فشكراً لعينيك ، فلو لاها لما خطر لى أن أتودد إلى الفتاة .



وفي ذات يوم التقيت بفتاة في حديقة من الحدائق ، كان قوامها يشبه قوامك ، فهفت نفسي إليها ، ولا ضرورة أن أكرر أنني في الواقع قد هفوت إليك ، فمشيت إليها وحييتها ، فابتسمت لي ، فجلست بجوارها وتبادلنا أعذب الحديث ، وما غابت الشمس في الأفق البعيد ، حتى كنت أضرم إلي قوامها البديع الذي يشبه قوامك الذي عز على يوم الوداع .

إنني يا سهام أعيش في لندن أنقب عن الفتيات اللاتي يذكرنني بك ، ففى الواقع إنى أعيش هنا من أجلك أنت .
وتقبلي قبلات المخلص .

« حمدى »

وطوى الرسالة ، وقد أحس راحة ، فقد راح يتصورها وهي تقرأ رسالته في ضيق ، وبات ينتظر طلوع النهار ، ليعث إليها بوخزة ، ردا على وخزاتها القاسيات . ومرت أيام وأسابيع ، وجاءته منها رسالة ، ففضها وراح يقرأ :
حبيبى حمدى :

تسلمت رسالتك الأولى ، وأصدقك القول إنها أول حديث لك مس وترا حساسا فى قلبى ، إنها رسالة رائعة ، ما كنت أتصور صدورها عنك ، أحسست غيرة لما قرأتها وسألت : كيف لم يخطر على قلبى أن أمارس ذلك النوع من الحب ، إلى أحبك يا حمدى بعد أن قرأت رسالتك ، وقد صممت على أن أبادلك حبا بحب .

ورحت أتفرس فى وجوه الشباب ، فرأيت شابا يشبه فمه فمك ، فابتسمت له ، إكراما لفمك ، فابتسم لي واقترب منى وتودد إلى ، وحادثنى وحادثته ، وانطلقنا إلى الجزيرة ، وقعدنا على مقعد هناك ، واقترب منى ، ثم لف ذراعه حولى ، وهوى بفمه ، بل فمك ، على فمى وطال العناق . أمضينا

ليلة يا حمدي لن أنساها ما حييت ، فشكرا لعمك ، فلولا ما هفت نفسي إلى ذلك الشاب .

وقابلت شابا طويل القامة ، كانت قامته كقامتك ، فرحت أرنو إليه ، ولفت نظره تطلعي إليه ، فدنا مني ، وهمس في أذني بكلمات ما كنت أقبلها من شاب ، ولكنني استرحت إليها إكراما لك ، وسرت بجواره ، كان لبقا ذكرني إياك ، فعشت معه ساعات من أبهج ساعات العمر ، إنني يا حمدي مدينة بما أنعم به من سعادة لحبك ، فلولا تنقيبي عمن يذكرونني بك ، لأمضيت أيام حياتي هباء .

وفي حفل من الحفلات التقيت بشاب ذكرني إياك ، وكان أثره في نفسي عميقا ، فقد تقابلنا أنا وأنت في حفل كذلك الحفل ، فاتفق قلبي لما رأيته ، حسبته أنت ، ودنوت منه ، وقد أفعم صدرى بإحساسات لذيذة ، وأقبل على يغازلني ، فالت له جانبي إكراما لك ، وعشنا معا في عوالم لذيذة أنا وأنت .

إنني يا حمدي أكرر لك إعجابي بفلسفتك ، فعش يا حبيبي في لندن من أجل ، وأعاهدك أنني سأنتقل بين القاهرة والإسكندرية ، أبحث عن الرجال الذين يذكرونني بك ولن أعيش بعد اليوم يا حبيبي إلا من أجلك ، من أجلك أنت .

وتقبل قبلات

المخلصة جدا

« سهام »

يـ

زوجتي العزيزة :

ما كنت أظن أني سأكتب إليك مثل هذه الرسالة في يوم من الأيام ، وما دار بخلدی قط أني سأعود يوما إلى البيت فلا أجدك ، وأجد تلك الرسالة الجائرة القاسية : « قرأت رسائل عشيقتك ، فبانت خيانتك . الوداع » ما أقساك في أحكامك ، وما أشد غيرتك القاتلة ! وما ضرك لو انتظرت حتى أعود ، لأشرح لك كل شيء ، ولكنك تسرعت كما هي عادتك ، وأخطأت الحكم كما هي عادتك ، وأصررت كما هي عادتك على أنك كنت على صواب .

ما كنت أحب أن أقص عليك ما سأقصه ، لأنني أعلم أنه سيؤلمك بعض الإيلام ، وسيثير غيرتك — وما هي في حاجة إلى ما يثيرها — وما أحب إيلامك أو إثارة عراطفك ، ولكنه تصرفك النائر الغيور ، الذي يضطرنني الآن إلى رواية كل شيء ، وسرد ذكريات حسبت أنها كفنت في حافظتي ، فإذا بك اليوم تبعتها بما فيها من آلام وأحزان .

أما ما سأقصه عليك فسيحز في نفسي بقدر ما ستلسعك عقارب غيرتك — وإن كانت غيرة ليس هناك ما يبررها — ولكن لا بأس ما دمت قد انقذت إلى أوهاملك ، ورحت تنقيين في مكثي عما يدعم شكوكك ، ويثبت لك أن لي ماضيا ككل الناس .

كلنا له ماض ، وقد فكرت بعد زواجنا أن أفضى إليك بماضى ، وأن أقص عليك قصة هذه الرسائل . ولكنى أحسست أنك سعيدة ، وأن سعادتك تعود إلى اقتناعك بأن زوجك ليس له ماض ، إنه رجل خلق يوم زواجك ، رجل لم يمش إلى خطيئة ولم يدنس قط ، ولم يخفق قلبه لأحد قبلك قط . عرفت أنك ممن يعشن بخيالهن ، فلم أشأ أن أهبط بك إلى الأرض ، فتركك في عالمك ما دام في ذلك هناؤك وسعادتك .

كنت أجد الغبطة تشيع في وجهك ، والرضا بكتفك ، فكنت أشفق أن تصدمك الحقيقة يوما ، فتحطم أحلامك ، وتقوض هناءك ، فكنت أمد لك في حبل الأوهام ، فأوحى إليك أنك أول امرأة خفق لها الفؤاد ، فكنت تتقبلين ذلك منى في سرور الأطفال ، ولكنك كنت أحيانا تتشككين فيما أقول ، فتستفسرين في هدوء متكلف — ما كان ينطلي على — عمن عرفت قبلك ، وما كنت بقادر على أن أقص عليك شيئا ، فأبى بك عليم ، فإن غيرتك هوجاء جامحة ، فإذا ما ثارت لا تبقى ولا تذر ، فما أدراي أنك ما كنت تغضبين كما غضبت اليوم ، ولا تتركين البيت كما فعلت اليوم ، فكنت أؤكد لك أنك الوحيدة في حياتي ، لأعيد إليك بشرك ولأملأ نفسك غبطة وحياة .

أصبحت هذه الرسائل تذكارا ، وصارت صاحبها ذكرى . بينا أنت ملء القلب ، ملء النفس ، ومالي أقول ذلك لك وأنت تعرفينه وتحسينه ، فلا سطر في القرطاس ما حاولت أن أخفيه في صدري ، وما فيه ما يشين ، ولكنها طبيعتك الواهمة ، هي التي أرغمتني على أن أكتم ماضى ، وأغلق نفسي على ذكرياتي .

ففى شتاء عام ١٩٤٤ ، جاءني صديقي الدكتور فتحي ، وقال لي : قم ،

فقلت له : إلى أين والدنيا يرد شديد ؟ ، فقال : إلى مريضة مصابة بفقر دم حاد ، فقلت له : لا بالله دعنى اليوم ، وخذ متطوعا آخر ، فإن دمي متجمد فى عروقي ، فنظر إلى وابتسم وقال : قم ، إنك كالحصان ، وسحبني من يدي ، فقممت فى تراخ ، وقلت : إلى المستشفى ؟ فقال ونحن نخرج : لا إلى بيتها .

وهبطنا فى الدرج ، حتى بلغنا سيارته ، فركبنا وانطلقنا إلى حى من أحياء المدينة الراقية ، ووقفت السيارة أمام منزل فخيم . فأسرع الدكتور ، وحمل حقيته ، وقفز وراح يجرد فى السير . فأسرعت خلفه لألحق به ، وقابلنا عند الباب خادما نوبى ، وراح يسير أمامنا ونحن خلفه نخترق الردهة الخارجية ، ثم نسير فى ممر طويل ، ثم ندخل غرفة بها سرير ، قد تمددت فيه فتاة حلوة التقاسيم ، ولكنها كانت شاحبة اللون جدا ، حتى إن شفيتها كانتا باهتتين لا أثر للدم فيهما ، وعينيها غائرتان ، وبجوار سريرها رجل وخط الشيب رأسه ، وامرأة قد انعكس القلق على وجهها ، كانا والديها ، وما إن لمحانا حتى أسرعنا يصافحانا فى لهفة واغترباط ، وفتح الطبيب حقيته ، وأخرج إبرتى العملية الكبيرتين ، وأنابيب المطاط ، والتفت إلى والديها ففطنا إلى ما ينبغى ، فانسحبا فى هدوء ، فأغلق الدكتور فتحة الباب ، وابتدأت عملية نقل الدم .

راح يسحب الدم منى ، فانتابنى اضطراب ، وشعرت بخفقان فى قلبى ، وكأنا روحى كانت تسحب منى ، فقد كان الدم يمر بقلبي فى سرعة ، وينطلق إلى الحقنة ، وازداد وجيب قلبى . وتفصد العرق البارد من جبيني ، وكأنا أحست ما أعانى من ألم فى سبيلها ، فمدت يدها ، وراحت تربت على يدي ، ثم تمررها فى رفق فوق ذراعى ، واقتربت عن ابتسامة حلوة كانت

عزائي في كرتي .

وتمت العملية ، وبقيت أحس تعباً ، وقلبي في صدري يدق دقا ، ورفعت رأسي ، فلمحتها تتطلع إلى في امتنان ، ثم قالت في رقة :
— عاجزة عن شكرك .

— العفو .

وأقبل والدها علي ، وغمراني برقتها وظرفهما ، فأخجلاني ، وانعقد لساني ، فصرت أتمم بتمتات لا معنى لها ردا على شكرهما واغتيابهما ، وهمنا بالانصراف ، وحاول والدها أن يدس في يدي ورقة مالية لا أدري قيمتها ، فاعتذرت في لطف ، فألح علي ، فأفهمه الدكتور أنني متطوع ، وأني لا أتناول أجرا ، وزاد على ذلك أنني من أسرة لها مكانتها ، فصافحني الرجل في حرارة ، وكرر شكره ، وقال لي : أرجو أن تعتبر هذه الدار دارك ، إنني أحب أن أراك دائما .

ووفد الليل ، فدخلت إلى فراشي لأنام ، ولكنني وجدت نفسي أفكر في عملية اليوم على الرغم مني ، فما كانت أول عملية أشترك فيها ، فقد قمت بذلك مرارا ، وما كانت هي أول فتاة ينقل إليها دمي ، ولكنني ألفيت صورتها تلح على مخيلتي . وتحتل فكري . ولما كانت الأفكار تنمو في الظلام ، أخذت أفكارى تنمو وتتضخم ، فرحت أتصور نفسي معها أحداثها وتحادثني ، وجعلت أجتر أفكارى في نشوة وطرب .

وتنفس الصبح ، فخرجت إلى عملي ، واندبجت فيه ، فما كان أمامي فسحة من الوقت لأخلو بنفسى ، ولكن ما انقضى وقت العمل ، وما عدت إلى البيت ، حتى ألفيت رغبة الانطلاق إلى دارها تراودني ، إنني لم أزر مريضا بعد انتهاء العملية أبدا فما هناك ما يدعو إلى زيارته ، ولكنني أجد رجلى

تحملا نى إلى هنالك ، وكأنا قوة تخفية تدفعنى دفعا ، ووجدت نفسى أجتاز باب الدار ، فأجفلت وهممت بالفرار ، واعترانى خجل شديد ، فماذا يقولون عني إذا ما وجدوني بينهم دون أن يكون هناك ما يبرر وجودى ، ونكصت على عقبي ، وقفلت عائدا مضطربا ، ولكن ما سرت فى الطريق خطوات ، حتى أحسست تلك القوة الخفية تدفعنى إلى هنالك ، فسرت كالسحور ، واجتزت الباب وقد أخذ قلبي يقفز فى صدرى ، وقطعت فى الردهة الخارجية خطوات ، فقابلنى الخادم النوى ، فانتبهت كمن يهب من نوم عميق ، وفطنت إلى سخافة ما أقدمت عليه ، فسألت عن الهائم فى اقتضاب ، وابتدأت فى الانسحاب ، ولكن فوجئت بصوت يسرح بمقدمى ، فرفعت رأسى فرأيت والدها على رأس السلم يهتف فى انشراح : أهلا .. أهلا .. فما كان أمامى إلا أن أصعد فى الدرج مهرولا ، لأصافح اليد الممدودة لى .

ودخلت غرفتها ، فمدت يدها إلى فأخذت يدها بين يدي ، وسألتها عن صحتها ، فأجابت بحمد الله ، وتهلل وجهها وبرقت عيناها بريق أحسست ضياءه فى قلبي ، وجيء لى بكرسى وضع بجوار سريرها ، فجعلت أحادث والديها ، وكنت أرنو إليها بين وقت وآخر ، وانقضى وقت أحسست بعده أن لا بد من قيامى ، فنهضت وإن كنت فى قرارة نفسى أتمنى أن تطول جلستى ، بل أتمنى ألا تنقضى أبدا .

وتركتهم وسرت فى الطريق أفكر فيما فعلت ، فأغضبني سلوكى ، فعقدت العزم على ألا أكرر الزيارة بعد اليوم أبدا . ولكن ما جاء اليوم الثانى ، وما خلوت بنفسى حتى انهار عزمى ، وانطلقت إلى هناك ، أنعم بالسويعات الحلوة التى أقضيها بجوارها .

كان في وسعي أن أترضاك ، وأن أكذب عليك ثانية بأن أقول لك ما كنت أحس به نحوها كان عطفًا .

إني جد آسف يا زوجتي العزيزة لإيلاملك ، ولكن ما ذنبي إذا كنت قد نكأت جرح قلبي ، ونشئت ذكرياتي ، وهيبت كوا من نفسي ، وبعثت إحساسات كاد يدرکہا الموت .

وفي يوم وصلتني دعوة منهم ، فذهبت فألفيت الموجودين لا يتجاوزون أصابع اليدين عدا ، ولحت الدكتور فتحي ، فاتجهت إليه وصافحته ، وجلسنا نتحدث ، وأقبلت في ثوب أنيق أبيض ، فبدت لعيني كملاك لطيف ، وجاءت وصافحتني وهي تبسم ، فأحسست رعدة خفيفة للذيلة تسري في يدي ، ثم وجدت نفسي أضغط على يدها في رفق ، فشاعت غبطة في صفحة وجهها النقية ، وتركتني وذهبت تحيي ضيوفها ، فالتفت إلى الدكتور فتحي ، وقلت : صحتها في تقدم .

فلم يحرك الدكتور شفتيه ، ولم يعلق على ما قلت بشيء ، بل راح يخوض في حديث آخر ، وقمنا للعشاء ، فلما انتهى ذهب المدعوون إلى غرفة يتحدثون ، ولما كنت لا أدخن ولا أطيق رائحة الدخان ، انسحبت إلى غرفة أخرى ، وما انقضت برهة حتى جاءت تشاركني في وحدتي ، أصبحنا وحدنا ، فلم أشعر إلا وأنا أقرب منها ، وأهمس لها بصوت مرتجف متهدج . أبثها لواعج نفسي ، وأشرح لها حبي ، وأطرقت تستمع إلي ، وكأنا حديثي لم يكن مفاجأة لها ، فرفعت رأسها الجميل ، ورنّت إلي في وله وحنان ، ودنوت منها ، فاختلفت أنفاسي بأنفاسها ، فلم أستطع مقاومة نفسي ، فضممت جسمها الضاوي إلى صدري وقبلتها قبله هزت كياني ، وتفتحت لها نفسي .

وانتهى الحفل المتواضع ، وخرجت والدكتور فتحى ، وكنت شارد
اللب ، وجاشت فى صدرى رغبة الإفضاء إليه بحبى ، ولكن غالبت نفسى ،
وأخيرا غلبت على أمرى ، فخرجت الكلمات من فمى تكشف ما بى ، فقلت
له فى صوت حاولت جاهدا أن يكون هادئا لا أثر للتأثير فيه : سأخطبها يا
دكتور . فقال الدكتور دون أن يلتفت إلى : إنها لا تجوز لك . فسألته : ولم ؟
فقال فى نبرات ساخرة : امتزج دمك بدمها . فلم أهتم بسخريته ، وقلت فى
حماس : وما بهم وقد امتزجت روحى بروحها . فقال فى جد : بالله لا
تتعجل . فسألته فى لهفة : وما الضرر ؟ فقال فى نبرات حزينة : لم تشف
بعد . فقلت له فى يقين : غدا تسترد قواها . وصمت الدكتور ، فالتزمت
السكوت حتى افترقنا .

وسافرت إلى الريف ، وبعثت إلى برسالتها الأولى تشرح حبها ، وتكشف
مكنون نفسها ، وتبادلنا الرسائل ، فتأجج الحب فى صدرى ، كان حبا
جارفا ، فلم أستطع عليه صبرا ، فذهبت إلى والديها لأخطبها . رحبا بى
وأكرما بى ، وتقبلا خطبتي قبولا حسنا ، واتفقا على إتمام الزواج بعد عودتها
من الريف سليمة قوية . فكتبت إليها أزف البشرى ، وأستحثها على الإسراع
بالعودة .

وانقضى شهر خلته دهرًا ، وعادت أخيرا إلى الدار ، فأسرعت لأقابل
حبى ، وكانت صورتها طوال الطريق تشغل رأسى ، كنت أراها فى غيلىتى
متوردة الوجنتين ، متسربة رداء الصحة والعافية ، وما أن دلفت إلى الدار ،
وما أن سألت الخادم النوى عنها ، حتى علمت أنها مريضة فى فراشها ،
فانقبض قلبى ، وشعرت جفافا فى حلقى ، وكأنا عقدت عقدة فى صدرى ،
فضيقت أنفاسى ، فرحت أصعد فى الدرج مسرعا ، وانجهت إلى حجرتها ،

فألفيتها ممددة في فراشها ، لقد كانت طيفا .

كانت مقابلة قاسية ، حطمت نفسى تحطيمًا ، وودت دموى أن تطفر من عيني ، ولكن رحت أغالب دموى ، وجاهدت لأبلى هادئًا مطمئنًا ، فجعلت أبتسم وقلبي يقطر دما . واستأذنت في الانصراف على أن أعود بعد قليل ، فأذنوا لي ، فانطلقت إلى الدكتور ، ودخلت عليه وقد بان الأسى في وجهي ، وقلت بصوت حزين : عادت يا دكتور ، ولكنها عادت حطامًا . فتطلع الدكتور إلى ، ثم أسبل جفنيه ولم يتكلم .

فقلت : ما رأيك يا دكتور في أن نعيد عملية نقل الدم ، إني مستعد أن أجود لها بكل دمي .

فقال في اقتضاب : لم يعد دمك ينفعها .

فقلت في فزع : وكيف ؟

فقال في أسف : تسمم دمها .

أطرقت حزينا ، وخرجت أجر رجلى جرا ، ونزل لي هم ثقيل ، فما عاد لها في الأرض إلا أيام ، فرحت أذرف الدمع السخين ، وما انقضى أسبوع حتى انقضت كما ينقضى الحلم الجميل ، وصارت ذكرى بعد أن كانت بهجة نفسى ومنية قلبي .

وهذه يا زوجتى العزيزة قصة خيانتى التى أثارتك ، وجعلتك تفرين من البيت ، وما هى بالقصة البهجة ، وما فيها ما يستحق أن يثير نقمستك وغيرتك ، إلا إذا كنت تعزمين على أن تغارى من طيف ، لقد انقضى الماضى ، فأصبح كأمس الدابر فعودى إلى زوجك المتلهف إليك ، ولنوصد على الماضى بابا ثقيلًا ، فالماضى بأحزانه وآلامه لى ، والحاضر والمستقبل المشرق لك .

روميوس

التفت الرجال الذين كانوا جالسين في بهو الفندق الفخم ناحية الباب ،
فانفرجت أسارير الشباب ، واتسعت عيونهم ، واتممت بيريق أخاذ ، وراح
الشيوخ ينظرون في إعجاب من بين أهدابهم البيضاء ، ومن خلف نظاراتهم
الذهبية ، فقد كانت فتاة حلوة رشيقة فاتنة مقبلة في دلال ، يتبعها كلب أبيض
ضئيل أنيق ، وكانت الفتاة ممشوقة القد ، ناهدة الصدر ، فاحمة الشعر ،
واسعة العينين ، صافية البشرة ، تتدفق حيوية ، وكانت تسير الهوينى ،
مرفوعة الرأس ، لا تتلفت يمنة أو يسرة ، بل كانت تنطلق في ثقة ، وكانت
ترتدى ثوبا بسيطا أنيقا ، يتم عن ذوق وبسطة في العيش ، إنها غنية ولا
ريب ، سعيدة من غير شك ، جمال رائع قاهر ، يفتن العابد ، ومال وفير
يدنى الأماني ، ويحقق الأحلام .

ووسعت خطوها ، وسارت في الردهة الطويلة الموصلة إلى جناحها ،
وكلبها خلفها يجد في السير في غبطة ، والتفت في الممر بشاب طويل القامة
عريض الكتفين ، فيه فتوة وشباب ، فالتقت العيون ، وابتسمت أسارير
الشاب ، وظلت الفتاة في طريقها دون أن تختلج عينها خلجة ، وبلغت
جناحها ، وفحت الباب وانتظرت فلم يسرع الكلب في الدخول كما اعتاد أن
يفعل كلما فتحت بابا ، فأدارت رأسها الجميل ، ونظرت من فوق كتفها ،
فرأت الكلب بين يدي الشاب ، وهو يمسح على شعره الطويل ، فهتفت في

صوت ساحر :

— روميو .. روميو .

فقفز الكلب من بين يدي الشاب ، وراح يعدو نحوها في فرح ، ووقف الشاب ينظر ويتسم في رقة ، ولكن الفتاة كانت قد اختفت خلف الباب الذي أغلق في رفق .

وخلعت ثيابها ، ولبست غلالة رقيقة أبرزت مفاتها ، وتقدمت من المرأة تديم النظر فيها ، وتتطلع إلى محاسنها ومفاتها في زهو وإعجاب ، فغمرها سرور ، واجتاحها نشوة ، ولكن ما لبث أن غاض السرور ، وفرت النشوة ، وغام وجهها بسحائب خفيفة من الحزن ، فطأطأت بصرها ، وجعلت الأفكار تتزاحم في رأسها وتتلاطم ، فسارت نحو المقعد الطويل ، وتمددت فوقه ، ومدت بصرها إلى لا شيء ، وأطلقت خيالها العنان .

رأت نفسها بعين خيالها في ثياب عرسها ، فأحست غصة في حلقها ، وضيقا في صدرها ، فكأنما قد عقد فيه عقدة . ودمعة تترقرق في مآقيها .. أحست في مقعدها نفس الإحساس الذي أحسته ليلة زفافها ، فما أحست ليلتها بهجة أو فرحة أو نشوة ، وما سرها الحرير الغالي الذي كانت ترفل فيه ، فيزيد في حسنها ، وما أحبت الحرير بعد ليلتها تلك ، فإنها لتحسبه أكفانها درجت فيها ، فإنها كانت تزف إلى شيخ فإن مرتجف .

ورأت نفسها شابة حلوة متفتحة في دار أبيها ، تعيش في عالم وردى من الأحلام ، وهم في دنيا فسيحة من الأوهام . تنتظر في نشوة فارسها ورجل أحلامها ، الذي سينقلها من دنياها الضيقة إلى عالم السعادة الرحب اللانهاي ، عالم الحب والصبابة والغرام ، فكم مرة رأتة فارسا يمتطي جوادا ،

ثم يقبل ويخطفها ويعود بها صعدا ، ليعيشا في السحاب ، وكم من مرة رآته شابا ظريفا لطيفا من هؤلاء الأبطال ، الذين رأتهم على الشاشة في أدوار غرامية تلهب الحواس .

ورأت نفسها في دارها ، غرفة زوجها المسدلة الستائر . المقفلة النوافذ ، الهادئة هدوء الرموس ، الساكنة سكون القبور ، تغدو وتروح ، لتناول الشيخ المريض الدواء ، إنها تمضي الشهور ، وأية شهور ، الشهور الأولى لزواجها إلى جواره تمرضه وتعنى به وتؤاسيه ، وهي في أشد الحاجة إلى العطف والعناية والتسلية .

واعتمدت في المقعد الطويل في تيرم وضيق ، وحاولت أن تفر من أفكارها التي تتوافد عليها توافد الموج ، فما تنكسر فكرة حتى تفد أخرى ، إنها لتود أن تنعم بذلك النسيم اللطيف الذي يهب من البحر في رقة ، فراحت تملأ صدرها بالهواء ، وتتكلف الهدوء ، ولكن فكرها كان يعمل ، فراحت تمرر كفيها على ونجها دون جدوى ، فإن أفكارها أخذت تغزوها في إصرار ، فاستسلمت لها برغمها ، وتعددت ثانية وقد انخرست الغلالة الرقيقة عن صدرها ، فبدت كتمثال رائع ، لفنان مبدع .

ورأت نفسها يوم خرجت من غرفة زوجها خلف الطبيب ، لتستفسر منه عن حال زوجها ، لما استشفت من وجهه القلق بعد أن فحص عن حاله ، فأنبأها الطبيب أن لا بد من سفره إلى الخارج ، فإن جو القاهرة أضحى لا يلائمه ، ورأت نفسها وهي تحاول إقناع زوجها أن تصحبه في سفره ، وأن تقل من عزمه ، ولكنه أصر على الرفض ، وعلى استصحاب خادمه .

ورأت نفسها اليوم وهي تودع زوجها قبل أن تقلع الباخرة به ، وقبل أن تعود إلى الفندق ، فأحست راحة عزتها إلى نسيم البحر المنعش ، وإن كانت



في الحقيقة راحة تخلصها من ذلك العبء الثقيل ولو إلى حين .
وقامت إلى الشباك القريب منها ، وأطلت منه ، فداعبها نسيم الأصيل ،
وراح يعبث بشعرها السبط ، ويقلب وجنتيها في رقة ، فأنعشها ورد إليها
هدوءها وطمأنينتها ، فراحت تمد الطرف إلى البحر الساجس في نشوة
وطرب .

وجاء الليل يرخي ستائرہ السود ، فاتجهت إلى النور وأضاءته ، ثم جلست
إلى المرأة تتزين ، فقد عزمت على العشاء في الخارج ، وما أتمت زيتنها حتى
نهضت ونادت في رقة :

— روميو .. روميو .

فقام الكلب عن الوسادة الوثيرة التي كان نائما فوقها ، وأقبل عليها بهز ذيله
فرحا ، فمدت يدها ، وفتحت الباب ، فخرج روميو يعدو ، فخرجت
خلقه وراحت تقفل الباب في هدوء ، وأحست شخصا بالقرب منها ،
فالتفت فإذا نفس الشاب الطويل العريض الكتفين ، الممتلئ فتوة وشبابا ،
والذي قابلها في الممر لما جاءت ، وداعب روميو ، يفتح الباب المجاور لبابها ،
فقد كان جارها ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة حلوة ، ولكنها لم تعبأ به ،
ولم تلتفت إليه ، بل انطلقت في طريقها وروميو في أثرها يصبص بذنبه في
سرور .

وتناولت عشاءها ، وفكرت في أن تذهب إلى السينما ، ولكنها أحست
جسمها يحن إلى الراحة ، فعادت إلى الفندق ، واتجهت إلى جناحها ، وبدلت
ثيابها ، ثم اندست في فراشها ، وجعلت الأفكار الحلوة تداعبها قبل أن يمس
ملاك النوم بأنامله الرقيقة جفניה ، وراحت في سبات عميق ، فرأت فيما
يرى النائم أنها قائمة بين الضباب ، محلولة الشعر ، في ثياب رقيقة شفافة ،

لا تكاد تستر جسمها ، وقد سرى في الجو نغم حلو أخذ ، آت من بعيد ،
كان نغما ملائكيا عذبا يستحوذ على المشاعر ، ويهز القلوب ، فامتلات
نفسها نشوة ، وأخذ الضباب ينقش شيئا فشيئا ، فإذا هي في مكان من
بلور ، وأخذت الأنغام تشتد وتقرب وتتضح ، فأحست نفسها خفيفة خفة
الطيف ، فأخذت تقفز في فرح ، وترقص في طرب ، وتميل وتثنى كما يميل
الغصن إذا داعيه النسيم ، وفجأة لاح أمامها شاب جميل ، عارى الجسد ،
مفتول العضل ، قوى البدن ، مديده ، وتناول بها يدها ، وجعل يشاركها
في رقصها ، ويهيم معها في الفضاء العريض ، ونظرت نحوه فإذا هو زوجها قد
خلق من جديد ، فندت منها أنه فرح ، وانفرجت شفتاها عن لؤلؤ نضيد ،
وانبعثت الموسيقى من هنا وهناك ، وغشى المكان ضياء عجيب ، ونظرت
إلى زوجها فإذا هو قد تبدل ، وإذا بها تجد مكانه ذلك الشاب الطويل الذى
داعب روميو ، والذى ينزل في الغرفة المجاورة لغرفتها ، فأقبلت عليه في
انسراح ، فجذبها من يدها في رفق وسار بها فوق السحاب ، ثم ركبا زورقا
من ذهب ، وراحا يجدفان في الفضاء ، ويسبحان في غبطة حول النجوم ،
وتركا الزورق ، ودخلا حديقة ، فرشت أرضها بالأزهار ، وقد توسطها
سرير من الورد ، يحف به قنوات من زئبق رجراج ، وانطلقا إلى السرير ،
فتمددت فيه ، واستنشقت عبق الأزهار فانتعشت روحها ، فتطلعت إليه في
دلال ، وقد تكسر جفناها ، فمال عليها في رقة ، وضمها إلى صدره في
حنان ، وراح يلثمها هنا وهناك في لهفة وسعار .

وفتحت عينيها ، فألفت نفسها وحيدة في فراشها ، فأحست طعم
الصاب في فمها ، وجفافا في حلقها ، ما كانت تلك السعادة إلا حلما من
الأحلام ، لاحت في الخيال لحظة ، ثم اختفت وقد خلفت وراءها لهفة وحسرة .

وحاولت أن تستأنف نومها ، ولكن النوم خاصم جفניה ، فإن دمها ليتدفق حارا في عروقها ، وإنها لتحس به يصعد إلى رأسها في فورة ، وأن وجتها تكاد أن تنصهرا ، وأن قلبها ليدق في ثورة وعنف ، ويقفز في جوفها ، حتى ليكاد أن يفر من فيها ، وإنها لتحس شيئا يضغط أنفاسها . إن مشاعرها المذخورة قد ثارت عليها وتمردت ، فقد ضاقت بذلك الكبت المتواصل ، وتود أن تنطلق .

وأحست أنها باتت فريسة عواطفها ، فقامت من فراشها ، وفتحت الشباك القريب من مخدعها ، لعل الهواء العليل يلفحها ، فيخفف من إحساساتها المتمردة ، ولكنها كانت ليلة قمرء . توحى بالشعر والحب ، فما فتحت الشباك حتى انسل ضوء القمر الفضى إلى غرفتها ، فأجج عواطفها ، وزاد ثورتها ، وأشعل رغبتها ، فانهارت في فراشها انهارا ، وبقيت مدة لا تبدى حراكا ، إلا أن عواطفها كانت في داخلها تتصارع وتتضارب .

وانتصبت واقفة ، وراحت تقطع الغرفة جيئة وذهابا في قلق ، فكانت تذهب إلى النافذة تملأ رئتها بالهواء ، ثم تعود إلى حيث كان روميو نائما ، ولم تطق صبرا على الإحساسات التي كانت تعمل في صدرها ، فارتمت في فراشها حائقة قانطة .

وهبت من فراشها ثانية ، وقد اتسعت حدقتا عينيها ، وبان في وجهها عزم صادق ، وسارت إلى المرأة كالمسحورة ، وراحت تسوى من شعرها ، وتبرز فتنها ، ثم مشت إلى الباب في خفة ، وفتحته في احتراس ، خشية أن يستيقظ روميو ، وخرجت وسارت خطوات ، حتى بلغت الباب المجاور لبابها ، ودقته في رفق ولم تضطرب ، فقد كانت مأخوذة ، وكأئنا كانت في حلم من الأحلام .

وفتح الباب ، وظهر الشاب الطويل القامة ، العريض الكتفين ، وقد بان الدهش في وجهه ، وعقدت المفاجأة لسانه ، فلم يدر ما يفعل ولا ما يقول ، ولاحظت ما اعتراه من ارتباك ، فقالت :

— هل رأيت روميو من فضلك ؟

فقال في بلاءة :

— روميو ! .. روميو ! ..

فقالت بصوت منغم :

— روميو ؟ . كلبى .

وكان قد تملك روعه قليلا ، وسيطر على أعصابه ، فابتسم . وقبل أن يجيب أطل روميو من باب حجرتها ، وأخذ يعوى ، وكأنه ينادى سيده ويحذرها ، والتفت الاثنان إليه وقد عاد الشاب إلى ارتبائه ، أما هي فقد صعقت في مكانها ، وارتفع الدم حارا إلى رأسها ، ثم تنهت كمن أفاق من حلم وجرت ، فحملت روميو بين ذراعيها ، ودخلت حجرتها ، وأغلقت بابها في قوة ، كأنها تصفع به الشيطان ، وقضت ليلتها تبكى .. وحيدة !!

شجرة الشيطان

ريح عاصفة ، وبرق ورعد ، وزجاجة وزئير ، وظلام دامس حالك .. فقد ثار الكون ثورة هائلة ، وفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرت الأرض عيونها ، فقار الماء وارتفع ، وبلغ الدنيا في جوفه ، وأخذت سفينة نوح تجرى في موج كالجبال ليالى وأياما لا تستقر على حال ، حتى بعث الله ريحا على الأرض ، فهدأ الماء ، واستوت السفينة على صخرة .

وبعث نوح الحمامة فانطلقت ، ولم تلبث أن عادت ، فما زال الماء يغطي الأرض .. وتقضت أيام سبعة ، فعاد وأرسل الحمامة ، وانقضى النهار وهو يرقب عودتها ، وجاء الليل فجاءت بورق زيتون بمنقارها ، وطينة برجلها ، فأيقن أن المياه قد قلت عن الأرض .

وكشف الغطاء من الفلك ونظر ، فإذا وجه الأرض قد جف ، فأطلق الوحوش ، والطيور ، والهوام ، فانطلقت في الفضاء ، وهبط إلى الأرض ليفرس ما معه من أشجار . وأراد أن يفرس شجرة العنب ، فلم يجدها ، وظل يبحث عنها هنا وهناك ، حتى أعياه البحث ، فأطرق في حزن . وفيما هو في إطراره ، أوحى الله إليه أن إبليس قد سرقها ، فقال نوح لإبليس :
— أعد شجرة العنب .

— لا أعيدها حتى تشركنى فيها .

— وما قيمة هذه المشاركة .

فأطرق نوح قليلا ، وراح يفكر ، فقد كان يخشى أن يستغلها إبليس في

فتنة الناس ، ولكنه لم يجد من إجابته بدا ، فقال في استسلام :

— قد جعلت لك فيها الثلث .

— لا .. يجب أن يفوق نصيبي نصيبك .

— هذا جشع !

— هذا شرطى ..

فقال نوح في نبرات المغلوب :

— قد جعلت لك الثلثين .

فانبسط أسارى إبلis لهذه المشاركة ، وذهب ثم عاد بشجرة العنب
فغرسها ، وما انتهى من غرسها ، حتى ذبح عليها طاووسا ، فشربت من
دمه . وغت الشجرة ، وطلعت أوراقها ، فذبح عليها قردا ، فشربت من
دمه ، وراح يتعهدا ، حتى إذا ما أثمرت ذبح عليها أسدا ، فارتوت من دمه ،
وقبل أن ينضج العنب جاء بخنزير ، وذبحه على الشجرة ، فشربت من دمه .
تدلت العناقيد منتفخة ، فكانت كأكياس ملئت دما ، ورأى إبلis نضج
العناقيد ، فراح يجمع الأعناب في فرح ، ثم راح يعصرها خمرا .. وأقبل
رجل ، فقدم إبلis إليه ما عصر ، فعب الرجل من الخمر حتى ارتوى ،
وأخذ إبلis يرقبه وقد ارتسمت على شفثيه البغيضتين ابتسامة شماعة وخبث !
ما دبت الخمر في أعضاء الرجل حتى زها كما يزهو الطاووس ، وما سار
خطوات حتى انتشى ، فذهب عنه الوقار ، وأخذ يصفق ويرقص كما يرقص
القرد ، وقويت عليه الخمر ، فسكرو وعربد ، وزجر زجرة الأسد ، وجعل
يحطم ما تصل إليه يداه .. ولكن سرعان ما خدره السكر ، فنعس ثم
استلقى ، وجعل يغط في النوم غطيظ الخنازير ..

وقهقه إبلis قهقهة عالية ، فقد صارت له شجرة يفتن بها الناس !

امراة وألحسان

ذهب وصاحبه لشراء أسطوانات موسيقية ، وما كان راضيا عن ذهابه ،
فما كان يعرف شيئا عن الموسيقى الغربية . ولولا إلحاح صديقه عليه
ليصاحبه ، لما غادر مقهاه . ولفضل أن يبقى في جلسته على إفريز الطريق يتبع
بعينه الغاديات الرائحات ، كما يتبع المشاهد في اهتمام الكرة وهي حائرة ، في
مباراة حامية في التنس .

ودلفا إلى المحل ، فطفق يقلب عينيه فيه في استغراب ، فما كان يحسب أن
في قلب القاهرة مثل ذلك المكان ؛ رأى قاعة فسيحة ، قامت في وسطها كعبة
قسمت إلى آلاف الأدراج ، وضع على رأس كل منها اسم غريب لا يعرفه ،
ورأى عشاق الموسيقى يطوفون حول الكعبة في صمت وخشوع ، ينقبون
عما يبغون في اهتمام ، وألقى صديقه قد سلك في الطائفين ، وشردت منه
الأبصار ، فأحس نفسه غريبا ، وفطن إلى أن عليه أن يفعل شيئا حتى لا يبدو
نشازا في ذلك الجو المتآلف ، فراح يقرأ الأسماء اللاصقة بالأدراج ، وخطر له
أنه قد يتورط فيما يسفر عن جهله ، فدبت في نفسه رهبة خفيفة ، فهرع إلى
حيث كان صاحبه ، ودنا منه يحتمي به .

ومس أذنيه صوت نسوى رقيق يقول في نبرات خافتة .

— أية خدمة ؟

فالتفت ، فرأى فتاة رائعة الجمال ، زادت من روعتها الأيدي الماهرة التي

صفت الشعر الأحمر الفتان ، ونشرت الظلال والأصباغ في مهارة ، في رقعة الوجه الحلو القسمات ، وتدل من أذنيه هلالان بديعان ، زانا الوجه الأسر ، ورفت على شفتيها ابتسامة عذبة ، ليس لها سبيل إلا إلى القلب ، وتألفت عيناها الزرقاوان الواسعتان ببريق أخاذ ، ووقع بصره على الصدر الناهد الشاوخ في كبرياء ، كان جمالا من ذلك الطراز الطاغى ، الذى لا يقف في طريقه شيء ، فظل يديم إليها النظر ، لم تتحرك شفتاه ، أما صديقه فقال في بساطة :

— السيمفونية الثامنة شهر زاد ..

وانطلقت إلى الأدرج تحضر الأسطوانات ، وانطلق صديقه معها ، أما هو فوقف يرقبها ، ويفحص عنها بنظره ..

ساقان متناسقتان ، وجسم غاية في الروعة والجمال ، إنها فتنة تسير على الأرض ، وتعبث بالقلوب ، وتسبى العقول .

وأحضرت الأسطوانات ، فسارت وصديقه إلى جوارها إلى غرفة صغيرة من الغرف الزجاجية الكثيرة التى ستر نصفها بستائر كثيفة ، ووضع بها فونوغراف وكريسيان ، فأسرع إليهما وجلس على كرسى أمام صديقه ، أما هي فاتجهت إلى الفونوغراف ، ووضعت أسطوانة من الأسطوانات وهو يرقبها في اهتمام ، ويرنو إلى ذراعها البضة ، وقد استيقظت عواطفه في صدره .

وانساب الأنغام ، فأطرق صديقه في خشوع ، ووقفت هي عند باب الغرفة والابتسامة الحلوة ترف على شفتيها ، أما هو فلم يحفل بالأنغام ، وراح يرنو إليها ، يملأ عينيه من روائع الجمال ، وانساب بعد قليل ، فجعل يرصدها من زجاج الباب . وأقبلت مرات تبدل إبرة الفونوغراف ، فكان يتطلع إليها خافق الفؤاد .

(صدى السنين)

وسكنت الموسيقى ، فساد الغرفة هدوء ، وأراد أن يقول شيئا ، فقال :
— عندى فونوغراف مهجور ، ما كنت أحسب أن له قيمة قبل أن أرى
هؤلاء الناس !

فابتسم صديقه ، ونهض يحمل الأسطوانات ، وقابلا الفتاة فى الردهة ،
فقال الصديق :

— سأخذ اليوم شهر زاد ..

وظل هو يرنو إلى الفتاة فى اشتاء ، ولو طاولع نفسه لساها عن اسمها
ولطلب منها أن تقابله هذا المساء .

وعاد إلى داره ، وما خلا بنفسه حتى ألقى طيف الفتاة أمام عينيه لا يريم ،
وقد احتلت صورتها فكره ، وهفت إحساساته إليها . كانت ابتسامتها العذبة
تدغدغ حواسه ، ونظراتها المنبعثة من عينيها الزرقاوين الآسرتين ، تعبث
بأوتار قلبه . صار يراها يقوامها المشوق ، وصدرها الناهد الشاغل غادية
رائحة فى خياله ، وأمضى ليلته وطيفها فى رفقة ، وما لاح الصباح حتى
كانت قد استولت على لبه ومشاعره .

وأصبح الصباح ، وصورتها تلح عليه ، ونفسه تهفو إليها ، وقلبه يهتف به
أن ينطلق ليراها ، فقام وخرج ، وساقته رغبته إلى هناك ، فوقف أمام المحل
لحظة ، وقد دبّت الرهبة فى جسمه ديبب الحمل ، ولحها من خلل الزجاج
الخارجى ، فخفق قلبه ، وراح يستجمع جأشه ، ينمق ما يقوله ، حتى إذا
اطمأن إلى نفسه دلف إلى المحل ، واتجه إليها وهو يرصد جسمها الرائع وقد
استيقظت فى نفسه مشاعره الكوامن . وانتبهت إلى وجوده ، فالتفتت إليه
وعلى شفيتها ابتسامتها العذبة التى تعبث بالأفعدة ، وقالت فى صوتها الهامس
المشحون أنوثة :

— أية خدمة ؟

فقال في صوت متهدج :

— أريد أن أسعد بموسيقى تعجبك .

فانفجرت أساريرها ، وقالت وقد تكسرت أهدابها .

— المهم أن تعجبك أنت .

فقال وقد سكن روعه :

— ستعجبني ولا شك .

وفتحت درجا ، وأخرجت أسطوانة ، وقالت :

— حلاق أشبيلية لروسي .

ولم يلتفت إلى ما تقول ، فما كان يفرق بين موسيقى وموسيقى ، كان يتطلع إلى جسدها وقد أفعم بإحساسات فوارة ، ولو طأوع نفسه لضمها إليه واعتصرها ، ولجعل يلثمها في سعار ، ليطفئ النار التي تأججت بين حنايا ضلوعه .

وسار إلى غرفة من الغرف الزجاجية الكثيرة لتسمعه سريناد شوبير ، فجلس على كرسي ، وانحنى تضعع الأسطوانة ، وتبدل الإبرة ، فدنا جسدها من جسده ، وملاً عبيرها أنفه ، فاضطرب ، وراح يرنو إلى صدرها الناهد وفي عينيه بريق .

وانسابت الأنغام ، فانسلت الفتاة في خفة ، وأسندت ظهرها إلى باب الغرفة ، وأطرقت تنصت ، وعلت وجهها النشوة ، أما هو فراح يصعد عينيه في جسدها الرائع ، وفي صدره نار ، وظلت خاشعة ، وظل يتطلع إليها في اشتها ، وقد أصم أذنيه عن الأنغام ، حتى إذا ما انتهت القطعة ، وتحركت الفتاة صوب الحاكى « الفونوغراف » انتبه إلى نفسه ، فغمغم في صوت

متهدج وهو يرميها بنظره الحار .

— رائعة .

وغادر المحل وهو يحمل لأول مرة أسطوانة موسيقية ، وانطلق إلى البيت ، وما خلا بنفسه حتى جعل يفكر في الفتاة واحتل تفكيره صورتها ، وقد أسندت ظهرها إلى باب الغرفة الزجاجية ، وتراءى له جسدها الفتان ، فتدفق دمه حارا في عروقه ، وخطر له أن يدير الأسطوانة التي اشتراها ، ليهيئ نفس الجو الذي عاش معها فيه لحظات ، فأحضر حاكيه « فونوغرافه » المهجور ، ووضع فيه الأسطوانة ، واسترخى في جلسته ، وراح ينعم بالأحلام .

انساب النغم حلوا جذابا ، يشرح الصدر ، ويفتح الخيال ، فراح يهيم في سمواته ، فأحس نشوة تملأ أقطار نفسه ، وراحة تدثره ، فرد ذلك الشعور الهائض إلى أن نفسه باتت تستريح إلى التفكير فيها ، والحياة معها ولو في الخيال . ووافى اليوم التالي ، فألقى نفسه ينطلق على الرغم منه إلى من شغلت القواد ، ودخل المحل ، وأدار عينيه فيه ، فلم يجدها ، فأحس انقباضا ، وفكر في العودة من حيث جاء ، وقبل أن يدور على عقبيه لمحها خارجة من غرفة من الغرف الكثيرة الممتدة على جانبي الردهة ، فأحس الراحة ، وذهب إليها متطلق الوجه ، فلما رآته ابتسمت له ابتسامة هزت كيانه ، وأيقظت مشاعره الفوارة في صدره ، وقالت له في صوتها الخافض المشحون أنوثة :

— وجدت لك قطعة موسيقية رائعة .

فقال وهو يرنو إلى جسدها في اشتها :

— وما هي ؟

— منتصف الليل ليتوهفن .

وذهبت تحضر الأسطوانة ، وهو يتبعها بعينه ، ثم دخل ليستمع القطعة



التي يروى بها « يتهوفن » همسات العشاق في منتصف الليل ، وجعل يحدج الفتاة بنظره ، ولكن ما إن انبعثت الأنغام ، حتى ألقى نفسه برغمه يصيخ إليها السمع ، وعجب في نفسه كيف أن مثل هذه الأنغام شغلته لحظات عن التطلع إلى جسدها الحلو الجذاب ١٩

وعاد إلى داره ، وطفق يفكر في الفتاة وهو ينصت إلى « منتصف الليل » ، وسرعان ما استولت الأنغام على حواسه ، حتى شغلته عن التفكير في الجسد الحلو ، فراح يصغى إليها نشوان ، وقد تفجرت في نفسه ينابيع جديدة من المشاعر . وتفتحت في صدره إحساسات رقيقة هفهافة ، وسمت روحه . فأخذت تهيم في عوالم نقية من الخيال .

ومرت الأيام وهو يتردد على محل الموسيقى ، ينتقى ما يشتهي من القطع الموسيقية ، وفي يوم عاد إلى داره ، وراح يصغى إلى القطعة التي اقتناها ، وقد امتلأ نشوة ، وأفعم بإحساسات لذيذة ، وظلت الأنغام حلوة عذبة رقيقة ، وهو في محرابه جذلان ، وانتهت الأسطوانة ولما انتهت القطعة الجذابة ، كان لها بقية في أسطوانة أخرى ، فأحس رغبة في أن ينعم الساعة ببقية القطعة التي ذهبت به في دنيا وردية حيية ، وضايقته لذته المبتورة ، ففكر في أن ينطلق ، ليحضر بقية القطعة ، ولكن الليل كان قد أرخى سدوله .

وما إن أصبح الصباح حتى هرع إلى محل الموسيقى . وقابل الفتاة ، وقد رفت على شفيتها ابتسامتها الساحرة الآسرة ، ولكنه لم يلتفت إليها ، وسألها عن الأسطوانة التي يبيعها ، ودخلا إلى الغرفة الزجاجية ، وانبعثت الأنغام ، ووقفت الفتاة عند باب الغرفة ، بجسمها المشقوق الفتان ، وقد استرخت في وقفتها ، فربت فنتها ، ولكنه لم يتطلع إلى الجسد الرائع الذي كان يهزه ويحرك

مشاعره الفؤارة الكامنة ، إنه أطرق ليصغى إلى القطعة التي سميت بروحه ،
وجعلته يسبح في بحور صافية من الخيال .
وما انتهت القطعة حتى حمل الأسطوانة وهو مأخوذ ، دون أن يلتفت إلى
الفتاة ، وهرع إلى البيت لينفرد بالأنغام .

رسول النسيم

يوم من أيام الربيع ، النسيم يهب عليلًا ينعش القلوب ، والوقت ساعة الأصيل ، والشمس تنحدر في الأفق الغربي ، وقد توهجت كقرص من نار قبل الخفوت ، وخرج الناس من دورهم ، وصعدت أم وابنتها إلى السطح تستروحان النسيم .

كانت الأم في الخامسة والأربعين بمختلفة الجسم ، موفورة الصحة ، تتألق عيناها بيريق أكثر ما يلمع في الربيع ، ترتدى ثوبا أسود من تلك الثياب التي ترتديها زوجات الصناع والعمال والباعة الجوالين ، وجلست إلى جوارها ابنتها شاذخة الصدر ، نحيلة الخصر ، حلوة جذابة نامية ، في السابعة عشرة ، أنضر من وردة الربيع .. كانت في السن التي تحلم فيها بالرجال الأشداء ، والزوج المنشود .

وجاء غراب ، ووقف على الحائط ونعق : غاق .. غاق .
فرمقته المرأة مستطلعة ، وقالت في لهفة : خير ؟ . خير ؟ .
وفطنت ابنتها إلى لهفتها ، فقالت في عجب :

— أي خير تنتظرين ؟

فقالت لها أمها في إنكار :

— ألا تعلمين ؟

فقالت الفتاة في دهش :

— أعلم ماذا ؟

— ما تعلمه جميع النساء .

— عن أى شيء تتحدثين ؟

— عن رسالة الغراب التى ذهب بها .

— إية رسالة ؟

— الرسالة التى أوقدته النسوة بها ، ولم يعد بعد بردها .

— والله لا أدري ماذا تقصدين . غراب .. نسوة .. رسالة ، ما كل

هذا ؟

— كبرت ، وصار الأمر يهمك ، فما من امرأة إلا تعرف هذا الأمر ،

اسمعى .

وتعلقت عينا الفتاة بأمرها ، وقد أعارتها سمعها ، وأخذت الأم تقص

قصتها :

— من مئات السنين ، أباح الله للرجال أن يتزوجوا مثنى وثلاث ورباع ،

وحرم على المرأة أن تتزوج أكثر من رجل ، فساء ذلك النساء ، واجتمعن فى

مؤتمر يتدارسن الأمر ، فقر رأيهن على أن يقين من الله أن يسوى بينهن وبين

الرجال ، أن يسمح لهن الزواج من أربعة رجال ، كما أباح للرجال الزواج من

أربع نسوة ، وكتبن الرسالة ، ولكن من ذا الذى يحملها ؟ كان الغراب

حاضرا ذلك المؤتمر فتطوع بحملها .. أخذها وطار . وغاب رسول النساء ،

ومرت أجيال وأجيال ، ونحن نتظر أوبته متلهفات ، كلما نطق غراب ،

حسبناه الرسول قد عاد ، كلما صاح : « غاق » هتفنا به مستبشرات :

خيرا ! ، لعله قد جاء بالفرج .

وصمتت الأم ، والفتاة تنظر إليها ساهمة ، وجاء غراب ونطق : غاق .

فأفاقت الفتاة من أحلامها ، وقالت فى لهفة : خير .. خير إن شاء الله !

سيرة حمراء

وقف في النافذة يرقب ساعى البريد في قلق ، فقد وافى ميعاده ، وهو يخشى أن يتكرر ما حدث في الأيام الثلاثة المنصرمة ، من إقبال الرجل ثم انطلاقه في طريقه ، دون أن يعرج على داره ، ويترك الرسالة المرتقبة .

إنه طالب فلسفة في السنة النهائية في جامعة فؤاد الأول ، نفذت نقوده التي بعث بها إليه أهله ، ليعيش عليها طوال شهره ، فكتب إليهم يلتمس منهم مددا يعينه على مواجهة الحياة الباهظة في العاصمة الشرهة ، التي فقدت فيها النقود قيمتها .

واشرب بعنقه ، ونظر إلى الطريق ، فلم يلمح ساعى البريد المنتظر ، فدار على عقبيه في ضيق ، وراح يقطع الغرفة ذهابا وجيئة وهو متبرم ، وفكر في الرسالة التي كتبها إلى أبيه ، فألفاها بفضل ما فيها من مغالطات فلسفية ، وأكاذيب قوية ، تستدر عطف الأب الساذج ، وترغمه على أن يبعث إلى ابنه الغريب في مدينة قاسية — ما يطلب من مال .

وشعر بالجوع يهصر أحشاءه ، فزاد تبرمه ، وهب ضميره ييكسه ، ويصيح به أن ما يصل إليه من البلدة يكفيه لولا ذلك الضعف البغيض ، الذي يتتابه عقب وصول النقود إلى يديه ، فقطب نجيبته ، وجعل يطمئن نفسه أنه لن يستكين إلى ضعفه إذا بلغه ما طلب من أبيه .

وسار إلى النافذة ، ورمى ببصره ، فرأى ساعى البريد مقبلا ينساب

كثعبان ، فما أن يتجه إلى اليمين ويترك رسالة حتى يعود إلى اليسار ، وسرعان ما يذهب إلى اليمين ليعود إلى اليسار ، وجعل يرصده خافق القلب ، يتجاذبه اليأس والرجاء ، حتى إذا ما بلغ داره ، ودخل من بابها ، هرع إلى السلم وقد أرهفت حواسه ، وداعب أذنيه صوت الرجل وهو يهتف باسمه ، فسرت في صدره نشوة ، وراح يقفز الدرج قفزا ، وتناول الرسالة وفضها في لفحة ، وما إن أطلت منها الحوالة المالية حتى انبسطت أساريه ، وانشرح صدره وهدأت نفسه ، فقد خلق اللحظة خلقا آخر .

وانطلق إلى مطعم فاخر ، وتناول طعاما دسما ، وما أن امتلأت معدته حتى نسى جوعه ، وما قاساه في الأيام الثلاثة الماضية من ضنى شديد ، ونسى وعده لنفسه بأنه لن يستسلم لضعفه ، وأسيل عينيه ، وراح يفكر في أن يقضى ليلة حمراء صاخبة ، يختزن فيها من المشاعر والإحساسات ما يهون عليه جذب الليالي ، ومرارة الأيام ، إذا ما قبع في داره ولم يبق له إلا الذكريات يجترها في لذة وسرور .

كان يؤمن في أعماقه بما قاله أحدهم : حسبت عمري ، فوجدته أربعة عشر يوما فقط ، هي لحظات حياقي التي تقضت دون كدر أو هموم !! فكان يحاول اغتنام ساعات الصفو ، وأن يجعل حياته أطول من حياة ذلك السعيد . إن كل لحظة من لحظات لذته هي التي يحسبها في عمره ، أما ما عداها فهي عبث وهباء منشور .

وغادر المطعم وهو مسترسل في التفكير فيما يفعله في ليلته ، ففى يده نقود ، وما خطر له على قلب ما اعتزمه في ساعات جوعه من مقاومة ذلك الضعف الذي تلذوب بسببه النقود ، وما هب ضميره ليزجره ، فما يفيق الضمير من سباته العميق إلا بعد وقوع المحظور ، وذهب يضرب في

الطرقات ، ثم عرج على مكان يتناول فيه كأسا تنعش روحه ، وينظر حتى تذهب طلائع الليل ، فما كان لطالب هو مثله أن يخرج لبحث عن صيده إلا بعد أن يهجع الناس الطيبون .

ومضت ساعات ، وهدأت المدينة ، ودقت ساعة معلنة النصف بعد منتصف الليل ، فقام يفرك يديه ، ويخرج إلى الطريق .

وسار يتلفت ، حتى إذا ما بلغ تقاطع عماد الدين بشارع قواد الأول ، رأى على ناصية الطريق امرأة في ثوب أحمر بديع ، يبرز مقائن جسمها ، وورنا إلى صدرها ، فألفاه شامخا بديع التكوين ، ودنا منها ، فراحه دقة تقاطيعها ، وتناسق ملامحها ، وحدجها بنظره ، فلم تجفل ، بل خيل إليه أنها تبتسم وفي عينيها دعوة صريحة ، وعلى الرغم من ذلك لم يتقدم ، فقد أرببه جمالها ، وأدار عينيه في المكان ، فألقى على قيد خطوات رجلا في ثياب نظيفة ، فطاف برأسه أن ذلك الرجل هو رجلها الذي يدفعها لتعرض نفسها على الغادين والرائحين ، وأعاد النظر إلى الرجل ، فوجد أن منظره لا يوحى بأنه من ذلك الطراز الذي ويتعيش من دفع امرأة إلى عرض الطريق ، ولكن فلسفته أقنعت أنه المنظر خداع ، وأن حسن اليزرة ، والتسريل بالوقار وإظهار الأنفة ، أصبحت من مستلزمات الصنعة ، لتعمل في نفس الزبون عملها . إن جميع القرائن تدل على أنه معها ، فالطريق خال ، وليس هناك غيرها ، ومع ذلك بقيا مدة كل في مكانه يرقبان صيدهما ، وأقنع نفسه بأن الرجل قوادها ، فاتجه إليه في جسارة ، وقد صورت له فلسفته أن من الأصوب أن يحادثه مباشرة في أمرها ، بدلا من أن يضيع وقته في مغازلتها دون جدوى .

واقترب من الرجل وحياء وهو يبتسم ، ثم التفت إلى المرأة ، وغمز له بعينه ، فنظر إليه الرجل في إنكار ، ولكنه لم يأبه لاستنكاره ، إن هو إلا من



لوازم دوره ، وقال له في بساطة :

— لم بعد هناك ضرورة لاستمرار عرضها وقد جاء الشارى .

فاتسعت حدقتا الرجل ، وامتعق لونه ، وأذهلته المفاجأة ، فلم يجد لسانه ، وقال الشاب :

— أظن أننا نستطيع أن نهي هذه الصفقة لو دعوتها لتقف معنا .

فقال الرجل في ثورة :

— اذهب من فضلك .

ومرت سيارة فاخرة ، فرمقها الرجل بنظره ، فقال صاحب الفلسفة في ثقة :

— لن تجد لها الليلة صيدا أفضل منى ، عصفور على الأرض خير من عشرة في كريزلر .

— انصرف خير لك .

— هكذا أنتم ، إذا أقبلنا عليكم تدلتم ، وإذا أعرضنا عنكم تهافت علينا تهافت الذباب .

— اذهب قبل أن أحطم لك وجهك .

— لست مفلسا حتى تحطم لى وجهى ، إلى أعرف كيف أهدى من ثورتك :

ومد يده في جيبه ، وأخرج بعض أوراق مالية ، وقال وهو يتسم :

— ما رأيك في هذه الأوراق ؟

فقال الرجل في حنق شديد :

— أنت أوقع من رأيت عيناى .

فقال الشاب وهو ينحنى :

— متشكر ، وأنت أبرع من امتن هذه المهنة ، مظهرك قد يخدع كثيرا من الأغرار ، ولكنه لن يخدعنى أبدا .

وأخذ الرجل يتلفت فى غيظ ، فقال له الشاب فى سخرية :

— لا تتعلق بالأوهام . لن يأتى .. وأعدك وأحلف ، ولكن لا بأس . لن تخسر شيئا .. أنا هنا .

أرحمها من تلك الوقفة ، فقد تعبت ساقاها .

— اغرب من وجهى قبل أن ..

— سأنصرف حتما إذا وضعت يدي فى يدها .

ولم يعد الرجل يحتمل أكثر من ذلك ، فراح ينادى فى حدة :

— عسكرى ! . عسكرى !

فصاح الشاب فى استخفاف :

— عسكرى ! عسكرى ! .. ماذا يهمنى ؟ ! لن تفضح إلا نفسك .

وأقبل جندى يهرول ، واقترب من الرجلين ، وما أن وقعت عيناه على الرجل الثائر ، حتى دوى صوت حدائه ، وارتفعت ذراعه بالتحية العسكرية ، فقد كان الرجل من الرجال البارزين ، وقال فى احترام :

— أفندم .

واضطرب الشاب لأول مرة ، وذابت شجاعته ، وتفككت أوصاله ، ودارت الدنيا به ، وما كاد يسمع ما يهدير به الرجل الثائر ، ولكنه شعر بالجندى يدفعه أمامه ، فسار ذليلا ينمى على فلسفته تغريها به ، وتوريطه فيما قاده إلى القسم ، ليقضى فيه ليلة ، كان يرجو أن يقضيها فى سرور ، لتزيد أيام حياته على أيام ذلك السعيد الذى وجدها أربعة عشر يوما فحسب .

فهرست

صفحة	
٣	 صدى السنين
٢٢	 صديقي جيمس
٤٤	 غصبة الحريم
٥٢	 ترويض امرأة
٦٢	 كازنوقا جديد
٧٧	 البخيل
٨٩	 مولد أديب
١٠٢	 امرأة أعمال
١٠٨	 قصة حب
١٢٤	 رجل وامرأة
١٣٦	 فنان
١٤٢	 شرف
١٤٩	 رسالة حارة
١٦٢	 غيرة القصير
١٦٩	 قصر في الجنة
١٨١	 قصة الخدباء
١٨٦	 فارس وامرأة
١٩٦	 في العيد
٢٠٠	 من أجلك أنت
٢٠٦	 دمي
٢١٤	 روميو
٢٢٢	 شجرة الشيطان
٢٢٤	 امرأة وأخا
٢٣٢	 رسول النساء
٢٣٤	 ليلة حراء

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة



الثنى ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com